

أنا

عباس محمود العقاد

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

اسم الكتاب: أنا.
اسم المؤلف: عباس محمود العقاد.
تاريخ النشر: ١٩٩٦
تصميم الغلاف: م. محمد العتر
رقم الإيداع: ٤٠٠٧/١٩٩٦
الترقيم الدولى: I. S. B. N 977-14-0419-9

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة
مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ /٠١١
فاكس: ٣٣٠٢٩٦ /٠١١
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة.
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ /٢.
فاكس: ٥٩٠٣٣٩٥ /٠٢
ص. ب: ٩٦ الفجالة
ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ /٢.
فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦ /٠٢
ص. ب: ٢٠ امبابة

الكتاب و الكاتب

بقلم : طاهر الطناحي

لما أصدر الفقيد الكبير عباس محمود العقاد ديوانه : « وحى الأربعين » - وكان وقتئذ فى الرابعة والأربعين من عمره - اقترحت عليه « مجلة الهلال » أن يكتب فصلاً نثرياً فى هذا الموضوع ، فكتب لها فصلاً بعنوان « بعد الأربعين » . وصف فيه حياته النفسية ، وحالته الفكرية فى هذا السن ، وتحدث عن فلسفته بين الشباب والكهولة ، وعن تجاربه الشخصية بين العشرين والأربعين وقد نشرته «الهلال» فى أول يونيو سنة ١٩٣٣ م .

وكان هذا المقال هو أول مقال كتبه عن نفسه بأسلوبه العلمى التحليلى .

وبعد عشر سنوات - وقد توليت تحرير هذه المجلة - اقترحت عليه أن يكتب مقالاً بعنوان « وحى الخمسين » . . فكتب هذا المقال ، ونشرته « الهلال» فى أول مايو سنة ١٩٤٣م . وقد جعله موضوعيّاً كما جعله شخصيا . فتناول حياته وحياة أمثاله ممن بلغوا هذه السن ، وما يعتور أصحابها من حالات نفسية ، ونظرات جديدة إلى الحياة تختلف عن نظرات أبناء العشرين أو الثلاثين أو الأربعين . .

وقد وصفها بأنها سن اغتناء لا سن افتقار ، ثم قال :

« إذا جاز لى أن أقيس على نفسى ، فهى لا تقل غنى عن الأربعين . وقد تفوقها غنى من وجوه . . ومن أمثلة كثيرة بين أصحاب الوحى - وأصحاب الوحى هنا هم المنتجون فى عالم الذوق والتفكير - نرى أن ثمرات الخمسين بين الفلاسفة والشعراء ، وأرباب الفنون ، تضارع خير الثمرات فى سائر الأعمار» .

وقد رأيت فى هذين المقالين أن كتاباته عن نفسه ، وترجمته لحياته تختلف عما كتبه الكثيرون من رجال الفكر والأدب والاجتماع عن حياتهم . . فبعض هؤلاء العلماء والأدباء والساسة ترجم لحياته فى أسلوب تأريخى ، وبعضهم فى صيغة مذكرات أو ذكريات ، وآخرون صوروا حياتهم فيما يشبه الاعترافات مع الاكتفاء بالأهم والمهم من الأحداث وأدوارهم فيها . . !

أما كتابة العقاد عن نفسه ، فهى كتابة لها طابع جديد فى كتابة التراجم . كتابة ليست شخصية بحتة ، ولا سردًا لأحداث مرت به ، أو عاش فيها وكان له دور من أدوارها فحسب ، بل هى كتابة باحث عالم ، وفنان نابغ تعوّد النظر فى مسائل العلم ، وقضايا الفن والفكر ، وجال فى شئون الفلسفة وعلم النفس والأدب والتربية والاجتماع ، وتمرس بتجارب الحياة ، ومارس حلوها ومرها وخرج منها بخبرة العالم ، وعبرة المفكر ، وحكمة الفيلسوف ، فإذا كتب عن نفسه تناول ألوانًا من المعرفة ، وعالج أنواعًا من التفكير ، وتعقب كل حادث أو شأن من الشئون بالتعقيب العلمى ، أو التعليل النفسى ، أو التأمل الفلسفى !

كتاب «عنى» :

وفى نحو السابعة والخمسين من عمره - وكان ذلك فى سنة ١٩٤٦م - اقترحت عليه أن يكتب كتابًا عن حياته . .

فأجابنى: «سأكتب هذه الكتاب ، وسيكون عنوانه «عنى» وسيتناول حياتى من جانبين :

الأول: حياتى الشخصية بما فيها من صفاتى وخصائصى ، ونشأتى وتربيتى البيتية والفكرية ، وآمالى وأهدافى ، وما تأثرت به من بيئة وأساتذة وأصدقاء ، وما طبع أو انطبع فى نفسى من إيمان وعقيدة ومبادئ ، أو بعبارة أخرى « عباس العقاد الإنسان » الذى أعرفه أنا وحدى ، لا « عباس العقاد » كما يعرفه الناس ، ولا «عباس العقاد » كما خلقه الله !

والجانب الثانى: حياتى الأدبية والسياسية والاجتماعية المتصلة بمن حولى من الناس ، أو بالأحداث التى مرت بى وعشت فيها أو عشت معها ، وخضت بسببها عدة معارك قلمية ، وكانت صناعة القلم أبرز ما فيها ، أو بعبارة أخرى «حياة قلمى» الذى عاش معى وعشت معه منذ بدأت أكتب فى الصحف السياسية والأدبية ، وأنا فى السادسة عشرة حتى الآن . .

« وهذا الكتاب يحتاج منى إلى التفرغ مدة طويلة ، وبخاصة الجانب الثانى ، لأنه يحتاج إلى دراسة تاريخية ومراجعة للأحداث ، وتحقيق دقيق للأسباب والمسببات وجمع للوثائق السياسية والأدبية» .

« ولعلى أبدأ بالجانب الأول الذى هو (أنا) لأنه أقرب إلى الكتابة وبخاصة وأنا فى نهاية الحلقة السادسة من عمرى ، فسواء عشت إلى السبعين أم الثمانين أم المائة ، فإن عدد الشهور والأعوام لا يغير منه شيئًا . . ! » .

كتـــاب «أنـــا»:

كان هذا الحديث فى أواخر سنة ١٩٤٦. وقد كتب بمجلة «الهلال» قبل ذلك المقالين السالفين: «بعد الأربعين» و «وحى الخمسين». فرأيت أن هذين الفصلين هما من فصول الجانب الأول، فاعتزمت أن أستكتبه فى «الهلال» سائر فصول هذا الجانب إلى نهايته، ثم أجمعه له فى كتاب منفرد كما فعلت فى كتاب «رجال عرفتهم» الذى نشرته سلسلة «كتاب الهلال».

وعرضت عليه الكرة، فوافق عليها، وكان أول ما كتبه بعد هذا الاتفاق مقال: «إيمانى» الذى نشرته «الهلال» فى يناير سنه ١٩٤٧م. ثم مقال «أبى» إلى آخر ما كتبه من الفصول التى أربت على الثلاثين فصلاً فى «الهلال».

وقبل وفاته بشهر كان يزورنى بمكتبى، فحادثته فى جمع هذه الفصول وما نشر فى موضوعها فى بعض المجلات الأخرى ليتألف منها كتاب نختار له عنوانًا مناسبًا، فأجاب: «لا بأس وسنجعل عنوان الجانب الثانى بعد تأليفه «حياة قلم»..!

فأخذت فى جمع هذه الفصول، وضممت إليها خمسة فصول نشرتها مجلات «المصور» و «الإثنين» و «كل شىء» و «القافلة»[(١)] وما كدت أنتهى من جمعها حتى مرض وعاجلته المنية. فرأيت من الوفاة لنا بالغنا الكبير، وللتاريخ الأدب أن أنشر هذا الكتاب. واخترت له عنوان «أنا».

وإنى أرى ويرى القراء معى أن هذا العنوان أصدق عنوان على فصول هذا الكتاب التى تتناول الجانب الشخصى والنفسى من حياته. ولو كان العقاد حيًا لما رفض هذا العنوان فقد كان رحمه الله يترك لى عنوان بعض مقالاته التى ينشرها فى مجلة «الهلال» وأسماء بعض كتبه التى نشرتها سلسلة كتاب الهلال ثقة منه بأنى أختار الاسم المناسب..

وحياة العقاد حياة ضخمة لا يجمعها كتاب واحد. فإذا كنت أقدم للقراء فى كتاب «أنا» حياته النفسية والشخصية، أو «العقاد الإنسان» فسيبقى بعد ذلك أمام المؤلفين والباحثين: «العقاد الكاتب» و «العقاد الشاعر» و «العقاد السياسى» و «العقاد اللغوى» و «العقاد الصحفى» و «العقاد الفنان» و «العقاد المؤلف» و «العقاد العالم» و «العقاد الفيلسوف»، وفقد كان بحرًا فى اطلاعه وإنتاجه، وكان فذًا فى مواهبه وعبقريته.

(١) قافلة الزيت مجلة علمية أدبية تصدر عن شركة أرامكو للزيت بمدينة الظهران بالسعودية.

وقد كان الفقيد العزيز يحب الحياة على الرغم من متاعبها وأذاها ، وعلى الرغم مما عاناه فيها من أمراض وشدائد ، لأنه كان يحب المعرفة ويغرم بها ، ويحب أن يصل إليها ، وتصل إليه ، ولو تحت التراب . . !

كنا وكان الناس يعرفون ذلك عنه فلما بلغ السبعين من عمره ، كنت أزوره ليكتب عن «وحى السبعين» فسألته :

هلا تزال تحب الحياة اليوم ، كما تحبها بالأمس . . ؟

فقال :

لم يتغير حبى للحياة . ولم تنقص رغبتى فى طيباتها . . ولكننى اكتسبت صبرًا على تركِ ما لابد من تركه ، وعلمًا بما يفيد من السعى فى تحصيل المطالب وما لا يفيد وزادت حماستى الآن لما أعتقد من الآراء ، ونقصت وحدتى فى المخاصمة عليها ، لقلة المبالاة بإقناع من لا يذعن للرأى والدليل . .

وارتفع عندى مقياس الجمال ، فما كان يعجبنى قبل عشر سنين ، لا يعجبنى الآن ، فلست أشتهى منه أكثر مما أطيق . . كنت أحب الحياة كعشيقة تخدعنى بزينتها الكاذبة وزينتها الصادقة . فأصبحت أحبها كزوجة أعرف عيوبها وتعرف عيوبى . لا أجهل ما تبديه من زينة وما تخفيه من قبح ودمامة . إنه حب مبنى على تعرف وفهم .

والحياة بمعناها ولفظها حياة ، سواء رضينا أم لم نرض ، وهى خير من الموت وقد نظمت أبياتًا فى هذا المعنى فقلت :

قالوا الحياة «قشور»	قُلْنَا فأَيْنَ الصَّمِيمُ
قالوا «شقاء» فَقُلْنَا	نَعَمْ فأَيْنَ النَّعِيمُ
إنَّ الحَيَاةَ حَيَاةٌ	فَفَارِقُوا أَوْ أَقِيمُوا

ولم يكن « العقاد » يتشاءم من شىء فى الحياة مطلقًا ، فقد كان يتحدى التشاؤم ، ولا يؤمن به ، حتى أنه كان يتحدى رقم ١٣ الذى يتشاءم منه الكثيرون ، فكان يسكن منزلاً بمصر الجديدة يحمل هذا الرقم ، وكان الرقمان الأولان من تليفونه هما ١٣ ، وقد بدأ بناء منزله بأسوان يوم ١٣ مارس ، وقسم كتبه ١٣ قسمًا ، واحتفظ بتمثال للبومة كان يضعه على مكتبه . . ومن الغريب أنه دفن فى أسوان يوم ١٣ مارس . .

لم يبلغ كل ما أراد..!

وقد سألته مرة : هل ظفرت بما كنت تريده من الحياة ؟ .. وهل كان ذلك هدف خاص حاولت أن تبلغه ، فبلغته ؟ .. وهل تحب نفسك الآن أكثر مما كنت تحبها أيام الشباب ؟ .. وهل تشعر بأن هناك صفات معينه تفتقر إليها ؟ .. وهل تجد فى نفسك صفات تكرهها ويكرهها الناس ولا تستطيع التخلص منها؟ وهل تحب أن تعيش حياتك الماضية مرة أخرى ؟ .. ثم ما هى فلسفتك فى الحياة ؟

فكتب العقاد يقول :

- كل ما كنت أريده وأطلبه من الحياة لم أبلغه ، ولا أرى أن أحدًا بلغ كل ما طلب وأما هدفى فى الحياة ، فكان فى الصبا أن أتولى القيادة العسكرية ، ثم تحولت أو خيل إلىّ أننى أتحول إلى طلب العلوم الزراعية ، وأن ألتحق بمدرسة الزراعة فى ذلك الحين ، ثم تبين لى من مراجعة نفسى مراجعة دقيقة أن وراء الطموح إلى القيادة العسكرية وإلى العلوم الزراعية باعثًا واحدًا هو «حب الأدب . . .»

» فقد كنت أنظم الشعر فى الحماسة ، ثم جنحت نفسى إلى دراسة الأزهار والطيور فبدا لى ذلك كأنه طموح إلى التفرد فى علوم الزراعة ، وما كان فى حقيقته إلا صورة من صور الجمال ، أو حب الطبيعة . . .

وقد استويت على هذه الحالة بعد هذه المراجعة ، فبلغت فيما أعتقد غاية ما يستطاع فى بيئتنا العربية ، ولم أبلغ الغاية التى رسمتها أمامى فى مقتبل حياتى ، ولا قريبًا من الغاية . وإذا قدرت ما صبوت إليه مائة فى المائة ، فالذى بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين . . !

أما حبى لنفسى ، فإنى أصارحك أننى ما أحببت نفسى قط إلا لسبب عام أرى أننى أصلح له ، وأستحق الحياة من أجله .. ولا تهمنى الحياة لحظة إن لم تقترن بهذا السبب . . !

وإنى أشعر أن لى خصالاً كثيرة أستطيع أن أمنحها غيرى . ويكفى هذا عوضًا عما يعوزنى من الخصال . . !

ولم يكره الناس من صفاتى إلا تلك الصفات التى أعتز بها . . وأما ما أكرهه أنا فهو المحاسبة الشديدة لنفسى وللناس ، ولولا هذه المحاسبة لرضيت عن نفسى ، ورضيت عن الكثيرين .

وإذا لم أجد من حياتى الماضية ، فأنا مضطر أن أعيشها بخيرها وشرها ، وأنعم بما فيها . وأنا على كل حال راض عن الحياة كل الرضا .

* * *

« أما فلسفتى فى الحياة ، فأهم جانب من جوانبها هو ما استفدته من الطبع الموروث وجاءته بعض الزيادة من التجارب والقراءة ، وأعنى به قلة الاكتراث للمقتنيات المادية ، فأعجب شىء عندى هو تهالك الناس على اقتناء الضياع والقصور وجمع الذخائر والأموال .

ولم أشعر قط بتعظيم إنسان لأنه صاحب مال ، ولم أشعر قط بصغرى إلى جانب كبير من كبراء الجاه والثراء . بل شعرت كثيرًا بصغرهم ، ولو كانوا من أصحاب الفتوحات !.

وأنا أعتقد أن نابليون مهرج إلى جانب العالم باستور ، والإسكندر المقدونى بهلوان إلى جانب أرشميدس ، وأن البطل الذى يخوض الحرب ذودًا عن الحق والعقيدة أكرم جدا من كل بطل يقتحم الحروب ليقال أنه دوخ الأمم ، وفتح البلدان .

* * *

« وأما فلسفتى فى الحياة مع الناس ، فأثر التجربة والدرس فيها أغلب من أثر الطبيعة الموروثة ، وقد اتخذت لنفسى شعارًا معهم ، وهو : ألا تنتظر منهم كثيرًا ، ولا تطمع منهم فى كثير . . !

وهذه الفلسفة تتلخص فى سطور :

غناك فى نفسك ، وقيمتك فى عملك ، وبواعثك أحرى بالعناية من غاياتك ، ولا تنتظر من الناس كثيرًا تحمد عاقبته بعد كل انتظار » .

ميله إلى العزلة

وقد كان العقاد يميل إلى العزلة والانفراد ، بل كان يميل إلى الانطواء وربما ظن البعض أن هذا الانطواء يرجع إلى عقد نفسية ، ولذلك سألته يومًا عن هذه الحالة التى لازمته طول حياته . فكتب يقول :

أعترف لك أننى مطبوع على الانطواء ، ولكنى مع هذا خال بحمد الله من العقد النفسية الشائعة بين الكثيرين من أندادى فى السن ، ونظرائى فى العمل وشركائى فى العصر الذى نعيش فيه . .

لقد ورثت طبيعة الانطواء عن أبى وأمى .. فلا أملّ الوحدة ، وإن طالت . ولا أزال أقضى الأيام فى بيتى على حدة حيث يتعذر على الآخرين قضاء الساعات بل اللحظات . ولكننى أشغل وحدتى بالقراءة والكتابة ، وإذا كنت فى عزلة وانطواء عن الجماعات والحفلات ، فإنى لست فى عزلة عن أصدقائى وإخوانى .

وأنا أميل إلى الصداقة وأكره العداوة .. ولكنى لا أعرف التوسط فى كليهما ، سواء فى إبداء الرأى ، والعلاقات الشخصية ، ولا يمكننى أن أفهم الأسلوب «المودرن» فى السياسة .. فالمجرم فى حق وطنه أقاطعه ، وعاطفتى تتشكل نحوه حسب هذا الاعتقاد .

وأنا لا أحمل على إنسان إلا إذا اعتقدت أنه يستحق هذه الحملة . وإذا ما حملت على إنسان ، لا أتوسط فى حملتى عليه ، لأن الشخص الذى يسىء إلى وطنه أو إلى الإنسانية ، يجب أن نقاطعه وأن نحمل عليه ، وإلا اعتبرناه أحسن من الإنسانية أو الوطن .

وأنا أعمل عن حب لما أعمله ، وأحب أن أعترف بمسئوليتى ، ولا أحمل أحدًا مسئولية كتاباتى أو آرائى . وأميل إلى التنظيم والمثابرة . ولذلك استطعت أن أجمع بين العمل فى المجمع ومجلس الفنون والآداب وبين التأليف والكتابة والقراءة ، فأعطى لكل حقه .. ! » .

إيمان العقاد

والأستاذ العقاد كان مؤمنًا باللّه كل الإيمان ، لا عن وراثة فقط ، بل عن شعور وتأمل وتفكير طويل ، فقد نشأ بين أبوين شديدى التمسك بالدين ، لا يهملان فريضة من الفرائض اليومية وقد فتح عينيه على الدنيا فوجد أباه يستيقظ قبل الفجر ليؤدى الصلاة ، ويبتهل إلى اللّه بالدعاء ، ولا يزال فى مصلاه إلى ما بعد طلوع الشمس ، فلا يتناول طعام الإفطار حتى يفرغ من أداء الفرض والنافلة وتلاوة الأوراد .

رأى والدته فى عنفوان شبابها تؤدى الصلوات الخمس ، وتصوم وتطعم المساكين . وقلما ترى النساء مصليات أو صائمات قبل الأربعين !

وندر بين أقاربه من لا يسمى باسم من أسماء النبى وآله سواء منهم الرجال أو النساء . وكانت تقام فى بيت أخواله ندوات لقراءة الكتب الدينية ، ومنها مختارات الأحاديث النبوية وكتب التفسير وإحياء علوم الدين للغزالى .

فكان للوراثة شأن فيما عنده من الإيمان والاعتقاد الدينى .

أما الإيمان بالحس والشعور ، فذلك أن مزاج التدين ومزاج الأدب والفن يلتقيان فى الحس والتصوير والشعور بالغيب وعظمة خالق الكون .

وهو كعالم مفكر يرى الإيمان بالتفكير ، والوصول بالعقل إلى معرفة اللّه هو أسمى درجات الإيمان . .

هذا فى العقيدة أما إيمانه فى مجال الأخلاق ، فهو الإيمان بالكمال فلا موجب عنده لعمل الخير غير طلب الكمال وفهم الكمال ، وأما إيمانه بالأدب فهو أنه رسالة عقل إلى عقول ، ووحى خاطر إلى خواطر .

وميزان ذلك كله هو ميزان المثل الأعلى وطلب الكمال ، لأنه إيمان صادق لا كذب فيه ولا غرض ، وهو إيمان يعمر النفس بلذة الروح ، ويغنى عن طلب الجزاء ، ويعزى عن فقد الحمد والثناء .

وكذلك كان إيمان العقاد بالحياة والدين والأدب والأخلاق لا غاية له إلا الكمال!

الكتب وسر الحياة

وقد اشتهر العقاد بسعة اطلاعه ، وكثرة قراءته لمختلف الكتب ، لا يترك نوعًا من أنواع الكتب إلا قرأه . ومع سرعة قراءته ودقته ، فقد كان يعلق كثيرًا على ما يقرؤه بقلمه ، وربما لا يعرف الكثيرون أنه كان يفضل قراءة كتب فلسفة الدين ، وكتب التاريخ العام والتاريخ الطبيعى ، وتراجم العظماء ودواوين الشعر ، وقد قال :

« إننى أقرأ هذه الكتب ، وأعتقد أن العلاقة بينها متينة ، وإن كانت تفترق فى الظاهر ، إذ تؤدى جميعًا إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان . فكتب الفلسفة الدينية تبين إلى أى حد تمتد الحياة قبل الولادة وبعد الموت . وكتب التاريخ الطبيعى تبحث فى أشكال الحياة المختلفة وأنواعه المتعددة . وتراجم العظماء معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة . والشعر هو ترجمان العواطف ، فأنا لا أقرأ من الكتب إلا ما له مساس بسر الحياة – ولكن ما هو سر الحياة ؟

إننى أعتقد أن الحياة أعم من الكون ، وأن ما يرى جامدًا من هذه الأكوان ، أو مجردًا من الحياة إن هو إلا أداة لإظهار الحياة فى لون من الألوان أو قوة من القوى . والحياة دائمة أزلية لا بداية لها ولا نهاية !

فإذا كنت تستطيع أن تعرف سر الله ، عرفت الحياة ، ولكننا مطالبون بأن نحتفظ لأنفسنا فى هذا المحيط الذى لا نهاية له أوسع دائرة يمتد إليها شعورنا وإدراكنا .

والكتب هى وسائل الوصول إلى هذه الغاية ، وهى النوافذ التى تطل على حقائق الحياة ، ولا تغنى النوافذ عن النظر . . !

ومن جهة أخرى ، فإن الكتب طعام الفكر . وتوجد أطعمة لكل فكر كما توجد أطعمة لكل بنية . ومن مزايا البنية القوية أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام كذلك الإدراك القوى الذى يستطيع أن يجد غذاء فكريا فى كل موضوع . . !

العقاد والحب

وحينما كنت رئيسا لتحرير مجلة «الدنيا» الأسبوعية التى أصدرتها دار الهلال اقترحت على فقيدنا العظيم أن يكتب عن الحب ، وكنت أعرف أنه فى شبابه كانت له قصة حب عنيف ، صدم فيها صدمة كبرى . فكتب لهذه المجلة سلسلة مقالات بعنوان : «مواقف فى الحب» . وهى التى جمعها فيما بعد فى كتاب : «سارة» .

ولم يكن اسمها « سارة » . ولكنه اسم مستعار لهذه الفتاة التى وصفها بأنها جميلة بلا مراء ، ومع أنها ليست أجمل من رأى فى حياته ، ولا أجمل من رأى فى أيام حبه لها وشغفه بها ، ولكنها جميلة جمالا لا يحتفظ بغيره فى ملامح النساء . . لونها كلون الشهد المصفى ، يأخذ من محاسن الألوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء فى مسحة واحدة .

وعيناها نجلاوان تخفيان الأسرار ولا تخفيان النزعات ، فيهما خطفة الصقر ، ودعة الحمامة . . وفمها فم الطفل الرضيع مع ثنيات تخجل العقد النضيض فى تناسق وانتظام ، ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجه وبضاضة جسم ، وبين وجهها النضيد وجسمها الفاتن جيد كأنه الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينهما وفقًا لتمام الحسن .

وقد دام الحب بينهما عدة سنوات ثم صدم فى حبه . وكانت الصدمة منها ، وكان الفراق بينهما . وكان بكاؤه الشديد ، وهو يريد إليها ذكرياتها عنده فى إحدى حدائق مصر الجديدة ، بمشهد من صديق من أخلص أصدقائه ، ولم يكن بكاؤه عن أسف عليها ، ولكن العقاد كان شديد الحساسية سريع البكاء ، وقد أثبتت المراجع العلمية والنفسية أن أقوى الرجال أسرعهم إلى التأثر والبكاء .

ومن أمثلة التأثر والحساسية الشديدة عنده أنه أثناء سجنه بتهمة العيب فى الذات الملكية ، وقع نظره يوما على جلاد يهوى بسوطه على ظهر سجين ، ثم ينبثق الدم من ظهر الرجل المسكين . . فعاد إلى مكانه فى السجن باكيا ، وقلبه يكاد ينفطر شفقة ورحمة ، ومكث مريضًا مدة أسبوع كامل ، ولم يستطع النوم ثلاث ليال بأكملها ، وظلت صورة الدم على ظهر السجين تشاغل عينيه ، واستمرت أنات الرجل تدوى فى أذنيه ، ولم يرحم خياله أن ذلك الرجل قد أتى ذنبًا استحق عليه العذاب !

هند - أو - مى

وقد كان أثناء حبه لهذه الفتاة يحب « الآنسة مى » فقيدة الأدب العربى . وقد اعترف لنا فى حديث معه بحب هاتين الفتاتين وحدهما ، فقال : « لقد أحببت فى حياتى امرأتين ، «سارة» و « مى » . . كانت الأولى مثالاً للأنوثة الدافقة ، ناعمة رقيقة لا يشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها ، ولكنها كانت مثقفة أيضًا .

والثانية - وهى مى - كانت مثقفة قوية الحجة تناقش وتهتم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية . كما كان فيها صفات الرجال من حيث إنها جليسة علم وفن وأدب ، وزميلة فى حياة الفكر . أى أن اهتمامها كان موزعًا بين العلم والأنوثة » !

وقد أحبها العقاد حبا روحيا ، وتحدث عنها فى آخر كتاب « سارة » . وسماها باسم « هند » وكان يزورها ويجالسها ويتناولان من الحب ما يتناوله العاشقان العذريان ، وكان يكتب إليها ، فيفيض ويسترسل ويذكر الوجد والشوق والأمل .

وكانت « مى » تحبه حبا شديدًا ، ولم تكن تعلم بحبه لسارة ، وإنما كانت تزعم بينها وبين نفسها أنه معزول عن عالم النساء غير أنها لم تحفل باتصاله بالنساء ، ومادام اسمهن « نساء » لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة وشبح غرام واحد . .!

فلما شعرت بأنه يحب فتاة أخرى ، وكان هذا الحب قبل أن تقع هى فى حبه ، زارته على حين غرة فى مكتب عمله - وهى الزيارة الأولى والأخيرة - فرحب بها وأبدى لها استغرابه لزيارتها المفاجئة ، وابتهاجه بسؤالها عنه وأنصت لها ، فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج :

- لست زائرة ، ولا سائلة . .!

فقال : إذن . . ؟

فلم تتكلم ، بل نظرت إليه ، كمن يستحلفه ألا يتكلم . وانحدرت من عينيها دمعتان ، فما تمالك نفسه وتناول يدها ، ورفعها إلى فمه يقبلها ، ويعيد تقبيلها ، فمانعته ، ولم تكف عن النظر إليه . ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة ، وهى تتمتم هامسة : « دع يدى ودعنى . . » .

ويقول العقاد «لو جاءت هذه الزيارة فى بداية علاقته بسارة لما كان بعيدًا أن تقضى على تلك العلاقة ، وأن تصبح سارة عنده اسمًا مغمورًا فى عامة النساء» .

فلسفته فى الحب

أحب العقاد – كما قلنا – مرتين ، صدم فى الأولى ففارقها كارهًا لخداعها وخيانتها . . وفارقته الثانية ، لأنانيتها وكرامتها ، عاتبة غير منصفة لأنه لم يختلس منها شيئا هو من حقها عليه . ومع ذلك فقد كان يمدح الحب ويقدسه ، ويقول عنه فيما يقول فى أحد فصول هذا الكتاب :

– ما الحب ؟ . . ما الحب إلا أنه بدل من الخلود ، فما أغلاه من بدل .

وكان يعرِّف الحب بأنه اندفاع روح إلى روح ، واندفاع جسد إلى جسد . . وخلاصة فلسفته فيه أنه قضاء وقدر ، فهو يرى أننا لا نحب حين نختار ، ولا نختار حين نحب ، وأننا مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت . . لأن الحياة وفقد الحياة هى أطوار العمر التى تملك الإنسان ، ولا يملكها الإنسان . .

كيف تنبأ بالموت؟!

أما الموت فقد كان « العقاد » يكرهه ولا يخشاه . ولم يكن يطمع أن تدوم حياته إلى سن المائة . فقد توفيت والدته فى سن الثمانين ووالده دون هذا السن ، وقد تنبأ بالموت فى حديث بينى وبينه فقال : « إن الابن يأخذ متوسط عمرى أبيه وأمه . وقد تنتهى حياتى قبل الثمانين » !

ثم ابتسم وقال :

« إذا فاجأنى الموت فى وقت من الأوقات ، فإننى أصافحه ولا أخافه ، بقدر ما أخاف المرض ، فالمرض ألم مذلّ لا يحتمل ، لكن الموت ينهى كل شىء ! . .

نعم ؛ إن الخوف من الموت غريزة حية لا عيب فيها ، وإنما العيب أن يتـ
هذا الخوف علينا ، ولا نتغلب عليه كلما وجب أن نغلبه فى موقف الصراع
الغريزة والضمير ، فإن الخضوع له فى هذه الحالة ضعف ، والضعف شـ
الموت » ثم تمثل بأبيات شعر يقول فيها :

سَتَغْرُبُ شَمْسُ هذا العُمرِ يومًا ويغمض ناظرى ليل الحماء
فَهلْ يَسْرِى إلى قَبْرِى خَيَالٌ من الدُّنيا بأَبْنَاء الأَنَاء
خَلَعْتُ اسْمِى عَلَى الدُّنْيا ورَسْمِى فَمَا أَبْكى رَحِيلى أَو مُقَام

* * *

ولما قلت له يومًا :

إن بناء جسمك وما أراه من قوة صحتك ومثابرتك على العمل فى الشيخوخ
يبشر بأنك ستصل إلى سن المائة وتزيد ، فماذا يكون شعورك وقتئذ ، ومـ
الكتاب الذى تؤلفه ؟

فأجاب :

« إننى لا أتمنى أن أصل إلى سن المائة كما يتمناه غيرى ، وإنما أتمنى
تنتهى حياتى عندما تنتهى قدرتى على الكتابة والقراءة ، ولو كان ذلك غدًا » .

« أما شعورى لو بلغت « المائة » إذا كنت بصحة جيدة ، فهو نفس شعو
الآن . ولكن إذا ضعفت صحتى واضمحلت قوتى ، فإذا شعورى يومئذ سيـ
كشعور كل إنسان بالضعف والتعب ، وهو شعور مؤلم غير مريح . .

وإذا توافرت لى الصحة ولم تضمحل القوة ، وبلغت سن المائة ، فإنى أؤ
كتابًا أسميه : « تجارب مائة عام » أو « قرن يتكلم » . . وأعهد بنشره إليك » .

* * *

وقد كان من أمانيه الكبرى أن يختم حياته بتأليف كتاب عن «الإمام الغزا
وفلسفته» وعنده مكتبة خاصة عنه بالعربية والإنجليزية . وكان يقرأ له وعنه
الثلاثين سنة الأخيرة قراءة دقيقة ليضع هذا الكتاب ، فقد كان يعده أول فيلسو
ومفكر إسلامى . ويرى أنه قدوة للفلاسفة ، ومثال من التفكير الرفيع ، تتعلم منه
الفلسفة لا تتم بغير قسط من التصوف ، لأن التصوف قدرة على انتزاع النفس
المألوف . وهذه قدرة لا يستغنى عنها الفيلسوف المفكر ، ولا الفيلسوف الحكيم . .

طاهر الطناحى

أنـــا ...

الكاتب الأمريكى «وندل هولمز» يقول : «إن الإنسان - كل إنسان بلا استثناء - إنما هو ثلاثة أشخاص فى صورة واحدة .

الإنسان كما خلقه الله .. الإنسان كما يراه الناس .. والإنسان كما يرى هو نفسه ..

فمَن من هؤلاء الأشخاص الثلاثة هو المقصود بعباس العقاد ؟ ..

ومن قال إننى أعرف هؤلاء الأشخاص الثلاثة معرفة تحقيق أو معرفة تقريب؟ ..

من قال إننى أعرف عباس العقاد كما خلقه الله ؟

ومن قال إننى أعرف عباس العقاد كما يراه الناس؟

ومن قال إننى أعرف عباس العقاد كما أراه ، وأنا لا أراه على حال واحدة كل يوم؟

هذه هى الصعوبة الأولى ، ولا أتحدث عن غيرها من الصعوبات .

ولكنى أضربها مثلاً واحداً من أمثلة كثيرة . ثم أختصر الطريق وأنتقل إلى الموضوع من قريب .

إننى لن أتحدث بطبيعة الحال عن « عباس العقاد » كما خلقه الله .

فاللّه جل جلاله هو الأولى بأن يسأل عن ذلك ..

ولن أتحدث بطبيعة الحال عن « عباس العقاد » كما يراه الناس فالناس هم المسئولون عن ذلك .

ولكن سأتحدث عن عباس العقاد كما أراه .

وعباس العقاد كما أراه - بالاختصار - هو شىء آخر مختلف كل الاختلاف عن الشخص الذى يراه الكثيرون من الأصدقاء أو من الأعداء .. هو شخص استغربه كل الاستغراب حين أسمعهم يصفونه أو يتحدثون عنه ، حتى ليخطر لى فى أكثر الأحيان أنهم يتحدثون عن إنسان لم أعرفه قط ولم ألتق به مرة فى مكان .

فأضحك بينى وبين نفسى وأقول : ويل التاريخ من المؤرخين ...

أقول ، وويل التاريخ من المؤرخين لأن الناس لا يعرفون من يعيش بينهم فى قيد الحياة ومن يسمعهم ويسمعونه ويكتب لهم ويقرأونه ، فكيف يعرفون من تقدم به الزمن ألف سنة ، ولم ينظر إليهم قط ولم ينظروا إليه ؟ . .

فعباس العقاد هو فى رأى بعض الناس مع اختلاف التعبير وحسن النية ، هو رجل مفرط الكبرياء . . ورجل مفرط القسوة والجفاء . .

ورجل يعيش بين الكتب ، ولا يباشر الحياة كما يباشرها سائر الناس .

ورجل يملكه سلطان المنطق والتفكير ولا سلطان للقلب ولا للعاطفة عليه .

ورجل يصبح ويمسى فى الجد الصارم لا تفترّ شفتاه بضحكة واحدة إلا بعد استغفار واغتصاب .

هذا هو عباس العقاد فى رأى بعض الناس .

وأقسم بكل ما يقسم به الرجل الشريف أن عباس العقاد هذا رجل لا أعرفه ، ولا رأيته ، ولا عشت معه لحظة واحدة ، ولا التقيت به فى طريق . . ونقيض ذلك هو الأقرب إلى الصواب .

نقيض ذلك هو رجل مفرط فى التواضع ورجل مفرط فى الرحمة واللين ورجل لا يعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة ؛ رجل لا يفلت لحظة واحدة فى ليله ونهاره من سلطان القلب والعاطفة ورجل وسع شدقاه من الضحك ما يملأ مسرحًا من مسارح الفكاهة فى روايات شارلى شابلن جميعا . .

هذا الرجل هو نقيض ذاك . .

ولا أقول إن هذا الرجل هو عباس العقاد بالضبط والتحقيق ، ولكنى أريد أن أقول إنهم لو وصفوه بهذه الصفة ، لكانوا أقرب جدا إلى الصواب ، ولأمكننى أن أعرفه من وصفه إذا التقيت به هنا أو هناك ، خلافًا لذلك الرجل المجهول الذى لا أعرفه بحال !

مكان التواضع واللين

إننى لا أزعم أننى مفرط فى التواضع .

ولكننى أعلم علم اليقين أننى لم أعامل إنسانًا قط معاملة صغير أو حقير ، إلا أن يكون ذلك جزاء له على سوء أدب .

وأعلم علم اليقين أننى أمقت الغطرسة على خلق الله ، ولهذا أحارب كل دكتاتور بما أستطيع ولو لم تكن بينى وبينه صلة مكان أو زمان كما حاربت هتلر ونابليون وآخرين .

وأنا لا أزعم أننى مفرط فى الرقة واللين .

ولكننى أعلم علم اليقين أننى أجازف بحياتى ، ولا أصبر على منظر مؤلم أو على شكاية ضعيف .

فعندما كنت فى سجن مصر رجوت الطبيب أن يختار لى وقتًا للرياضة غير الوقت الذى تنصب فيه آلة الجلد لعقوبة المسجونين .

فدهش الطبيبُ ، ظن أنه يسمع نادرة من نوادر الأعاجيب . .

وقال لى فى صراحة : ما كنت أتخيل أن أسمع مثل هذه الطلب من العقاد «الجبار» .

وأصبت فى السجن بنزلة حنجرية حادة حرمتنى النوم وسلبتنى الراحة ، ولم تزل هذه النزلة الحنجرية عندى مقدمة لأخطر الأمراض كما حدث قبل نيف وعشرين سنة ونجوت منها يومئذ بمعجزة من معجزات العلاج والعناية وتبديل الهواء ، ومن أجل هذه النزلة الحنجرية ألبس فى الشتاء تلك الكوفية التى علقتها الصحف الفكاهية فى رقبتى لا تحل عنها فى صيف أو شتاء ، ولا فى صبح أو مساء ، حتى أوشكت أن تكون من علامات تحقيق الشخصية قبل الملامح والأعضاء .

وكانت زنزانة السجن التى اعتقلت بها على مقربة من أحواض الماء شديدة الرطوبة والبرودة ، يحيط بها الأسفلت من أسفلها إلى أعلاها ، ولا تدخلها الشمس إلا بإشارة من بعيد .

فعرض المحامون أمرى على المحكمة وحولته المحكمة إلى النيابة ، ودرسته النيابة مع وزارة الداخلية ومصلحة السجون ، وتقرر بعد البحث الطويل نقلى إلى المستشفى وإقامتى هناك فى غرفة عالية تشرف على ميدان واسع وحديقة فسيحة ، وتتصل بالداخلين والخارجين أثناء النهار ، ويتردد عليها الأطباء والموكلون بالخدمة الطبية من الصباح إلى الصباح .

فرج من اللّه ، وأمنية عسيرة التحقيق تمهدت بعد جهد جهيد !

فصعدت إلى المستشفى وأنا أعتقد أن الخطر الأكبر قد زال أو هان ، ولكنى لم ألبث هناك ساعة حتى شعرت أن الزنزانة المغلقة أهون ألف مرة من هذا المكان الذى

أصغى فيه إلى أنين المرضى وشكاية المصابين والموجعين ، ثم غالبت نفسى ساعة فساعة ، حتى بلغت الطاقة مداها ولما يطلع الفجر من الليلة الأولى ، وإذا بى أنهض من سريرى وأنادى حارس الليل ليوقظ ضابط السجن ويعود بى إلى الزنزانة من حيث أتيت ، ولتفعل النزلة الحنجرية وعواقبها الوخيمة ما بدا لها أن تفعل .

أنا أعلم من نفسى هذا ، وأعلم أن الرحمة المفرطة باب من أبواب العذاب فى حياتى منذ النشأة الأولى ، وأعلم ما أعلم عن تلك العواطف التى يتحدث بها بعض الفضوليين ولا يعرفون منها غير التصنع والتمثيل وتدميعا لعيون وتبليل المناديل ، ثم أسمع جبلا من هذه الجبال البشرية يذكر الرحمة وما إليها ، كأنها حيلة لا يزين اللّه بها إلا أمثاله ، ولا يعطل اللّه منها إلا أمثال عباس العقاد . . .

فماذا يكون حكمى بعد هذا على آراء الناس فى الناس ؟ . .

لن يكون إلا قلة اعتداد برأى من الآراء يحسبونها الكبرياء وليست هى الكبرياء ، ولكنها موقف من لا يبالى أن يعتقد من يشاء ما يشاء .

كرامة الأدب والأدباء

إلا أن الناس معذورون بعض العذر فى شبهة الكبرياء هذه ، وإن كانوا لا يطالبون أنفسهم بأقل مجهود فى تصحيح هذه الشبهات .

فقد أراد اللّه – وله الحمد – أن يخلقنى على الرغم منى متحديًا « تحديًا خصوصيا » لكل تقليد من التقاليد السخيفة التى كانت ولا تزال شائعة فى البلاد المصرية والبلاد الشرقية على العموم .

أنا أطلب الكرامة من طريق الأدب والثقافة ، وأعتبر الأدب والثقافة رسالة مقدسة يحق لصاحبها أن يصان شرفه بين أعلى الطبقات الاجتماعية ، بل بين أرفع المقامات الإنسانية بغير استثناء .

أفى ذلك عار ؟ أفى ذلك موجب للحقد والضغينة ؟ . .

كلا ! . . بل فيه مأثرة وفيه فضل جديد على عالم الأدب فى الشرق المسكين الذى كان أدباؤه لا يرتفعون عن منزلة المضحكين والندماء المهرجين على موائد الأغنياء والرؤساء ، فإذا ارتفعوا عن هذه المنزلة قليلا أو كثيرًا ، فهم لا يرتفعون بفضل الأدب والفن ، بل بفضل وظيفة يعتصمون بها أو شهادة علمية ينتحلون

سمعتها ، أو ثروة يحسبون من أهلها ، ثم يحترمون لأجلها على الرغم من كونهم كتابًا وشعراء !

وها هو ذا إنسان يعرف حقه فى الكرامة ولا يعرف حقًا لتلك الأصنام الاجتماعية تفرضه عليه .

صنم المال ، وصنم العناوين العلمية والشارات الرسمية ، وصنم المناصب وصنم الألقاب ، كيف تتجاهلها يا هذا وكيف تطلب الكرامة لنفسك من غير طريقها ؟

إن الأصنام لا تقنع بما دون العبادة ، فكيف بالإعراض وقلة المبالاة ؟ وكيف بالتحطيم والكفران ؟

جهنم الأرباب جميعًا قليلة قليلة - جدا - فى جانب هذا الذنب العظيم . .

وإذا بهذه الأصنام جميعا تدعونى إلى دفع الجزية المفروضة عن يد ونحن صاغرون ، وإذا بها جميعًا تعود خالية الوفاض غير محفول بما تعمل وما تقول .

قالت : أتريد لك حقًا وكرامة ؟

قلت : نعم . . .

قلت : كلا . . سأكون غنيا عن الغنى ، ولى الكرامة التى أريدها . .

قالت : إذن كن صاحب لقب وعنوان . . . .

قلت : كلا . . سيعرفنى العالم والأديب ، وسأصعد فى هذه السماء صعودًا حيث تزحف الألقاب والعناوين .

قالت : إذن كن صاحب منصب ، كن صاحب أحساب وأنساب ، كن شيئًا فى طريقى ولك المسعدة منى بعد ذلك فى كل طريق .

قلت : سأمضى فى كل طريق أريد المضى فيه ، ولا حاجة بى إليك .

ثم دارت الأيام ، والتقيت بالأصنام .

قالت فى شماتة وهى تتساءل : كيف الحال ؟ . .

قلت : عال . . أنت تعلمين على الأقل أننى لم أدفع الجزية المفروضة ، وأنت تعلمين على الأقل أننى لم أخسر شيئًا يعنينى .

قالت : نعم . . ولكنك تعبت كثيرًا وخرجت آخر المطاف بسمعة الكبرياء والجفاء ! . .

قلت : يغفر الله لك أيتها الأصنام ! .. أتعنين السمعة على الألسنة والإشاعة في المجالس وسوء القالة بين الفارغين ؟ .. هذه أيضًا صنم من الأصنام التي لا أعرف لها جزية تؤدى ، فاكتبي جزيتها وجزيتك في حساب واحد ، وانتظري بالأجل إلى يوم الدين !

ولا عجب أن تغضب الأصنام غضبتها التي تضيق بها اللحوم والدماء ، ولكن العجب أن يغضب عبادها المساكين الذين لا يظفرون منها بطائل ، وأعجب منه أن يغضب عبادها الحانقون عليها المتلهفون على الخلاص منها ، لأنهم نسوا هذا وأصبحوا يذكرون أن واحدًا أفلح حيث يفشلون ، فلماذا تمرد فاستطاع ، وهم يتمردون فلا يستطيعون ؟

ذلك هو الثأر الذى لا يغفر !

وذلك وأمثاله هو الأصل الأصيل في شبهة الكبرياء ، أسوقه على هذا النحو الذى لا يشبه الاعتذار ، وأفسره بهذا التفسير الذى لا يتضمنه طلب البراءة .. لأنني أكره الاعتذار عن الحسنات حينما يتفاخر الناس بالسيئات والوصمات ، وبحسبي أنني نازل عن حقى في الثناء ، لما صنعت من جميل لكرامة الأدب والأدباء .

العزلة والانطواء

وعذر آخر للناس – وإن كان لا ذنب لى فيه – أن يذهب بعضهم من النقيض إلى النقيض في فهم رجل يعيش بينهم على قيد الحياة .

عذر هؤلاء أننى مطبوع على العزلة والانطواء على النفس في أحسن الأحوال وأسوئها على السواء .

ولا حيلة لى في ذلك لأن أسبابه عميقة يرجع بعضها إلى الوراثة وبعضها إلى الطفولة الباكرة ، وبعضها إلى تجارب الدنيا التى لا تنسى .

ورثت حب العزلة من كلا الأبوين .

وعرض لى حادث دون السابعة من عمرى أتمثله الآن كأنى حضرته منذ يومين وهو حادث الوباء الذى كان معروفًا باسم الهيضة أو الهواء الأصفر في أسوان .

أقفرت المدينة شيئًا فشيئًا من سكانها .

مات كثيرون منهم ورحل آخرون ، وخلا الشارع الذى أقيم فيه فأغلقت الحكومة أبوابه ولطختها بالعلامة الحمراء التى معناها أن هذا البيت قد زاره الوباء .

ومن لحظة إلى لحظة يتراءى فى الشارع نعش عار يمشى من ورائه رجلان أو ثلاثة ، وقد يكون بينهم وبين حمل هذا النعش مسافة الطريق ، وتوصيلة أخرى من توصيلاته التى لا تنقطع طول النهار .

وبيتنا وحده فيه إصابتان . .

وليس فى الشارع ، إذا خرجت إليه ، طفل واحد يحوم بين تلك البيوت المغلقة بالعلامة الحمراء .

وإذا نزلت إلى شارع النيل حيث كان يطيب لى التجوال على غير هدى ، وجدته مقفرًا من الناس ، ومن حين إلى حين تعبر فى النيل سفينة شاردة لا تجترئ على ملامسة الشاطئ خوفا من العدوى . ويصيح منها صائح كلما لمح على المورد زميلاً يسأله عن الخبر :

– كم المحصول اليوم ؟

فيجيبه : مصرى كامل . . أو مجيرى . . أو بنتو . . أو نصف جنيه فقط فى أسلم الأيام .

ما هذا المحصول ؟ . . وما هذه العملة التى يحسبونه بها ؟ . .

إنها تهكم المصائب الوجيع !

إنه عدد الموتى فى ذلك اليوم : جنيه مصرى كامل أى مائة ميت ، ونصف جنيه أى خمسون ، ولم أسمع قط ذكر الريال إلا فى ختام الموسم الشنيع : موسم الحصاد !

صورة لا أنساها ، ولا ألتفت إليها إلا تمثلت وحشتها وبلواها ، وإليها ولا شك يرجع شيء من هذه الوحشة التى تحبب إلى الخلوة والانفراد . .

وتزيد عليها تجارب الدنيا التى لا تنسى وخلاصتها أن العواطف المزيفة أروج فى هذه الدنيا من العواطف الصحيحة . فلا أسف إذن على رأى الناس فى الناس ، ولا اعتداد إذن بما يقال ومن يقول . . .

ما أسلفته لا أذكره على أنه فضائل محمودة ، ولا على أنه رذائل مذمومة . . ولكنه صفات حقيقية وكفى .

ومن هذه الصفات الحقيقية التى أعهدها فى نفسى أننى لا أميل إلى التوسط فى الصداقة ولا فى العداوة . فلا أعرف إنسانًا نصفه صديق ونصفه عدو ، وإنما أعرفه صديقًا مائة فى المائة أو عدوا مائة فى المائة ، ولا تهمنى مع ذلك عداوته إذا حفظها لنفسه . . ولكنه إذا تعقبنى بها وأبى إلا أن يكشف عنها فهى الحرب التى لا توسط فيها كذلك : إما كاسر وإما مكسور إلا أن يريحنى احتقاره من عناء هذا وذاك . .

ومن هذه الصفات ، إننى أمام الألفة أو العادة ضعيف لا أقدم على التبديل إلا بعد عناء طويل .

ومثل من أمثلة ذلك أن البيت الذى أسكنه قد تغير له أربعة من الملاك ، وأنا الساكن فيه لا أتغير .

وإننى فى مصر الجديدة ، ودكان حلاقى فى شارع محمد على إلى الآن ، لأننى منذ عشرين سنة كنت أسكن هناك .

وإننى كنت أشكو مرض الكلى قبل نيف وعشرين سنة ، فأشار علىَّ الطبيب باتباع نظام مخصوص فى الطعام يناسب الحالة التى أشكوها ، وقد زالت تلك الحالة بعد سنة واحدة ، ولكني لا أزال إلى الساعة أجرى على النظام الذى ألفته من جرائها ، ولا أستطيب أن أعود إلى كل طعام !

ومن هذه الصفات أن الظنون عندى قوية السلطان ، وعلة ذلك عندى معالجة التفكير المنطقى فى كل شيء ، فليس أسهل فى المنطق من فتح أبواب الاحتمالات . أما إغلاقها - أو الجزم بنفيها - فلا يكون إلا ببرهان قاطع ، والبراهين القاطعة قليل .

ومن هذه الصفات أن التجديد والمحافظة عندى يلتقيان فى معظم الأمور ، وعلة ذلك على ما أعتقد أننى نشأت بأسوان ، وهى أعرق مدينة بين مدن مصر القديمة بموروثاتها التى لا تبلى ، وهى فى الوقت نفسه مدينة أوروبية فى الشتاء ، أو كانت كذلك يوم نشأت بها نشأتى الأولى فأوروبا كلها كانت تتراءى هناك كل شتاء بملاهيها وأزيائها وعاداتها ومؤلفاتها وفنونها واختلاف أقوامها .

وأنا أحب الأطفال جدا ، وكان فى منزلنا جماعة من الأطفال أكبرهم فى السادسة من عمره ، وهم جميعًا أصدقائى ، وكثيرًا ما يصعدون إلى مسكنى يسألوننى ويتحدثون معى ما شاء لهم الحديث .

أنا يأسرنى الفن الجميل ، حتى أننى أبكى فى مشهد عاطفى أو درامى متقن الأداء ، وأذكر أننى بكيت فى أول فيلم أجنبى ناطق ، وكان يمثله الممثل القديم « آل جولسون » وكان مع « آل جولسون » طفل صغير يمثل دور الطفل الذى حرم من أمه وظل هدفًا للإهمال حتى مات . . وتأثرت من الفيلم وبكيت ، ولم أستطع النوم فى تلك الليلة ، إلا بعد أن غسلت رأسى بالماء الساخن ثلاث مرات متتالية . . وأنا أستعين بغسيل الرأس بالماء الساخن على إبعاد الأفكار السوداء عنى عندما تتملكنى .

ومن صفاتى التى لا يعرفها الناس ، أننى إذا عوملت بالتسامح لا أبدأ بالعدوان أبدًا ، وإذا هاجمنى أحد فلا أرحمه ، وقد قالت سارة عنى ذات مرة « إن من يظهر طرف السلاح للعقاد يا قاتل يا مقتول ! » .

ولدىّ صفة عجيبة أعتز بها أيما اعتزاز ، وهى أن لدىّ حاسة سادسة لا تخطئ ، ففى أحد الأيام – كنت بأسوان – سألت أخى فجأة عن صديق لى لم أكن قد رأيته منذ مدة ، وفى المساء جاءتنى برقية تنعى ذلك الصديق ، وقد تبينت بعد ذلك أنه توفى فى اللحظة نفسها التى تذكرته فيها ، وقد تكررت مثل تلك الحوادث كثيرًا حتى عرف عنى أصدقائى هذه الصفة . .

وأنا وفىّ جدا لأصدقائى من الأحياء والأموات ، كما أننى وفى لذكرياتى ، وأعتز بها كل الاعتزاز ، وقد كنت شديد التعلق بوالدتى ، وعندما كنت أزور أسوان كان أول ما أفعله هو أن أنزل من القطار وأهرع إلى غرفة والدتى ، وألتصق بها . . فلما توفيت إلى رحمة اللّه لم أدخل غرفتها حتى الآن ، كيلا أراها فارغة منها ، حتى الشوارع التى كنت أغشاها مع صديقى المازنى – رحمه اللّه – لم أستطع أن أغشاها بعد مماته ، وصرت أتجنب ما يذكرنى بفجيعتى فيهما حتى لا أحزن من جديد .

ولدت فى أسوان

ولدت فى أسوان يوم ٢٨ يونيو سنة ١٨٨٩ ، ولى إخوة أشقاء وغير أشقاء فقد كان والدى متزوجًا قبل والدتى ، ثم ماتت زوجته وبعدها تزوج أمى . . . وكبير أشقائى أحمد ، وكان يعمل سكرتيرًا لمحكمة أسوان ، وهو الآن على المعاش ، وعبد اللطيف وهو تاجر ، ولى شقيقة واحدة نحبها جميعًا وهى متزوجة تعيش فى القاهرة إلى جوارى ، أما إخوتى غير الأشقاء ، فهم جميعًا أكبر منى سنا ، وبعضهم يعيش فى القاهرة ، والبعض الآخر بأسوان .

بدأت حياتى الأدبية وأنا فى التاسعة من عمرى ، وكانت أول قصيدة نظمتها فى حياتى هى قصيدة مدح العلوم وتلك فيها .

عِلْمُ الحِسَابِ له مزايا جَمَّةٌ ... وبه يزيدُ المرءُ فى العِرْفانِ

والنحوُ قنطرةُ العُلومِ جَميعها ... ومُبينُ غَامضها وخَيرُ لِسَانِ

وكذلك الجُغرافْيا هَاديةُ الفَتَى ... لمسالك البلدان والوديانِ

وإذا عَرَفْتَ لسانَ قومٍ يا فتى ... نِلْتَ الأمَانَ به وأىَّ بَيانِ

وتدرجت فى المدارس ، ثمَّ جئت إلى القاهرة للكشف الطبى عندما التحقت بإحدى وظائف الحكومة عام ١٩٠٤ ، وكان عمرى إذ ذاك ١٥ سنة ، وكانت وظيفتى فى مديرية قنا ، ولم تكن اللوائح تسمح بتثبيتى ، لأننى لم أكن قد بلغت بعد سن الرشد ثم نقلت إلى الزقازيق ، ثم كنت أول من كتب فى الصحف يشكو الظلم الواقع على الموظفين ، ثم سئمت وظائف الحكومة ، وجئت إلى القاهرة ، وعملت بالصحافة ، وأخيرًا عينت عضوًا بمجلس الفنون والآداب . . كما عينت بالمجمع اللغوى .

أبـــى

هل يعرف أحد من أين لى باسم « العقاد » ؟

لا أحد طبعًا .. وهناك غير هذا أشياء كثيرة لا يعرفها الناس عنى ، أشياء قد تبدو غريبة ، لكننى أقولها فى هذا المقام .

أما اسم « العقاد » فأذكر أن جدى لأبى كان من أبناء دمياط ، وكان يشتغل بصناعة الحرير ، ثم اقتضت مطالب العمل أن ينتقل إلى المحلة الكبرى حتى يتخذها مركزًا لنشاطه ، ومن هنا أطلق عليه الناس اسم « العقاد » أى الذى «يعقد» الحرير .. والتصقت بنا ، وأصبحت علمًا علينا ..

* * *

قد تعجب إذ تعلم أن جدّنا الأكبر من دمياط ، مع أن الجميع يعرفون أننى من أسوان ، وأن عددًا من أبناء أسرتنا لا يزال يعيش فى أسوان حتى اليوم .

وإنى أتمثل « أبى » الآن فى الصورة التى رأيتها ألفى مرة بل أكثر من ألفى مرة ، لأننى كنت أراها كل يوم منذ فتحت عينى على الدنيا ، إلى أن فارقت بلدتى بعد اشتغالى بالوظائف الحكومية ..

وتلك هى صورته على مصلاه ، يؤدى صلاة الصبح ويجلس على سجادة الصلاة ، من مطلع الفجر إلى ما قبل الإفطار ، ليتلو سورًا خاصة من القرآن الكريم ويعقبها بتلاوة الدعوات .

وكان يؤدى الصلوات الخمس فى أوقاتها ، ولكن جلسته فى الصباح الباكر هى التى انطبعت فى ذاكرتى إلى هذه الساعة ، لأنها كانت أول ما أستقبله من الدنيا كل صباح .

ومن أجل الصلاة حدث بينى وبينه خلاف يوصف بالعصيان .. فإنه - رحمه اللّه - كان يدين بالجد فى الواجب ، أو الشدة فى الجد ، وكان يرى للطفل ما يراه للشيخ ، إذا كان الأمر أمر فريضة أو عمل محمود أو عرف مأثور ..

من ذلك أنه كان يرانى فيما دون الثامنة من عمرى أجلس فى المنزل بين قريباتى وخالاتى وجارات المنزل ، فيصيح بى مستغضبًا :

– عباس .. ماذا تصنع هنا بين النساء ؟ .. تعال معى فاجلس بين أمثالك ..
ومن هم أمثالى ؟ .. شيوخ فيما بين الأربعين والسبعين ، كانوا يسمرون معه فى « المندرة » ويقضون الوقت فى أحاديث الشيوخ عن السياسة تارة وعن قضايا الأسر الكبيرة تارة أخرى ، وقلما يمزحون أو يتفكهون إلا ثابوا إلى وقارهم كالمعتذرين .. وكانت السهرة تنقضى على أحسن حال إذا حضرها شيخ متحذلق معلوم فيه بعض الغفلة .. فينا وشونه بالأسئلة المحرجة والدعابات المتناقضة .. ثم يعودون إلى ما كانوا فيه .

* * *

وقد أفادتنى هذه الجلسات كل فائدة تأتى من التوقر قبل سن الوقار ، وقلما يخلو من بعض الأضرار .

ولكن فائدتها الكبرى كانت ولا ريب معرفتى بالقاضى أحمد الجداوى رحمه الله . فإنه كان من أدباء الفقهاء الذين عاصروا السيد جمال الدين ، وأخذوا عنه دروس الحكمة والغيرة القومية ، وكان قوى الذاكرة واسع المحفوظ من المنظور والمنثور ، يستظهر مقامات الحريرى وبديع الزمان ودواوين الشعراء الفحول ، ويطارح خمسة أو ستة من الأدباء فى وقت واحد فيسكتهم دائمًا ولا يسكتونه مرة واحدة . فكانت معرفتى به إحدى الدواعى التى حفزتنى للمطالعة والإقبال على الكتب والدواوين .

ومن أمثلة الجد الشديد فى السيد الوالد – رحمه الله – أنه كان ينظر إلى «الصور» كأنها الأعيب فارغة لا تليق بالعقلاء . فلم يتخذ له صورة قط ، ولم يوافقنى على شراء صورة من صور الفصول الدراسية التى كانت ترسم للمدرسة كل عام .

على هذه السُّنة من الجد الشديد أراد – رحمه اللّه – أن أواظب على الصلاة فى أوقاتها قبل العاشرة من عمرى . فكان أثقل ما أعانيه فى ذلك يقظة الفجر فى الشتاء ، وهو الوقت الذى يزين فيه النوم على الأطفال ، فلا يستيقظون إلا بعد جهد عنيف .

وصبرت على هذا الجهد العنيف مرتين أو ثلاث مرات أو أربع مرات ، ثم تمردت دفعة واحدة ، وقلت لمن جاء يوقظنى : « اذهب عنى . فلست بالمستيقظ .. ولست بالمصلى اليوم ! » .

وسمع أبى ما قلت فصاح بى : « ماذا تقول ؟ . . أتقول أنك لا تصلى ؟ » ووثب إلى عصاه ! . .

فذهب بى الإصرار مذهبه وقلت : « نعم ! » .

فصمت ولم يزد ، وأعرض عنى أيامًا لا يكلمنى حتى تناسينا هذا الخلاف ، وكنا مع ذلك نجلس إليه جميعًا على الطعام فى الصباح والمساء وأحيانًا فى طعام الغداء .

* * *

وموضع الشدة فى هذه المسألة أننى لم أكن أنفر من الصلاة ولا من الفرائض الدينية ، بل كنت أخف إلى المسجد بعض الأوقات ، وأنشد على المئذنة أناشيد الجمعة الأولى ، وظللت أنشدها بعد ذلك وأنظمها ، ولا أذكر للمؤذن أننى نظمتها لئلا يستصغرها ويرفض إنشادها ، ولكن الشدة صدمتنى لأنها كلفتنى ما لا أطيق قبل الأوان ، وجاءتنى فى معرض الإكراه والإلزام ، وهى عبرة تساق للاستفادة منها فى هذا المقام .

ولاأزال أذكر ملامح السرور التى رأيتها على وجه أبى حين أنشدته قصيدة من تلك القصائد التى كنت أنظمها فى مدح النبى عليه السلام . فإنه تهلل واستبشر ، ولعله تهلل واستبشر لنزعتى الدينية قبل براعتى فى نظم الشعر أو تجويد الكتابة ، ولم يلاحظ علىّ أننى ختمت القصيدة بشطر أقول فيه على ما أذكر مشيرًا إلى نفسى « عباس من هو فى الأشعار مدرارًا » . .

فقال : « إن الأباصيرى أكبر مادحى النبى قد ختم مدائحه معتذرًا عن التقصير . فافعل كما فعل ، أو فاسكت عن الاعتذار وعن الإطراء » .

* * *

وكان - رحمه اللّٰه - يحتقر المال أن يطلبه بما يسوء فى الضمير ، أو يسئ إلى إنسان .

وقد كان فى وسعه أن يجمع الثروة العريضة من وظيفته ، فلم يكسب منها غير مرتبه ، وما هو بالكثير .

* * *

كان أمينًا « للمحفوظات » بإقليم أسوان ، وكانت أسوان خارجة من القلاقل الجسام التى حاقت بها فى حرب الدراويش . فمعظم أبنائها الأغنياء كانوا يتّجرون

فى السودان فانقطعوا هناك بعد انقطاع المواصلات ، وذهبت الوثائق فلم يدر أحد ما ذهب منها وما بقى بدار المحفوظات ، وتداولت هذه المحفوظات أيد كثيرة على غير انتظام فى التسليم والاستلام . . وكثر المدَّعون للأرض والعقار ، اعتمادًا على ضياع الوثائق ، وغياب المالكين ، وموت بعض الوارثين ، فلو شاء أبى فى هذه الفترة أن يخفى ويظهر ، وأن يقبل المساومة والإغراء ، لقاسم الكثيرين فيما يدّعون أو فيما يملكون . ولكنه أوصد هذا الباب فلم يطمع فيه طامع ، وسلّم دار المحفوظات لمن بعده ، وهى مثل فى الدقة والضبط وسهولة المراجعة والإحصاء .

* * *

ومن تقديراته أنه فى احتقار المال الذى يكسب عن طريق الإساءة إلى الناس ، أنه زجر أخى الكبير زجرًا شديدًا ، حين علم أنه ينوى التبليغ عن بعض المتهمين فى قضية جعلت للمبلِّغ فيها مكافأة قدرها خمسون جنيهًا – أو مائة جنيه – لا أذكر الآن على التحقيق .

وجلية القضية أن فتى من الشبان الوارثين بالقاهرة حضر إلى أسوان فى الشتاء ومعه ألف جنيه .

وكانت أسوان مرتاد السائحين والسائحات فى موسم الشتاء ، وفيها من أسباب الإنفاق والمتعة مطمع لأمثال ذلك الوارث ومن يلوذون بالمبذرين والمسرفين .

وسُرق الوارث قبل أن يستنفد من الألف مائة أو مائتين ، وانحصرت الشبهة فى شاب موظف بالمحكمة ، كان يسكن مع أمه وأبيه فى بيت لنا مجاور للبيت الذى نقيم فيه ، فراحت أمه إلى جارة لها تستجهلها وتظن أنها لا تعرف ورق النقد الذى كان فى الواقع غير معروف بين الناس فاستودعتها لفافة من الورق هى جملة المبلغ المسروق . ولكن المرأة أطلعت زوجها على الخبر وهو من كتاب العرائض المدربين . فعرف الورق وعرف سر القضية وأخفى كل ما وصل إليه .

* * *

مثل هذا الخبر لا يخفى بين سكان حىٍّ من أحياء الريف . فعرفنا ما حدث ، وعرفنا أن الوارث سمح بالمكافأة التى ذكرناها لمن يرشد إلى السارقين ، ونظر أخى الكبير إلى القضية نظر الرجل العصرى الذى لا يبالى أن ينتفع بالمال للتبليغ عن مجرمين ، ونظر أبى إليها نظرة الجيل القديم يستعيذ من فضيحة الحرمات

من أجل ما يبذره وارث سفيه .. فدعا بأخى أمامنا جميعًا وأقسم له أغلظ الأيمان لأن أقدم على التبليغ ليبرأن منه مدى الحياة ، ولا يأذن له أن يمشى فى جنازته بعد الممات .

وكان يحاسب نفسه على كل حصة من المال تجتمع فى حوزته وتفرض عليها الزكاة فيوزعها خفية . ويرسلنى بها إلى بيوت الفقراء الذين لا يتعرضون للسؤال ولا يردّ مسكينًا يطلب الطعام من المساكين الذين يترددون على الأبواب .

وكان كثير العطف على ذوى قرباه ، يزورهم فى المواسم والأعياد ، سواء منهم من كبر ومن صغر ، ومن استغنى ومن افتقر ، على ما كان فى انتقاله إليهم من المشقة بعد أن جاوز الخمسين ، وإذا استخلص منهم واحدًا لسداد رأيه وخلوص طويته ، شاوره فى الجليل والدقيق من شئون الأسرة ، واعتمد على مشورته فى كثير من الأحيان .

ولم يكن يغضب لشىء كما كان يغضب لكرامته وسمعة اسمه . ومن ذاك أنه كان له حمار ينتقل عليه من قرية إلى قرية ، حين كان معاونًا للإدارة . فلما استقر فى المدينة باعه لبعض المكارين[1] . وكان الحمار مشهورًا بالسرعة وهدوء الحركة ، فكان المستأجرون يطلبونه يقولون للمكارى : «هات حمار العقاد» ثم اختصروا كعادتهم فأصبحوا يطلبونه فيقولون : «هات العقاد ! هات العقاد» فلما سمع بذلك عاد فاشتراه وقبل المغالاة فى ثمنه على غير حاجة إليه . واستبقاه يعلفه ويتحمل ضجته حتى اشتراه من ينقله إلى قرية بعيدة لا يستخدمه فيها بالكراء!

* * *

ولم يكن مكثرًا من القراءة فى غير الكتب الدينية ، ولكنه كان يحدثنا دائمًا عن تجاربه ومصاعب حياته ، ويألى علينا أن نستمع إلى أقاصيص العجائز وحكايات الأساطير .

على أننى وجدت فى دواليب « المندرة » ، بعد أن بلغت سن القراءة ، أعدادًا كثيرة من مجلة « الأستاذ » لصاحبها عبد اللّه النديم . فاتصلت بالحركة الوطنية قبل أن تنشأ فى القطر صحيفة من صحفها الحديثة .

وجملة ما أذكره لذلك الأب الكريم ، أننى مدين له بالكثير ، وأننى لم أرث منه مالاً يغنينى .. ولكنى استفدت منه ما لا أقدره بمال ..

(١) المكارين جمع مكارى وهو العربجى .

فى سنة ١٩٣٠ ذهبنا إل الصعيد فى رحلة انتخابية ، وكان النقراشى رحمه الله قائد « التجريدة » كما سميناها يومذاك ، لأن النقراشى كان كعادته يسير فى ترتيب أعمالها وتنظيم مواعيدها على خطة عسكرية لا تختل قيد شعرة ، وكان نظامها يستلزم فى بعض الأيام أن نستيقظ قبل الفجر لإدراك موعد القطار ، فكان القائد اليقظ يسبقنا إلى البكور ولا تمضى دقائق معدودات حتى تصبح التجريدة كلها على استعداد .

ونزلنا سوهاج فاسترحنا بمنزل الأستاذ محمد حسن المحامى ، وجاءنى الأستاذ يقول : «هل يتسع الوقت للقاء خالك ؟ فالتفتُّ إلى النقراشى أسأله ، فقال : « نعم .. وزيادة » .

* * *

ثم عاد الأستاذ صاحب الدار يقول « إن الزوارق حاضرة » لأننا كنا ننوى أن نعبر النيل إلى أخميم ونعود منها قبل إطباق الظلام ، فسأله النقراشى : « أوَ لسنا منتظرين حتى يحضر خال العقاد ؟ » .

قال الأستاذ محمد حسن : «ها هو ذا قد حضر ، ولا يزال حاضرًا ، وإن شاء عبر النيل معنا » .

والتفت النقراشى إلى جانبى فرأى شيخًا أبيض الوجه ، أميل إلى الشقرة ، وتوليت التعارف بينهما فحياه النقراشى وهو يقول ضاحكًا : « عجبًا .. لقد كنت أقرأ فى الكشكول والصحف الشتامة عن « بخيتة السودانية » أم عباس العقاد ، وكنت أحسبهم يجدّون فيما يكتبون ، فخطر لى أننى أنتظر رجلا أسود قريبًا من السواد حين جلسنا ننتظر خالك .. أما أن يكون رجلا أشقر له بقايا شعر أصفر ، فهذا ما لم يخطر ببال » .

وسألنى مازحًا : « لماذا لم تكذِّب الخبر » .

قلت : « إننى لم أكذب أخبارًا أكذب من هذه ، فما بالى أكذب نسبتى إلى أم سودانية ؟ ليس فى الأمر ما يوجب البراءة منه والاهتمام بتكذيبه .. فكم أنجبت السودانيات من رجال يفخرون بالأمهات » .

لقد كانت أسرة « أمي » من أبويها جميعًا كردية قريبة عهد بالقدوم من ديار بكر ، وقد رأيت أحدهم لا تميزه من أمم الشمال فى لونه وقامته ، وقد بقى بعضهم إلى أيام طفولتنا نعاكسه حين ندعوه إلى أكلة « ملوحة » أو «ملوخية» ، لأنهم لم يتعودوا أكلها ، فكنت أقرأ الأكذوبة عن « بخيتة السودانية » ، وقد رقى فى نفسى أنها أبعد من أن تصدق ، واقترنت هذه الأكذوبة بأكذوبة أخرى فى ذلك الحين تروى عنى أننى أهمل زوجتى وأتركها تتسكع فى الطرقات ، ولم تكن لى زوجة قط حتى تتسكع فى طريق أو فى بيت .. فلماذا أحفل بما يقال ، وكله من هذا اللغو المحال ؟ ..

ولكن هل كانت حكاية « السودانية » كذبًا محضًا من الألف إلى الياء ؟ ..

كلا .. ويا للعجب ، فإن أجداد أمى جميعًا قد تزوجوا فى السودان ، وكان جدها لأبيها وجدها لأمها فى الفرقة الكردية التى توجهت إلى السودان بعد حادثة إسماعيل بن محمد على الكبير ، وهناك عاش عمر أغا الشريف قبل قدومه إلى أسوان ، وهو جد أمى لأبيها ، وأبوها هو محمد أغا الشريف الذى اختار «أطيان» المعاش فى قرية من قرى الإقليم ..

الذى يتذاكره كبراء النسل الأسوانيون عن عمر أغا الشريف أنه كان رجلا شديد التقوى ، شديد القوة البدنية ، يدرِّب أبناءه على الرياضة العسكرية كأنهم على الدوام فى خدمة الميدان .

ولد له محمد وعثمان ومصطفى وحورية وفاطمة ، وخطبت حورية وفاطمة فأراد أن يحتفل بزواجهما معًا ، ثم علم أن خطيب فاطمة لا يصلى ، فأبطل الخطبة فى اللحظة الأخيرة ، وقال للوسطاء الذين حاولوا أن يصلحوا الأمر : إنى لا أزوج ابنتى لتارك صلاة ولا لمحدث نعمة ، كلاهما يجحد نعمة الله ...

وشاعت حوادث « العبد » قاطع الطريق فى الصحراء وخافه الجند وهابه تجار القوافل ، فقال عمر لأصغر أبنائه مصطفى : أتسمع هذا وتترك ذلك العبد يعيث فى الأرض فسادًا ؟ .. فما انقضى أسبوع حتى عاد مصطفى بالعبد مكتوف اليدين .

وقد مات مصطفى هذا على أثر ضربة من ضرباته أغراه بها فرط قوته ، فإنه تصدى لثور هائج فقمعه وألقاه على الأرض ، فلم تنقض أيام حتى لقى نحبه ، وقيل إنها حسد .. ولعلها كانت مزقة فى داخل الجسم من ذلك الجهد العنيف ..

أما محمد أغا جدى لأمى فقد كانت فيه تقوى أبيه وصلابته وكثير من أنفته واعتزازه بكرامته ، وقد كان يمزج هذه الأنفة بالعمليات ولا يقصرها على القول أو السلوك .

ذهب إلى قرية الإقليم ليختار أطيان المعاش ، فكان كلما سأل عن زراعة أرض فقالوا له إنها عدس أو فول .. قال : لا شأن لى بها ، حسبنا من العدس والفول ما استوفيناه فى السنجق ، أى الفرقة العسكرية ... حتى جاء إلى أرض قيل له أنها تزرع قمحًا أو شعيرًا ،

فقال : هذه أرضى : القمح لمحمد أغا والشعير لحصانه ! .. واختارها مع ما بينها وبين الأطيام الأخرى من فرق فى الثمن يبلغ ثلاثة أضعاف ..!

وورثت أمى تقواها وسلامة بنيتها من أبيها وجدها ، ففتحت عينى أراها وهى تصلى وتؤدى الصلاة فى مواقيتها ، ولم يكن من عادة المرأة أن تصلى فى شبابها ، إنما كانت النساء لا يصلين إلا عند الأربعين ..

ومما ورثته عن أبويها حب الصمت والاعتكاف .. كان الناس يحسبون هذا الصمت والاعتكاف عن كبرياء فى جدى رحمه الله ، وكانوا يقولون إنها «نفخة أتراك» !

بغير تكلف ، ولم أر فى حياتى امرأة أصبر على الصمت والاعتكاف من والدتى فربما مضت ساعة وهى تستمع من جاراتها وصديقاتها وتجيبهن بالتأمين أو بالتعقيب اليسير ، وربما مضت أيام وهى عاكفة على بيتها أو على حجرتها ، ولا تضيق صدرًا بالعزلة وإن طالت ، ولا تنشط لزيارة إلا من باب المجاملة وردّ التحية .

ومن المصادفة اتفاق والدى ووالدتي فى هذه الخصلة ، ولست أنسى فزع أديب زارنى يومًا وعلم أننى لم أبرح الدار منذ أسبوع ، فهاله الأمر كأنه سمع بخارقة من خوارق الطبيعة .. إنها وراثة من أبوين يؤكدها الزمن الذى لا تحمد فيه معاشرة أحد .. إلا من رحم اللّه !

وقوة الإيمان فى والدتى هى التى بنت فيها العزيمة ليلة احتضارى ..!

نعم أيها القارئ الكريم ولا تعجب .. فقد احتضرت قبل نيف وثلاثين سنة ، كما تخيّل عوّادى فى تلك الليلة ، فإذا بالوالدة هى الإنسان الوحيد الذى يتحامل على نفسه إلى جانب سريرى ليقنعنى أننى بخير .. وتنطوى على ذلك ساعات

وهى على عزيمتها ، حتى جاء الطبيب أخيرًا وأنبأهم أنه عارض غير ذى بال ، فإذا بالمحتضر قد نجا ، وإذا بالمؤاسية قد سقطت مغمى عليها .

وكانت الوالدة لا تنكر من شئونى إلا الورق .. نعم .. ما هذا الورق ؟ .. الورق الذى لا ينتهى ! ..

هذا الورق الذى لا ينتهى هو الذى يمرضنى ، وهذا الورق الذى لا ينتهى هو الذى يصرفنى عن الزواج ، وهذا الورق الذى لا ينتهى هو سبب الشهرة ...

ووالدتى أيها القارئ من أعداء الشهرة تتطيّر بها ولا تغتبط بها لحظة إلا تشاءمت لحظات .

هذه الشهرة هى التى «تشيل غارتك » .. أى تجعلهم يتحدثون عنك ، وما تحدث الناس عن أحد وسلم من ألسنة الناس !

وقلت لها ذات يوم : « لو وجدت لى زوجة مثلك تزوجت الساعة .. » ولم أكن مجاملا واللّه ولا مراوغًا . فإننى لا أنسى كمال تدبيرها لبيتها منذ صباها ، وكنا بفضل تدبيرها هذا ننتفع بالجورب حتى بعد أن يرث ويبلى .. فإن يصلح عندئذ كرة محبوكة ! .. ويغنينا عن شراء الكرات التى لا تحتمل أقدامنا مثل احتمالها .

ولقد توفى والدى وهى فى عنفوان شبابها ، وكان لى أخ صغير فتوفرت على تربيته وتركت شاغل غير طفلها هذا وأبنائها الكبار .

ولقد ورثت منها كثيرًا إلا القصد فى النفقة ، وتدبير المال ، وحسبى بحمد الله ما ورثت منها .

* * *

صفاء فى جو المكان قلما تشوبه غاشية ، وامتلاء فى جو الزمان قلما تخلو منه زاوية . . تنتقل فيها من عصر إلى عصر كما تنتقل فيها من حارة إلى حارة ، وترجع فى تاريخ مصر إلى أقصى الماضى فتلقى لها تاريخا مثله !

وهى بلدة خالدة ! بل هى بلدة مخلدة ! لأن معالم الخلود فى الهياكل والتماثيل مستعارة من محاجرها ، فهى كالزمن حين تهب الخالدين مادة الخلود . . تلك هى بلدتى أسوان . ولم تكن قط شيئًا هملا فى عصر من العصور . .

كانت على أيام الفراعنة مفتاح الجنوب ، ومثابة التجارة بين جانبى الوادى القديم . وملتقى القوافل بين جوانب الوادى جميعًا وصحراء المغرب والمشرق من البحر الأحمر إلى بحر الظلمات ، صاحبت الأرباب منذ عرف الناس الأرباب . . فأقيمت فيها الصلوات لإله النيل ، وأقيمت لإزيس وأوزوريس وأقيمت « ليهوا » رب الجنود ، وتلاحقت فيها أديرة الرهبان من أتباع السيد المسيح وصوامع النساك من أتباع محمد عليه السلام . .

وفد إليها « هيرودوت » و «سترابون » من آباء التاريخ ، وكان أبو التاريخ يقول عن كهانها : إنهم كانوا يسخرون به كما يسخر الرجل الكبير فى حديثه إلى الطفل الصغير ! . . وذكرها « حزقيال » فى نبوءات التوراة ، وعرفها الشاعر الأبق دعبل ، كما عرفها الشاعر رهين المحبسين أبو العلاء . .

أَسوان أَنتِ لأَنَ الرَّكْبَ وجهتهم أَسْوانُ أَىَّ عذاب دون عَيْذَاب

وبين أسوان وعيذاب ، كان طريق حجاج المسلمين منذ اضطربت بلاد أبى العلاء بالفتن والثورات ، وتحول قصاد بيت الله إلى هذا الطريق .

وفيها من ذكرى العلم ، كما فيها من ذكرى الحرب والسياسة ، فعُرفت فيها أصدق الأرصاد عن محيط الأرض قبل ميلاد المسيح بأكثر من مائتى سنة . . كما عرفت فيها أصدق الأرصاد عن جرم الشمس بعد المسيح بقرابة ألفى سنة . . ولا تزال فى جزيرتها بئر يدلونك عليها ، ويقولون لك أنها البئر التى نظر فيها «أراتوستين» علامة زمانه فى علوم السماء حين قاس زاوية الأرض من الإسكندرية إلى أسوان . . .

واتصلت فيها أسباب العلم من عهد الفراعنة واليونان إلى عهد الإسلام . . فقال « كمال الدين جعفر بن ثعلب » فى القرن الثامن الهجرى : « قد خرج من أسوان خلائق كثيرة لا يحصون من أهل العلم والرواية والأدب . . قيل إنه حضر مرة قاضى قوص ، فخرج من أسوان أربعمائة راكب بغلة للقائه . . » كناية عن العالم لأن البغلة كانت ركوبة العلماء . .

وكانت إلى ذلك العهد تسمى « الثغر » لأنها تزدحم ازدحام الثغور الحافلة بطلاب العلم وطلاب التجارة وطلاب اللهو والفراغ .. وفيها يقول كمال الدين :

أَسْوان فى الأرض نصْفُ دَائرَة ... الخيرُ فيهَا والشرُّ قَدْ جُمعَا
تصْلحُ للناسِك التَّقى إذاً ... أَقَامَ والفاتِكِ الخَليع مَعَا

وقد تغيرت تواريخ الدول وتعاقبت حكومة بعد حكومة ، ولا تزال أرضها هى أرضها ، وسماؤها هى سماؤها ، ومناظرها هى ما كانت عليه من نمط فريد بين مناظر الطبيعة المصرية ، لا تشاهد فى بلد من بلاد مصر ما تشاهده فيها من جزر وجنادل وتيارات وصخور فى الماء والصحراء ، تجمع من الألوان ما تجمعه المعادن والجواهر ، وتحكى الذهب والفضة والشبه كما تحكى الزمرد والمرجان والياقوت ، وذهب من جنادلها ما ذهب فقال فى مكانها الخزان وتلفتت مصر تترقب من لدنها مطامع الضياء كما كانت من قبل تترقب منابع الماء .

ولدت فيها بمشيئة القدر ، ولو أننى ملكت الأمر لولدت فيها بمشيئتى لأنها الموطن الذى يستفاد منه خير ما آثرته لنفسى من النظر إلى الحياة .. فليس مما أحبه لنفسى أن يحصرنى الحاضر فى نطاقه ولا أن يحوينى الخير الأرضى فى حدوده ..

أدعو إلى الإنسانية فى الأدب ، وأنظر إلى « العالمية » فى المستقبل ، وأحب مصر والشرق ولكننى لا أحب ضيق الأفق فى عصبية وطنية أو شرقية ..

وفى أسوان رأيت التقاء التاريخ الماضى بالحاضر الذى نعيش فيه ، فالمتحف فيها والبيت يتقابلان ، والتاريخ فيها حى يرزق ويتنفس الهواء ، لأنه ماثل شاخص فى الأحياء ، والحياة فيها تتسربل بقداسة التاريخ العريق لأنها صورة منه تتجدد مع الأجيال . وفى أسوان رأيت التقاء المشرق والمغرب ، ودرجت وأنا أشهد الحضارة الأوربية فى كل جنس من أجناسها وكل ناحية من أنحائها .

وفى أسوان من أهل أسوان فضلا عن الغرباء عنها ، عصبة أمم صغيرة يتجاور فيها من ينتمى إلى الفراعنة ، ومن ينتمى إلى العرب ، ومن ينتمى إلى البجاة ، وتسأل عن نسب الأسرة فيدلك عنوانها على أصل من الفرس ، أو من الترك ، أو من المجر ، أو من البوشناق ، أو من العباسيين أو من العبيديين لأنهم جميعًا وفدوا إليها مع قوافل التجارة ، أو مع سرايا الجيوش أو مع اللائذين الناجين بأنفسهم من تقلب الدول وتنازع الحكومات ..

فإذا ذكرت أسوان بلدتى جاز لى أن أذكرها فأقول مدرستى ، لأننى كما أسلفت أدين بالإنسانية فى الأدب . وبالعالمية فى السياسة ، وبالوطن الذى تتسع له آفاق الفكر وآفاق الشعور .. ولعلى قد تنفست هذه الدروس من هواء الموطن قبل أن أقبسها من صفحات كتاب ..

يقال إن الذاكرة ملكة مستبدة . ويريد بنسبة الاستبداد إلى هذه الملكة العقلية أنها تحفظ وتنسى على غير قانون ثابت . فتذكر الأمور على هواها ولاتذكرها بقدر جسامتها واقترابها زمانها . وقد تحتفظ بأثر صغير مضى عليه خمسون سنة . وتهمل الأثر الضخم وإن عرض عليها قبل شهور أو أسابيع .

هذه الدعوى التي يدعونها على الذاكرة الإنسانية غير مكذوبة من أساسها وفيها ولا ريب مايوجب الشبهة . إن لم نرد أن نقول : مايوجب الثبوت واليقين .

كل ما أراجعه من معاهد الطفولة بأسوان يصلح أن يكون شاهدًا لاتهام الذاكرة بهذه المجاباة . إلى أن يثبت أنها محاباة استبداد وهوس على أسلوب ابن عباد :

لاتَمْدَحَنَّ ابن عبَّاد وإنْ هَطَلَتْ ... يَدَاهُ بالجُودِ حَتَّى شَابَهَ الدِّيما

فإنَّها خَطَرَاتٌ من وسَاوِسِهِ ... يُعْطِي ويَمنعُ لا بخلاً ولا كَرَمَا .

فمن هذه المحاباة أن بعض معاهد الطفولة يذكرني بأشياء رأيتها في الثالثة من العمر . وأشياء رأيتها في السابعة وغيرها رأيتها في التاسعة والعاشرة . ولا أحتاج في استعاداتها وإحيائها بتفصيلاتها إلى جهد عسير . بل أراها أمامي تتمثل بألوانها وأشكالها ومناسباتها كأنها من مشاهدات العيان منذ ساعات .

وإنني – مع هذا – لأجتهد بما وسعني من الجهد أن أغالب النسيان المطبق في أمور لم يمض عليها غير سنين ، ثم أذكرها – بعد إعنات الفكر – فتظهر لي كأنها ملتفة بغواشي الضباب ، بين الكثيف منه والرقيق ! . .

لكنني أعود إلى أسباب هذه المفارقات فلا أكاد أعتقد أنها محاباة على أي معنى من معاني المحاباة . ودعنا من قول القائلين أنها وسواس ابن عباد . في الهوس والاستبداد .

فكل ماتذكرته قبل العاشرة فهو من ذكريات «الانتباه الأول» . . . ومن نوع الحوادث التي تأتي وحدها متميزة بين غيرها ، ولاتأتي مع حوادث «الوتيرة» والسياق المتكرر المملول . .

فى الثالثة من عمرى

كنت فى الثالثة يوم جرت رحلتى النيلية للمرة الأولى ، وكانت السفينة تضطرب بين الشاطئين ويضطرب معها الشراع الذى يحاول أن يستقبل مهب الريح علي غير جدوى ، وكان بيننا وبين ضريح ولى الله الذى نقصده لوفاء نذر الفدية والزيارة أكثر من عشرة أميال ، فوقفت السفينة على الشاطئ الشرقى وخرج النواتية يطبخون طعامهم تحت نخلات هناك ، وكانت لى فى تلك الطبخة حصة القهوة التى تعودت أن أشربها ملونة بلون البن . مشبعة بالسكر ، كأنها تعلة من تعلات الفطام .

ليس من استبداد الذاكرة – إذن – أن يثبت هذا المنظر فى الثالثة وأن تزول بعده عشرات المناظر من الرحلات النيلية أو البرية . . التى تمر على وتيرتها مع تيار الحوادث والأخبار . . .

وكنت فى السابعة يوم عصف وباء الهيضة (الكوليرا) بأسوان ، وكاد الحى الذى نقيم فيه أن يخلو من سكانه بين مصاب وميت ومهاجر ومعتكف يحاذر زبانية الحجر الصحى محاذرة السائر آجام السباع . .

ويرنّ فى أذنى إلى الساعة صياح النواتية إذ يعبرون النيل ويسألون : كم أسعار اليوم ؟ فيجيبهم زميل من المرسى المهجور يفهم معنى السؤال ويعلم أنهم يسألون بهذه الكناية وماشابها عن عدد المصابين من أول النهار :

جنيه مصرى : أى مائة . .

بنتو . . . أى ثمانين . . .

بندقى . . أى خمسين . .

وهكذا حتى هبط السعر إلى الريال «الشنكو» والريال المجيدى . «وأم خمسة» أى القطعة ذات الخمسة قروش !

منظر آخر لا تظن أن الذاكرة تحابيه ، ولا تظن محاباتها إياه – إن صحت الشبهة – ضربًا من الاستبداد .

منظر فتاة

وأجمل المناظر التي تحتفظ بها الذاكرة من ذخائر العاشرة - وموادونها - منظر فتاة أوربية هيفاء لفت نظري أنها تسير في وسط المدينة - على غير عادات السائحين والسائحات - وتدير على خصرها حزامًا «أو مشدا» لا يزيد قطره على بضعة قراريط . . وتتخطر في الطريق الوعر كأنها تلمس أغصان الشجر بقدمي قطاة .

ولم أكن أفهم يومئذ أن نحافة الخصر جمال محبوب ، ولكنني فهمت أنه أعجوبة نادرة ، وتبعت الفتاة الهيفاء . حول منعطفات الطريق ولا أعلم لماذا أتبعها ، ولايدور في خلدي خاطر غير الاستزادة من هذا المنظر العجيب ، الرشيق .

لو أنني مصور لاستطعت اليوم أن أصور هذه الفتاة ، من الذاكرة ، فلا أخطئ منها لمحة يثبتها المصور على قرطاسه . ولست أذكر اليوم نقوش كسوتها ولكنني إذا أثبتها بجملتها لم تخالف ما يثبته المصور من نقوش الكساء على البعد ، ويقنع به الناظرون .

ولمن أراد من علماء «السيكولوجيا والبداجوجيا» أن ينعت هذه المحاباة بما يحلو له من أوصاف الاستبداد . ولكنني - بعد هذه السنين الطويلة - أستغفر لهم ذنوبهم إلى الذاكرة وأقول إنها ملكة مظلومة على الغاية من العدل والديمقراطية ، إن كانت محاباتها كلها على هذه المحاباة . .

الإنشاء في المدرسة

بدأت الكتابة بموضوعات الإنشاء في المدرسة ، وقد يكون في الإشارة إليها شيء يهم الناشئ المتطلع إلى التأليف لأنه يعلم منه مبلغ فعل التشجيع حين يتلقاه الناشئون من ذوي مكانة ملحوظة في العلم والحياة العامة .

كانت المفاضلة بين شيئين هي المحور الغالب على موضوعات الإنشاء في أيامي بمدرسة أسوان ، أيهما أفضل المال أو العلم ؟ الذهب أو الحديد ؟ الصيف أو الشتاء ؟ الرأي أو الشجاعة ؟ السيف أو القلم ؟ الحرب أو السلام ؟ إلى أشباه هذه المفاضلات .

وكان من عادتي أن أختار أضعف الجانبين حتى اخترت الجهل مرة في مفاضلة بينه وبين العلم ! . . وكان لنا أستاذ فاضل «هو الشيخ فخر الدين محمد» يحمد هذا الاختيار على أن يكون من قبيل مرانه القلم ، ويعرض كراستي على كبار

الزوار بين ماكان يعرضه من كراسات التلاميذ ، فلما زارنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ذات شتاء أراه الكراسة فتصفحها باسمًا وناقشنى فى بعض مفاضلاتها ، ثم التفت إلى الأستاذ وقال ما أذكره بحروفه : «ما أجدر هذ أن يكون كاتبًا بعدُ . . . . .».

ونطق «بعدُ» بضم الدال غير واقف على السكون ، ولم أزل أذكر ذلك حتى عللت به وقوف زعيمنا « سعد زغلول » على أواخر الكلمات محركة غير ساكنة ، وقلت إنها « مدرسة واحدة » تحرص على تحريك أواخر الكلمات ، أنفةً من الهرب على حد قول القائلين : «سكِّن تسلم» .. فهم لا يهربون من الحقيقة ولا يحرصون على السلامة .

وأبالغ إذا قلت إن كلمة الأستاذ الإمام هى دون غيرها التى حفزتنى إلى الكتابة ، ولكنها كانت ولا ريب حافزًا قويا بين الحوافز الكبرى ، وجاءت بعد عزيمة سابقة فأعانتها ، ودفعت عنها عوارض التردد والإحجام .

أما ظروفى المادية «عندما كنت ضغيرًا أتعطش إلى قراءة الأدب» فلم تكن ظروف ثراء مهما نقتصد فى حدود الثراء ، ولكنها كذلك لم تكن ظروف ضنك وفاقة ولا ظروف شعور بالحاجة إلى الضروريات .

كان أبى وأخى الأكبر موظفين يعيشان فى بيت واحد ، وكان مرتبهما معًا بضعة عشر جنيهًا وهو مقدار لم يكن بالقليل فى ذلك الحين ، وكنت الطفل الوحيد بالمنزل إلى أن ولدت أختى فلم تكن فى تربيتها كلفة ، لأن تعليم البنت فى أسوان لم يكن معروفًا قبل نموها إلى سن التلمذة ..

فنشأت أحسب أننى غير محتاج وأننى أجد راحة المعيشة مالا يجده الكثيرون من زملائى .

مكتبة بخمسين قرشا

على أن الرزق الذى يتيسر للضروريات لا يتيسر لشراء الكتب عن سعة ، وأحمد الله أن شراء الكتب عن سعة لم يكن لازمًا فى أيام صباى للاطلاع على أوائل المعرفة الأدبية ، بل على المعرفة الأدبية فى مراحلها المتقدمة .

فلا أحسب أن المكتبة التى اشتريتها بنقودى فى صباى زاد ثمنها على خمسين قرشًا أو نحو الخمسين .

كان الكتاب من الطبعة الأزهرية يباع بقرشين أو ثلاثة قروش ويشتمل أحيانًا على ثلاثة كتب بين المتن والحاشية والتذييل . .

وكانت هذه الكتب تباع فى دكان إلى جانب المدرسة مع أصناف العطارة والحبوب ولوازم أهل الريف ، ومنها ما كان يرتفع إلى خمسة قروش أو إلى عشرة قروش كالمقامات والدواوين .

ولم يكن «مصروفى» يزيد على خمسة مليمات فى اليوم إلا ليدركك خمسة قروش فى الأسبوع ، أتسلمها كل يوم خميس فلا أشترى بها مأكولا أو فاكهة ولا أذهب بها إلى ملعب البهلوان إن كان بالمدينة ملعب منها ، وهى لا تقيم فيها بل تزورها غبًّا كل بضعة أشهر . .

فإذا كان معى ثمن الكتاب اشتريته لساعته ، وإلا أعطيت العطار قرشين بعد قرشين حتى يتم الثمن المطلوب .

وبهذه الطريقة قرأت العقد الفريد ، وثمرات الأوراق ، والمستطرف ، والكشكول والمخلاة ، ومقامات الحريرى ، وبعض الدواوين .

ولم تكلفنى المكتبة التى اشتريتها - كما قلت - إلا أقل من جنيه واحد ، وقد يزيد ثمنها على نصف الجنيه بقليل . .

بعض من كل

لكن هذه الكتب مقتنياتى التى اشتريتها بنقودى فى أسوان ، ولم تكن هى كل ما قرأته فى فترة التلمذة وما بعدها ، بل كانت لى وسائل إلى كتب أخرى من غير طريق الشراء .

فقد كان أبى يقرأ كتب الفرائض والعبادات وبعض كتب التاريخ ولا سيما تاريخ السيرة النبوية وتراجم الأولياء الصالحين . ومع هذه الكتب كنت أجد عنده مجموعة كبيرة من أعداد صحيفة «الأستاذ» وصحيفة «الطائف» لعبد الله نديم وصحيفة «العروة الوثقى» لجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده . .

وكان أخْوالى يقرأون كتب التصوف والأدب الدينى ولا سيما كتب الغزالى ومحيى الدين بن عربى وطائفة من المتصوفة المتأخرين .

ولم تكن مكتبة المدرسة مفتوحة يومئذ للتلاميذ ولا كان فيها من كتب الأساتذة ما يملأ رفَين أو ثلاثة رفوف من دولاب ، وكانت مجلة المقتطف إحدى

المجلات التى تصل إليها من وزارة المعارف العمومية ، فأذن لى الناظر فى التردد عليها والاستعارة منها والاعتماد عليها فى تحضير المناظرات والمطارحات . .

وساعدنى ، من المصادفات التى لا تتيسر فى كل حين ، أن أسوان كانت يومئذ مرتادًا لمثات السائحين كل شتاء ، وكان فيها فندقان كبيران وفنادق أخرى دونهما فى العظم والوجاهة تزدحم بالسائحين من أقطار العالم ، فتعوّدنا أن نرى فيها كل شتاء مكتبات عامرة بالمراجع التاريخية والقصص والصحف والمجلات الأدبية والفكاهية ولم يكن من العسير علينا أن نحصل على بعضها بالثمن المستطاع ، بل كان يتفق أحيانًا أن يزور مدرستنا أناس من علية السائحين ومعهم أبناؤهم وبناتهم يطلبون عناويناتنا لتبادل الرسائل ، ويبعثون إلينا بالهدايا من الكتب التى تعجبهم ويقدرون أنها تعجبنا ، ولا أنسى أحد السائحين - وكان إنجليزيا مسلمًا يسمى «ماجور ديكسون» - يوم جاءنى منه بعد عودته إلى بلاده كتابان : أحدهما ترجمة القرآن والآخر كتاب كارليل عن الثورة الفرنسية . . وهو الوحيد الذى اختار لى هذا الاختيار ولا أزال أذكره كلما توسعت فى القراءة فعلمت أنها تقوم فى الأغلب الأعم على هذين القطبين من المطالعة : أصول العقائد وفلسفة الثورات الاجتماعية من وجهة البطولة والأبطال .

هذه الندرة من الكتب التى تيسرت لى أيام التلمذة وما بعدها علمتنى دستورًا للمطالعة أدين به إلى الآن وخلاصته أن كتابًا تقرؤه ثلاث مرات أنفع من ثلاثة كتب تقرأ كلا منها مرة واحدة .

من العيد تعلمنا أن الطفل الصغير «شىء مهم» فى البيت ، وأننا نحن بذواتنا «أشياء مهمة» .. لأننا أطفال ..

تبتدئ تهنئات العيد فى مدن الريف بعد مغرب الشمس من يوم الوقفة ، وتكون مقصورة فى ذلك اليوم على الجارات القريبات من المنزل ، لأن الغالب عليهن أن يذهبن صباح العيد مبكرات إلى «القرافة» لتفريق الصدقة على أرواح الأموات .

وتدخل الجارات واحدة بعد الأخرى يرددن صيغة لا تتغير ، تنتهى بهذا الدعاء : « . . . يعود عليك كل سنة بخير .. أنت وصغيرينك وصاحب بيتك والحاضرين والغائبين فى حفظ الله» .

وقبيل المغرب ، تكون عملية التغيير وتوزيع الملابس الجديدة على صغار البيت قد ابتدأت على يد الوالدة فى نشاط وسرعة ، ولكن ... وهذا هو العجب ، فى غضب وشدة ، وأحيانًا فى سخط وصياح :

– تعالى يا ولد .. اذهب يا مسخوط .. الحق ادخل الحمام .. مع تسبيحة أو اثنتين من قبيل : إن شاء الله ما لبست .. إن شاء الله ما استحميت ..!

ولقد تعودنا هذا الموشح كل عيد على قدر ما تعيه الذاكرة فى سن الطفولة ، وأكثر ما يكون ذلك حين تزدحم الجارات ، وحين تكون أقربهن إلى الدار على استعداد للشفاعة وترديد الجواب المألوف فى هذه الأحوال : «بعد الشر .. بعيد عن السامعين!» .

وقد خطر لى يومًا أن هذا كثير على عملية التغيير ، فرفضت الكسوة الجديدة وذهبت صباح العيد إلى منزل جدتى بثوبى القديم .

وكان من تقاليد العيد أن ترسل رءوس الذبائح إلى الجدات : أم الأب أو أم الأم من كانت منهما على قيد الحياة ، وأم الأب مفضلة إذا كانت الجدتان تعيشان ..

فلما دخلت منزل جدتى «أم أمى» وهى ضريرة : سمعت الأطفال يعجبون لأننى لم ألبس جديدًا فى العيد ، فقربتنى الجدة العطوف إليها وسألت فى شديد من اللهفة :

- ما الخبر يا ولدى ؟ لماذا لم تلبس ثوبك الجديد ؟ ألم يحضروا لكم ثيابًا جديدة ؟

- بلى . . إنهم قد أحضروها ، ولكننى أبيت أن آخذها من يد بنتك . . لأنها تشتمنا وتزعق فينا . .

فابتسمت وهى تعرف بنتها حق المعرفة ، وصاحت :

- بنتى ؟! وكيف كانت القصة ؟

فأعدت عليها القصة مرددًا كلمات السخط التى أغضبتنى ، فسألت :

- أكان أحد من الجيران عندكم فى تلك الساعة ؟

فحسبت أنها تطلب شهودًا على الواقعة ، وقلت لها :

- كثيرات . . فلانة . . وفلانة و . .

فلم تمهلنى أن أتم أسماء جاراتنا اللاتى تعرفهن ، وجعلت تربت على كتفى وتقول : «وأنت العاقل يا عباس تقول هذا ؟ . . إن أمك لا تغضبك ولا تدعو عليك ، ولكنها تصرف النظرة . . !» .

وفهمت معنى «تصرف النظرة» بعد شرح قليل ، وخلاصتها أن رؤية الأم فى مساء العيد بين أطفالها الفرحين المتهللين بالعيد تفتح أعين الحاسدات اللاتى حرمن الأطفال ولا يحتفلن «بتغييرات» العيد هذا الاحتفال ، فإذا شهدن أمارات السخط بدلا من الفرح والرضا بطل الحسد ، وسلم الصغار وأمهاتهم من عيون الحاسدات .

* * *

لأول مرة أشعر بأن الطفل فى البيت «قنية نفيسة» يحسد عليها الأمهات والآباء وما كنت أفهم قبل ذلك إلا أنه من «غلب الحياة أو هموم المعيشة» وأنه هو – فى شعوره بنفسه – شىء صغير يتطلع إلى اليوم الذى يساوى فيه هؤلاء الكبار ، ويُحسب فى زمرة الناس المعدودين ! . .

وكان ذلك «درسًا» فى تفسير القرآن وتفسير الكتب المدرسية . .

فقد كنت أذهب مع أبى إلى المسجد القريب يوم الجمعة فأسمع الفقيه يقرأ فى سورة الكهف : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) فلا أدرى كيف نكون زينة ، ونحن نتطلع إلى أيسر سلعة من سلع الزينة الغالية ؟

وكان من قطع المحفوظات التى كتبناها فى المدرسة قصة نسميها .. «قصة المرأة البائخة» هذه خلاصتها :

«امرأة زارت إحدى صديقاتها ، فراحت صاحبة الدار تفاخرها بجواهرها وتفرجها عليها ، ثم ذهبت صاحبة الدار ترد الزيارة لصاحبتها وتسألها : أين جواهرك لأتفرج عليها .. واستمهلتها هذه ساعة إلى أن حضر ولداها من المدرسة فاستدعتهما إلى حجرة الاستقبال وقالت للضيفة المذهلة بجواهرها .. ها هما جوهرتاى .. وليس لها ثمن تحتويه خزائن الأموال » .

وكان جوابًا مخيبًا للآمال ، ومسقطًا للقصة كلها فى موازين النقد عندنا نحن الأطفال أو نحن الجواهر التى لا تقدر بالمال ..!

ونخرج من ذكريات الطفولة إلى تجارب الحياة ، فنعلم الآن فلسفيا واجتماعيا ونفسيا ، أن الطفولة هى قوام العيد كله فلولا الأطفال لما استطاع المجتمع أن يوقت الفرح مقدمًا بميقات معلوم فى يوم من الأيام ، ولكن هات للمجتمع أطفالا يفرحون بالكساء الجديد واللعب المباح ، وأنت الكفيل بفرح المجتمع كله على الرغم منه .. إذا صح الفرح بالإرغام وهو صحيح فى شريعة «الديكتاتوريين» الصغار ، فليس فى استطاعة كبير أن يعصى سلطان الفرح وهو ينظر إلى صغار فرحين .

ومن العيد تعلمنا مفارقات النفوس فى الأسرة الواحدة ، علما يسبق كل ما عرفناه بعد ذلك من قوانين الوراثة فى ذمة السيكولوجيين والبيولوجيين .

تعودنا أن نزن الأقدار فى بيئتنا «العائلية» بمقدار العيدية التى كانت تتفاوت من خمسة قروش على الأكثر إلى خمس مليمات على الأقل .

وكان لنا من الأقارب ، والمعارف غير الأقارب ، وذخيرة وافية للرقابة النفسية من الإخوة الأشقاء .

أخوان شقيقان يتشابهان أقرب الشبه فى الملامح والأزياء ، هذا يمنح القروش الخمسة وذاك لا يزيد على الخمسة المليمات ، وهذا بشوش حازم ، وذاك عبوس صارم ، وهذا ثرثار لا يفرغ من الحديث ، وذاك صموت نزر الكلام ..

ولكنا – مع الإيمان بصحة الميزان الذى يفرق بين خمسة قروش وخمسة مليمات – قد تعلمنا مبكرين أن النقود ليست هى الميزان الوحيد لأقدار المعيّدين ..

إذ كان من أولائك المعيدين صديق للأسرة لا يبذل مليمًا ولا يسكت مع هذا عن مسألة العيدية بحذافيرها مداراة لإفلاسه .. بل يلقانا مبادرًا بطلب العيدية منا ونفهم منه – بداهة – أنه يمزح ، ولا ينتظر منا أن نعطيه ولا ننتظر منه أن يعطينا .

إلا أنها فاتحة للمعايدة لابد منها ، ثم تتبعها أدوار متلاحقة من الفوازير والألغاز الحسابية أو اللغوية ، وأدوار أخرى من محاكاة القطط والكلاب والخرفان والحمير .

ولم نكن نحن نطلب «عيدية» من أحد يبذلها أو لا يبذلها ، ولكن أبانا رحمه الله كان حريصًا على أن يحذرنا من طلب العيدية خاصة من الصديق ، لأنه «على قد حاله» كما كان يقول ، فكان هذا الصديق «الذي على قد حاله» على رأس القائمة بين المنتظرين من المعيدين ، وكنا نميِّزه بالحصة الوافية من ضيافة الأعياد : قرفة ، وكعك ، وبقايا المكسرات من رمضان ..

وقد كان في ذهني درس من دروس العيد يوم قرأت مذهب «أبي العلاء» في ظلم الضعفاء والأقوياء فرحبت به ولم أستغربه ، وهو غريب لا تقدر على هضمه معدة الطفولة كقوله :

ظُلْمُ الحَمَامَةِ في الدُّنيا وإنْ حسبت   في الصالحاتِ كَظُلْمِ الصَّقْرِ والبَازِي

ففي إحدى زيارات العيد ، علمت أن «سعادة المأمور» بجلالة قدره مظلوم ، يظلمه بهلوان أو شبيه بالبهلوان ، من أصحاب الأراجيح .

وكانت لعبة الأراجيح أحب ألاعيب العيد إلى الأطفال ، وقد أقيمت على ساحة قريبة من المنزل قبل الوقفة بأيام ، ثم فوجئنا بحلها ورفعها من مكانها ، وقيل أنها حلت ورفعت بأمر سعادة البك المأمور .

وشاعت التعليقات من قبيل قولهم :

رجل مستبد يظن أن الإدارة هي التحكم في خلق الله ..

رجل فظ ينكد على الأطفال الصغار في موسم اللعب والفرح ..

رجل غليظ القلب يقطع أرزاق المساكين الذين على باب الله ..

ويأتي هذا الرجل الموصوف بكل هذه الصفات للتعييد على الوالد الذي كانت تربطه به رابطة العمل في ديوان واحد ، إذ كانت دار المحفوظات يومئذ تشغل المكاتب التي تجاور مكتب المأمور .

فلم نخف إلى استقبال الرجل «المستبد الفظ الغليظ» إلا حين علمنا بعد هنيهة أنه فى الواقع هو الرجل المظلوم .

وكأنه سيق إلى التحدث عن قصة الأراجيح فقال :

- إنها حُلّتْ ورفعت لأنها قد ظهر بعد فحصها أنها مفككة اللوالب و«الصماويل» وأن حادثًا حدث فيها وتهشم من جرائه ثلاثة أو أربعة أطفال من أبناء البلدة التى كانت فيها قبل وصولها إلى أسوان ، ووجدت الورقة التى يحملها صاحبها وعليها تعهد منه بأن يصلح خللها قبل إدارتها ، ولكنه لم يصلح هذا الخلل ولم يكن من المأمون على حياة الأطفال أن تدار وهى بتلك الحال . .

كما من حاكم ملوم ، وكم من محكوم ظالم !

وكم من حجة للقائلين :

لَو أَنْصَفَ الناسُ استَرَاحَ القَاضِى وباتَ كلٌ عن أَخيه راضِى

وإن لم يخل من الحجة قول القائلين : لو أنصف القاضى استراح الناس . . نعم . . وكم للعيد من دروس تمر بالصغار والكبار ، ولا ندرى متى تصلح للعظة والاعتبار ! . .

... أساتذتى ...

كان زعيم مصر الكبير سعد زغلول رحمه اللّه يعد من مزايا نظام التعليم فى الجامع الأزهر على عهده ، أنه كان نظاما يسمح للطالب أن يختار أساتذته ويجلس فى الحلقة التى يروقه أن يجلس فيها ..

وهى مزية لا شك فى نفعها للمعلمين والمتعلمين ، لأنها تنوط مكانة الأستاذ بعمله واجتهاده ولا تقيد التلميذ بفرصة واحدة فى درس من دروسه ، وليس فى هذا النظام ضرر على الأخلاق ما دام طلب العلم هو الغرض الخالص للأساتذة والتلاميذ .

ومما أحمد اللّه عليه أن أساتذتى جميعًا قد اخترتهم بنفسى ، ولم يفرضهم علىَّ أحد يملك سلطة التعيين والفصل دون غيره ، لأنهم كانوا جميعًا مؤلفين مشهودًا لهم برسوخ القدم فى صناعة التأليف ، أقرأ منهم ما أشاء فى المرحلة الأولى من مراحل التعليم الدراسى أفدت منهم غير قليل ، ولكننى كنت فى استفادتى منهم على اختيار يرجع إلىَّ ، ولا يرجع إلى البرنامج المقرر أو النظام المفروض ..

فى المرحلة الأولى

استفدت من مرحلة التعليم الابتدائى من أستاذين اثنين على اختلاف بينهما فى طريقة الإفادة ، فإن أحدهما قد أفادنى وهو قاصد ، والآخر قد أفادنى على غير قصد منه ، فحمدت العاقبة فى الحالتين ..

كان أحدهما الأستاذ الفاضل مدرس اللغة العربية والتاريخ الشيخ محمد فخر الدين ، وكان «الإنشاء» صيغًا محفوظة فى ذلك الحين كخطب المنابر وكتب الدواوين ، ولكنه كان يبغض الصيغ المحفوظة وينحى بالسخرية والتقريع على التلميذ الذى يعتمد عليها ، ويمنح أحسن الدرجات لصاحب الموضوع المبتكر وأقل الدرجات لصاحب الموضوع المقتبس من نماذج الكتب ، وإن كان هذا أبلغ من ذاك وأفضل منه فى لفظه ومعناه .

وكان درسه فى التاريخ درسًا فى الوطنية . . فعرفنا تاريخ مصر ، ونحن أحوج ما نكون إلى شعور الغيرة على الوطن والاعتزاز بتاريخه ، لأن سلطان الاحتلال الأجنبى كان قد بلغ يومئذ غاية مداه . .

أما الأستاذ الآخر ، فقد كان أستاذ حساب وهندسة ورياضة . ولا داعى لذكر اسمه فى هذا المقام .

كان يؤمن بالخرافات وشفاعات الأولياء ، وكان محدود الفهم فى دروسه ولا سيما المسائل العقلية فى درس الحساب ، وقد كانت هذه المسائل شائعة فى ذلك الحين ثم أبطلوها بعد ذلك لأنهم زعموا أن القدرة على الحساب شىء والقدرة على فض المغلقات العقلية شىء آخر ، وقد أصابوا من ناحية وأخطأوا من ناحية ، لأن القدرة على فض المغلقات ألزم اللوازم لإتقان العلوم الرياضية خاصة وإتقان العلوم الأخرى على العموم . .!

وكان يتردد على مسجد يعتكف فى زاويته رجل من المشهورين بالولاية وصنع الكرامات فدعانا جميعًا – نحن تلاميذ السنة النهائية إلى صلاة المغرب معه فى ذلك المسجد ، للتبرك بالرجل الصالح وتلقى النصائح منه فيما نحن مقبلون عليه من امتحان قريب .

وجاء دورى فى تلقى النصيحة ، فقال لى الرجل : «أما أنت فعليك باللغة الإنجليزية» . .

وعجبت وعجب زملائى من هذه النصيحة ، لأننى كنت من المتقدمين فى هذه المادة على الخصوص ، وكنت أقرأ فيها بعض الكتب الأدبية وأنا فى السنة الرابعة الابتدائية ، ولكن زملائى فسروا هذه النصيحة بسر الولاية . . فلعل الرجل يعلم من سر الامتحان فى تلك السنة ما لا يعلمون .

فلما اجتمعنا بالمدرسة فى أول حصة للحساب ، قال الأستاذ الرياضى :

«تذكر نصيحة الشيخ يا فلان؟» . .

قلت : «إن الشيخ لم يقل شيئًا» . .

قال هو يحوقل وزملائى يأخذهم الوجل ، ومنهم كثيرون بقيد الحياة : «كيف لم يقل شيئًا؟ . . ألم ينصحك بالاجتهاد فى اللغة الإنجليزية ؟ . . »

قلت : «نعم فعل . . ولكنه سيظفر بالسمعة فى علم الغيب أيا كانت النتيجة ، فإن نجحت قيل إنها بركة لنصحه ، وإن أخفقت قيل إنه قد عرف هذا فحذرنى منه» .

فما زاد الأستاذ على أن قال : «دع هذا الضلال هداك اللّٰه» . .

ولكن الدرس الأكبر – الدرس الذى أحسبه أكبر ما استفدته من جميع الدروس فى صباى – كان بصدد مسألة حسابية من تلك المسائل العقلية . . كنت شديد الولع بهذه المسائل لا أدع مسألة منها بغير حل مهما بلغ إعضالها . .

وكان الأستاذ يحفظ منها عددًا كبيرًا محلولا فى دفتر يعيده على التلاميذ كل سنة ، وقلما يزيد عليه شيئًا من عنده . .

وعرضت فى بعض الحصص مسألة ليست فى الدفتر ، فعالجنا حلها فى الحصة على غير جدوى ، ووجب فى هذه الحالة أن يحيلها الأستاذ لتلاميذه فلم يفعل ، وقال على سبيل التخلص : «إنما عرضتها عليكم امتحانا لكم ، لتعرفوا الفرق بين مسائل الحساب ومسائل الجبر ، وهذه من مسائل الجبر لأنها تشتمل على مجهولين » .

لم أصدق صاحبنا ولم أكف عن المحاولة فى بيتى ، وقضيت ليلة ليلاء حتى الفجر وأنا أقوم وأقعد عند اللوحة السوداء حتى امتلأت من الجانبين بالأرقام . . وجاء الفجر قبل مطلع النهار ، فإذا بالمسألة محلولة وإذا بالمراجعة تثبت لى صحة الحل ، فأحفظ سلسلة النتائج وأعيدها لأستطيع بيانها فى المدرسة دون ارتباك أو نسيان .

قلت : «لقد حُلَّت المسألة» .

قال الأستاذ : «أية مسألة ؟» .

قلت : «المسألة التى عجزنا عن حلها فى الحصة الماضية» .

قال : «أو صحيح ؟ . . تفضل أرنا همتك يا «شاطر» . .

وحاول أن يقاطعنى مرة بعد مرة ، ولكن سلسلة النتائج كانت قد انطبعت فى ذهنى لشدة ما شغلتنى وطول ما راجعتها وكررت مراجعتها .

وانتظرت ما يقال . .

فإذا بالأستاذ ينظر إلىّ شزرًا وهو يقول : «أضعت وقتك على غير طائل ، لأنها مسألة لن تعرض لكم فى امتحان» .

وإذا بالزملاء يعقبون على نغمة الأستاذ قائلين : «ضيَّعت وقتنا . . ما الفائدة من كل هذا العناء ؟» . .

كانت هذه صدمة خليقة أن تكسرني كسرًا ، لو أن اجتهادي كان محل شك عندي أو عند الأستاذ أو عند الزملاء . أما وهو حقيقة لا شك فيها ، فإن الصدمة لم تكسرني بل نفعتني أكبر نفع حمدته في حياتي ، وصح فيها قول نيتشه : «إن الفضل قيمته فيه لا فيما يقال عنه ، أيا كان القائلون» ولم أحفل بعدها بإنكار زميل أو رئيس .

* * *

كان أساتذتي جميعًا ممن اخترتهم بنفسي . .

نعم ! . . ولكنني أحب أن أستثني أستاذًا واحدًا كان حضوري عليه من اختيار أبي لا من اختياري ، وذلك هو الشيخ أحمد الجداوي رحمه اللّه . . كان الشيخ أحمد من أبناء أسوان ، وحضر العلم في الأزهر وزامل الأستاذ الإمام «محمد عبده» على أيام السيد جمال الدين .

وتولى القضاء في قنا ، ثم تولى إدارة التعليم في السودان ثم نشبت الفتنة المهدية فهجا «محمد أحمد» بقصيدة نونية نشرتها الحكومة في جميع الأقطار السودانية ، ومنها على ما أذكر قوله :

يا ذا الذى حَسِبَ الضلالَ هدايةً ما أنتَ إلا مُبتلى بجنون

فجعل المهدى جائزة لمن يأتيه برأس «الكويفر» الجداوى حيا أو ميتا ، وبادرت الحكومة بإبعاده إلى أسوان عند استفحال الثورة مخافة عليه ، فأقام فى بلده وفتح بيته الواسع لإلقاء الدروس الأدبية والدينية ، وكان الرجل فى عمله على النهج القديم ، ولكنه كان على دأب تلاميذ الأفغانى جميعًا نهمًا بالمعرفة ، يطلب منها كل ما استطاع طلبه ، ولو لم يكن من سلكه ولا اتجاهه .

من ذلك أنه تعلم اللغة الإنجليزية فى شيخوخته على المرحوم نعوم شقير باشا ، وكان يومئذ شابًا ناشئًا يعمل فى قلم الترجمة بمعسكر الجيش ، وقد ذكره نعوم باشا فى كتبه عن السودان . .

ومن ذلك أنه تعلم الشعوذة وألعاب السينما وحيل الحواة حتى برع فيها . .

ولم يكن أعجب من مفاجآته حين يتكلم إلى أحد الضباط الإنجليز باللغة الإنجليزية ، أو حين يجتمع بالموظفين والأعيان لمشاهدة «حاو» ماهر يبهرهم بألعابه ، وكان «الحواة» يكثرون يومئذ فى أسوان لازدحامها بالطائرين عليها .

فيقف الأستاذ ويشمر عن أكمامه العريضة ، ويفحم «الحاوى» المسكين فى صميم فنه ، أو يضربه بعصاه !

* * *

كان هذا النابغة الألمعى أوسع من لقيت محفوظًا فى الشعر والنثر .

كان يطارح وحده خمسة أو ستة من القضاة والمدرسين والأدباء .

والمطارحة هى أن تأتى ببيت من الشعر فيأتى مطارحك ببيت يبدأ بحرف القافية فى البيت الأول . . فإذا اجتمع خمسة أو ستة من الأدباء كان لكل منهم أن يقترح بيتًا ، وكان الشيخ الجداوى هو الذى يرد عليهم جميعًا . . فيسكتون فى النهاية وهو لا يسكت ولا ينضب معينه وكان كثيرًا ما يتعمد التعجيز فيذكر فى رده بيتين أو ثلاثة أبيات أو أربعة .

وكان يحفظ مقامات الحريرى والهمذانى ويلقيها أحيانًا موقعة مفسرة ، فيأخذنى والدى معه إلى بيت الشيخ لأنه كان من أصدقائه ومحبيه ، أو يدعونى إلى حضور المجلس إذا زارنا الشيخ كما كان يفعل أحيانًا .

ومن خصائصه إنه على قدرة فائقة فى نظم الشعر المؤرخ أو الشعر الذى يجتمع من حروف كل شطرة فيه تاريخ سنته . وقد نظم فى استقبال الخديو عباس – عند مروره بأسوان فى طريقه إلى السودان – قصيدة كبيرة فى كل بيت منها تاريخان .

ولم يكن مجلسه كل مقامات ودروسًا ومطارحات ، بل كان من طرائفه أنه يعرف ألعاب الحواة ويبتدع الملح والفكاهات ، وكان مولعًا بشيخ معمر جاوز الثمانين اسمه «علوب» لا يفتأ ينواشه ويستثيره ويحرك غيظه ليستمع إلى ردوده الساذجة التى لا يبالى فيها بكبير ولا صغير .

ومن دعاباته معه أنه كان يقسم له لئن وصل من مكانه إليه قبل أن يفرغ من عد «خمسة» ليعطينه قطعة بخمسة ! . .

وقطعة بخمسة فى ذلك العصر شىء مهول عند «علوب» .

ثم يأخذ القاضى الجداوى فى العد فيطيل نفسه «بالواحد» حتى تستغرق ثوانى كثيرة والسلحفاة تطمع فى الوصول من أول المجلس إلى آخره إذا استمر العد على هذه النغمة ، فيتحرك الطمع فى صدر «علوب» .

ويدس قدميه خفية فى النعال ليفاجىء القاضى بالجرى إليه قبل أن يفرغ من عدّه .

فما هو إلا أن يخطو خطوتين أو ثلاثًا وينطلق فى جلاله ووقاره عاديًا مهرولا حتى يسرع القاضى فيأتى على بقية الخمسة عدا فى نفس واحد .

القاضى فيأتى على بقية الخمسة عدّا فى نفس واحد .

فيحوقل الشيخ ويصيح به : «واللّه ما أحسبك تعلمت الفتاوى الشرعية إلا لتأكل على «علوب» هذه الخمسة قروش» .

وربما تمادى القاضى فى إطماعه عمدًا فيستمر فى عده على النغمة الأولى حتى يصل إليه «علوب» ويكسب الرهان ويعترف له القاضى بالهزيمة ويأتى دور التسليم بعد البحث فى الجيوب من اليمين والشمال . و«علوب» واقف بالانتظار . .

ويطول البحث فى الجيوب و«علوب» ضاحك متهلل ضحك الشماتة والانتصار ثم يصيح به القاضى وقد أطال لهفته وأثار طمعه : «خذ يا شيخ . بارك الله لك فيما عطاك» .

ويدس فى يده شيئًا فيرتاع «علوب» لأنه يحس فى يده خمسة مليمات لا خمسة قروش .

ويأتى دور القاضى فى الشماتة والنكاية ، ويعود إلى الفتاوى الشرعية التى يكرهها «علوب» فيقول له : قطعة بخمسة يا «شيخ علوب» ؟ . . إن حلفت فلك خمسة القروش التى تريدها . ولكن – يا «شيخ علوب» – حاسب قبل اليمين . . كم مؤخر صداق «الوليّة» يا أبا العلاليب ! . .

وهكذا تنقضى مجالسه فى سرور وفائدة وإيناس . ولا أدرى على التحقيق كيف تعلم ألعاب الحواة وأشباهها من الحيل الحسابية والسيمية ، ولكنى لاحظت عليه أنه لا يرى أمامه بابًا للمعرفة إلا تطرق إليه ، ومن ذلك أنه تعلم اللغة الإنجليزية لأن مجلسه كان يجمع بعض الأدباء المحيطين بها ومنهم المرحوم نعوم شقير الذى كان يومئذ مترجمًا بمعسكر أسوان . فانتهز هذه الفرصة ليتعلم عليه الإنجليزية ويعلمه درسًا فى الآداب العربية . .

وليس الشغف بالمعرفة على هذا النحو بالخلق المستغرب من تلاميذ جمال الدين ، فلولا حبهم للمعرفة ومخاطرتهم فى سبيلها لما عرفوه .

وقد حبّبت مدرسة الجداوى الأدب إلى نفسى لأول مرة ورغبت أن أتخذه فناً أضرب فيه بسهم ، كما ضرب فيه الأستاذ ، وصرت من ذلك الحين مهتما بحفظ الشعر ، ومطالعة كتب الأدب .

ومما يلذ ذكره أننى لما أغرمت بالأدب أخذت أتمرن على نظم الشعر ، وساعدنى فى ذلك مباراتنا المدرسية التى كان الناشر يعقدها لنا فى إلقاء الشعر العربى ، حتى كنت أستعيض عن محفوظاتى الشعرية بأبيات أنظمها من تلقاء نفسى ، وكانت أول أبيات نظمتها وأنا لم أتجاوز الحادية عشرة هذه الأبيات التى أذكرها هنا على سبيل الفكاهة :

عِلْمُ الحساب لَهُ مَزَايَا جَمَّةٌ   وبه يزيدُ المرءُ فى العرْفان
النَحوُ قنطرةُ العُلُومِ جميعها   ومُبِينُ غامضها وزَيْنُ لِسَان
وكذلك الجغرافيا هَادِيَةُ الفتى   لمسالك البلدان والوديان
وإذا علمتَ لِسانَ قومٍ يا فَتَى   نِلْتَ الأمَانَ به وأَىَّ أمانَا !

الشيخ محمد عبده

والشيخ محمد عبده فى اعتقادى أعظم رجل ظهر فى مصر وما جاورها منذ خمسة قرون أثره فى نفسى من أقوى الآثار ..

وقد أعجبت فى نفسى من أقوى الآثار ..

وقد أعجبت به لأننى سمعت بذكره فى مجلس الأستاذ الجداوى مرات ، وكان محبوبًا فى بلدتى أسوان على الرغم من الضجة التى شنها عليه حساده والجاهلون بفضله .

وذلك لأنه توسط فى قضية متشعبة الأطراف شغلت المدينة والإقليم كله أكثر من عشر سنوات ، حتى سماها ظرفاء المدينة قضية دريفوس .. وكان أحد الطرفين فيها رجلا سَريًا مفرط الذكاء شديد العناد خبيرًا بحيل المقاضاة وأساليب المراوغة والتأجيل وإعادة النظر وإهمال التنفيذ ، وكان الطرف الآخر رجلا من المهاجرين إلى السودان الذين عادوا إلى وطنهم مفتقرين بعد الثورة المهدية ، فلما بحث عن بيوته وأمواله وجدها فى يدى ذلك السرى الذكى العنيد ولم يجد معه دليلا حاضرًا يعينه على المقاضاة ، ولولا العداوة بين ذلك السرى الذكى العنيد وبين أسرة أخرى فى المدينة لما استطاع الإنفاق على القضية سنة واحدة .

ومع هذا عز على الأسرة القوية إثبات حقه وأوشكت القضية أن تنقلب عليه ، لولا أن هداه نائب أسوان فى مجلس الشورى إلى الشيخ محمد عبده فقص عليه

قصته واستفز نخوته فتولى القضية بنفسه وخاطب فيها زعيمنا الكبير سعد زغلول رحمه اللّه بعد أن تحولت إليه فحكم فيها حكما فاضلا هز الإقليم بأسره وتحدث به الكبار والصغار فى كل مجلس وفى كل قرية ، وغلبت هذه السمعة الحسنة التى تكلل بها اسم الشيخ محمد عبده فى أسوان على كل تهمة باطلة من تهم الحساد الذين افتروا عليه الزندقة والإلحاد .

ومن حظى الحسن أننى سمعت به فى تلك الأيام فراقنى أن أقتدى به فى غيرته على الحق ونجدته للضعيف وقلة اكتراثه للقيل والقال ، واطلعت على معظم ما كتب فى شئون الدين والدنيا ، ولكننى أعجبت بخلقه فوق إعجابى بعلمه ، فإن الاقتداء بخلقه نافع لكل إنسان كائنًا ما كان مذهبه فى الدراسة والتفكير ولكن العلوم والمعارف تتعدد بين فريق وفريق من الناس ، فلا ينتفع المرء إلا بمن يماثله فى معارفه وعلومه .

وأنا مدين بخطتى فى السياسة الوطنية لإعجابى بالشيخ محمد عبده ومريديه . .

فإعجابى به هو الذى أعظم فى نفسى الثقة بسعد زغلول يوم كان الفتيان من عمرى كلهم أنصارًا لمصطفى كامل وعبد العزيز جاويش وأتباعًا لهما فى الحملة على سعد زغلول .

ولما اشتدت هذه الحملة ذهبت إلى سعد فى ديوان المعارف لأستطلع رأيه وأسمع حجته على حضور ، وقلت فى خطابى أننى أثق به لأننى أثق بأستاذه ، ودخلت المكتب فاستقبلنى واقفًا وأشار إلى كرسى أمامه فجلس وجلست ، وسألنى : «أعرفت الشيخ محمد عبده؟» قلت : «نعم ! . . قرأت رسائله وتفسيراته وترجمة حياته» وقال : «أين ؟ . . أفى الأزهر ؟» قلت :

«لا . . . بل فى أسوان ، قدمنى إليه أستاذى فناقشنى فى علومى المدرسية وبعض الآراء العامة ثم سمعت منه بشرى طيبة» . .

قال : «ماذا سمعت منه؟» .

قلت : «التفت إلى الأستاذ وقال وهو يربت على كتفى : ما أجدر هذا أن يكون كاتبًا بعد» .

فتبسم الباشا وقال : «أرى أن نبوءة الإمام تتحقق» . واستطرد إلى كلام عن الشيخ يثنى عليه .

وهكذا ترتسم لنا فى بواكير الصبا السياسة التى نقاد بها ونقود بها غيرنا مدى الحياة .

شيطنة التلاميذ

ولا أحسب أن أحدًا يتكلم عن أساتذته إلا انتظر منه القارئ شيئًا عن «شيطنة» التلاميذ مع الأساتذة .

وللقارئ حق ..

فما خلت قط علاقة تلميذ بأستاذ من تلك «الشيطنة» ، ولم أكن أنا من أبطال «الشيطنة» المدرسية .. ولكننى كنت أستطيبها وأشجع عليها حين تقع فى موقعها ، ولا أطيل فى سرد النوادر فهى كثيرة تكفى هنا واحدة منها على سبيل المثال ..

كان معلم الخط فى مدرستنا من أبرع الخطاطين فى البلاد العربية ، ولكنه كان رجلا غريب الأطوار يهتاج لأقل خطأ فيشتم التلميذ المغضوب عليه شتمًا يناله هو قبل أن ينال التلميذ ، لأنه يبدأ كل شتيمة بقوله يا ابنى .. ثم يكيل الشتائم كيلاً فإذا هى كلها مردودة إليه .

وكان التلاميذ يهجونه لشتمهم وشتم نفسه على هذا النمط الغريب ، ومنهم تلميذ خبيث أعيى أساتذته وأهله خبثًا فى جميع سنوات الدراسة ، يملك أهله مطاحن بخارية توشك أن تحتكر طحن الغلال فى المدينة .

ولم يكن من الميسور طحن مقطف من القمح فى اليوم الذى يرسل فيه إلى المطحنة لأنها كانت تكتظ بالمقاطف وأصحابها فيبيتون إلى جوارها فى بعض الأيام ..

واغتنم معلم الخطوط فرصة وجود هذا التلميذ فى فصله ، فجعل يستدعيه إلى المنزل كل ظهر خميس ليحمل الطحين إلى مطحنة أهله ويعود به فى اليوم نفسه ..

وما أدراك ما يوم الخميس ؟ .. إنه هو اليوم الذى ينتظره التلميذ بنافذ الصبر ليسرح ويمرح ، لا ليخزن نفسه فى مطحنة تعج بأصوات الآلات وأصوات الطاحنين .

وصبر التلميذ الخبيث أسبوعًا وأسبوعين وثلاثة أسابيع ، ثم نفد صبره ، وعول على استنجاد خبثه .. وهو لا يخذله حيث يتخابث فى غير طائل ، فكيف بالخبث الذى ينقذه من هذا البلاء !

وجـملة القـول أنه عاب المـقطفـين بأبخس ثمن ، ولـم يذهب فى يومـهـا إلى المطحنة ولا رجع إلى بيت الأستاذ .

وقبل حصة الخط جمعنا وهو لا يملك نفسه ضحكًا ، فحدثنا بما حدث .. فدخلنا الفصل ونحن نتلهف شوقًا إلى ما يكون !

وكان التلاميذ يتعلمون الخط يومئذ فى كراسة مذهبة تسمى «المشق» ، وعلى رأس كل صفحة منها نموذج مطبوع ، تحته نموذج مفرغ بالنقط ، تحته فراغ لكتابة التلميذ ..

ولا أذكر ما هو النموذج الذى كان مكتوبًا فى رأس الصفحة فى ذلك اليوم .. ولكننى أذكر أنه كان مبدوءًا بحرف «ميم» .

وجاء دور التصحيح فذهب التلاميذ واحدًا بعد واحد إلى منصة الأستاذ فجعل لا يلتفت إليهم إلا قليلاً ، ولا يشتمهم على عادته فى كل تصحيح ، لأنه على ما يظهر كان يدخر «الشتيمة» كلها لتلميذ واحد ، هو ذلك التلميذ الخبيث .

- أهذه «ميم» تكتب يا ابنى يا ابن الـ ....

قالها قبل أن يضع التلميذ كراسته أمامه .. فنظر التلميذ الخبيث إلى أستاذه متجاهلا وهو يسأل : «أى ميم يا أفندى ؟ .. إننى لم أكتب ميمًا» .

وكانت الكراسة قد استوت أمام الشيخ فنظر فيها ، فرأى أن الخبيث قد تخطى الصفحة إلى التى بعدها عن عمد أو سهو ..

فلم يسكت الشيخ بل راح ينطلق فى شتمه لهذا السبب الجديد ، وقال له : «تتخطى الصفحة أيضًا يا ابنى يا ابن الـ ....» .

ثم ضحك على الرغم منه ..

فنجا بهذه الضحكة من العقاب ومن سخرة الطحين فى كل خميس ..

رحمهم اللّه جميعا ، وأطال بقاء الأحياء منهم ..

إنهم كانوا أساتذة نافعين : نافعين بما علمونا من دروس ، ونافعين بما علمونا من أطوار بنى آدم ، ونافعين بما قصدوه وما لم يقصدوه ..

٣ ... أشياء جعلتنى كاتباً ...

إننى أومن بكلمات التشجيع التى يتلقاها الناشئ فى مطلع حياته ممن يثق بهم ويعتز برأيهم فيمضى إلى وجهته على يقين من النجاح .

وأومن بالظروف وفعلها فى تمهيد أسباب النجاح وتيسير البدء فى طريقه ، ثم المثابرة عليه إلى غاياته القريبة والبعيدة .

وأومن بالرغبة فى الوجهة التى يتجه إليها الناشئ والعمل الذى يختاره ويحس من نفسه القدرة عليه والاستعداد له مع الاجتهاد والتذرع بالوسيلة الناجعة .

أومن بها مجتمعات ولا أومن بها متفرقات .

أومن بالتشجيع والظروف والرغبة تتلاقى معًا وتتوافق فى الخطوات الأولى .. ولا أومن بها متفرقة يتيسر بعضها ويتعذر سائرها فى مستهل الطريق .

فكلمات التشجيع إذا امتنعت الظروف المواتية قلما تفيد ، وكلمات التشجيع مع مؤاتاة الظروف تضيع كلها عبثًا إذا امتنعت الرغبة فى نفس الناشئ ودل امتناعها على نقص الاستعداد أو على الرغبة فى عمل آخر يضل عنه حتى يهتدى إليه ، وفى ظرف من الظروف .

واتجاهى إلى الصحافة - أو إلى الكتابة على الأصح - قد تلاقت فيه كلمات التشجيع مع مؤاتاة الظروف والرغبة الكامنة فى الطوية من أيام الطفولة ، ولا أقول من أيام الصبا أو الشباب ، لأننى قد عرفت أننى أحب الكتابة وأرغب فيها قبل العاشرة ، ولم أنقطع عن هذا الشعور بعد ذلك إلى أن علمت بها واتخذتها عملا دائمًا مدى الحياة .

كان أستاذنا فى اللغة العربية والتاريخ الشيخ فخر الدين محمد الدشناوى يعرض كراساتى التى أكتب فيها موضوعات الإنشاء على كبار الزوار لمدرسة أسوان ، وكان كبار الزوار لهذه المدرسة أكثر عددًا وأعظم شأنًا من كبار الزوار لمدارس القطر كله ، لأن أسوان كانت قبلة العظماء والكبراء من جميع الأرجاء فى موسم الشتاء .

واطلع الأستاذ الإمام «محمد عبده» على إحدى هذه الكراسات فقال : «ما أجدر هذا أن يكون كاتبًا بعد ! ..» .

فكانت هذه الكلمة أقوى ما سمعت من كلمات التشجيع ، ولكنها جاءت بعد سنوات فى القراءة ومحاولة الكتابة وإصدار الصحف التى تطبع على «البالوظة» .. ولا يقرؤها أحد غيرى وغير تلميذين أو ثلاثة من الزملاء ..

كان والدى رحمه اللّه من أنصار الحركة العرابية ، وتعلمت الأبجدية وكتابة الحروف الأولى وأنا أرى بين يدى أعداد مجلة «الأستاذ» وغيرها من مجلات عبداللّه نديم ، ومعها أعداد قليلة من «أبو نضارة» والعروة الوثقى ونشرات الثورة التى كانت توزع فى الخفاء .

وكنت أسمع على الدوام أخبارًا فى سير الكتاب الذى يصدرون هذه الصحف ولا سيما عبداللّه نديم .

فأصدرت يومًا صحيفة باسم «التلميذ» محاكاة لصحيفة «الأستاذ» ، وافتتحتها بمقال عنوانه ؛ «لو كنا مثلكم لما فعلنا فعلكم» معارضة لمقال النديم المشهور : «لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا» يعنى بها الأوربيين .

واقترنت بهذه الظروف رغبة ملحة فى القراءة والكتابة ، بل فى النظم والنثر المسجوع بعض الأحايين .

ولعل المرة الأولى التى عرفت فيها أننى أكتب ما يستحق التنويه بين الأقران قد عرضت لى من قبيل المصادفة وأنا فى السنة الثانية الابتدائية ، وكان مدرس الخط والكتابة عندنا الخطاط المشهور الشيخ مصطفى عاصم رحمه اللّه ، وهو والد زميلنا أحمد عاصم «بك» الذى أصبح بعد ذلك من رجال التربية المعدودين . .

طلب منا الشيخ مصطفى أن نكتب بالخط النسخ كلامًا من عندنا نصف به المدرسة التى نتعلم فيها ، ولم تكن دروس الإنشاء مقررة علينا فى تلك السنة ، ولكنه أراد أن يجعلها درسًا من دروس الخط بكتابة من عندنا غير كتابة «المشق» المرسوم .

ونسيت هذا الطلب لأنه «نافلة» لا يدخل فى باب المقررات ، فلما التقيت قبل دق الجرس بزملائى سألنى أحدهم : «هل كتبت ما طلبه مدرس الخط ؟ فتذكرت ذلك الطلب «النافلة» وبدا لى أن كتابته خير من إهماله ، وأخرجت كراسة التجارب فكتبت صفحة من صفحاتها فى هذا الموضوع .

وكان من المفاجآت لى وللزملاء الصغار - الذين علموا كيف كتبت ذلك الموضوع بعد تنبيههم إياى - أن المدرس لم يقرأ فى الفصل غير ذلك الموضوع! وغار الزملاء فقال بعضهم :

- إنه يا أفندى كان ناسيًا وذكرناه به فى اللحظة الأخيرة . .

وظنوا أنهم يهبطون بدرجة الإنشاء فى تقدير الشيخ ، فإذا هو يضاعف التقدير ويقول لهم :

- إن هذا أدل على الإجادة وحسن الاستعداد .

وبلغت السادسة عشرة وأنا أعمل فى وظيفة حكومية ، وكان علىّ أن أنتظر سنتين قبل التثبيت ، لأن الوظائف الدائمة لا تثبت قبل الثامنة عشرة!

فخطر لى ذات مرة أن أريح نفسى من الانتظار وأن أتوفر على إصدار صحيفة أسبوعية باسم «رجع الصدى» واتخذت مستشارى لهذا العمل «كتبيًّا» يحى الأزهر كنت أشترى منه الكتب الأدبية بأرخص الأثمان ، لأنها كانت مطبوعة - كلها - على الورق الأصفر ، وبعضها مرجوع يباع بنصف الثمن ، ولا يزيد ثمنه على بضعة قروش .

قال لى الكتبى الناصح :

إياك أن تفعلها وتترك خدمة «الميرى» من أجل الصناعة الملعونة !

ولم تمض ساعة حتى شهدت بعينى أنها فى الحق صناعة ملعونة كما قال ، أو كانت على الأقل ملعونة إلى ذلك الحين !

على مقربة من المكتبة مطبعة صغيرة تطبع فيها صحيفة أو اثنتان من الصحف الأسبوعية ، ويقف فيها «مدير الصحيفة» ينتظر الوكيل الذى أرسله إلى المشتركين للتحصيل وسداد حق المطبعة من محصول الاشتراكات .

وحضر الوكيل .

مخلوق أشعث أغبر ليس على بدنه كسوة من قطعة واحدة ، ولحيته مرسلة بغير قصد منه ، لأنها معلقة على قرش واحد يؤديه للحلاق ، ولا سبيل إليه .. وبادره المدير قائلا :- ماذا صنعت ؟ ..

فأخرج له إيصالا معادًا من أحد المشتركين ، وقال له :

- إن صاحب هذا الإيصال قد أنبأنى أنه سدد الاشتراك لك قبل الآن ، وعنده إيصال بالسداد .

قال المدير :

- وأين الإيصال الآخر ؟ ..

قال الوكيل :

- قطعه الرجل ورماه فى خلقتى ! ..

فانتهره المدير وهو يضربه ، وقال له :

- مستحيل ! .. إن هذا الرجل ممن يخافون من الكتابة عنهم خوف البرد ، ومسألة بنته أو أخته معروفة يخشى منها الفضيحة .. فلا تقل لى أنه قطع

الإيصال ورماه فى خلقتك الشريفة .. بل قل أنك قبضت الاشتراك وسكرت به كعادتك ..

وكانت بقية الفصل خناقة لا أدرى كيف انتهت ، لأننى لا أحب منظر «الخناق» .. فتركتها وأنا أردد قول الكتبى الناصح :

– إنها صناعة ملعونة وأيم الله !

* * *

بعد هذا كانت علاقتى بالصحافة علاقة الكتّاب من «منازلهم» ..

فكنت أكتب إلى «التجريدة» التى أشرف على تحريرها الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد ، وكتبت قبلها إلى صحيفة «الظاهر» التى كان يصدرها «أبوشادى» المحامى وإلى صحيفتى «المؤيد» و«اللواء» ونشر أول ما نشر لى من الشعر فى إحداها ، وأذكر أنه فى صحيفة «اللواء» .

وإننى لأقرأ الصحف ذات يوم إذا بالأستاذ «محمد فريد وجدى» يعلن عن صحيفة يومية ينوى أن يصدرها باسم الدستور ، ويطلب مخاطبته فى شئون الصحيفة ، ومنها شأن التحرير .

فتناولت ورقة فى المقهى التى كنت أجلس بها بحى شبرا ، وكتبت إليه خطابًا أرشح فيه نفسى للاشتغال بتحرير الدستور ، ولم يمض يومان حتى جاءنى الرد منه بالقبول ، فذهبت إليه حيث اختار مكتب الصحيفة الأول بدار مطبعة «الواعظ» لصاحبها الأستاذ محمود سلامة بدرب الجماميز ، وعدت لأستقيل من وظيفتى الحكومية وأبدأ حياتى الصحفية المنتظمة ، ولم أزل أعمل فى تحرير «الدستور» حتى اضطرت إلى التوقف عن الصدور .

وإننى لأحمد الله أن كانت بداية عملى المنتظم فى الصحافة مع رجل كالأستاذ وجدى رحمه الله قليل النظير فى نزاهته وصدقه وغيرته على المصلحة القومية واستعداده للتضحية بماله وراحته فى سبيل المبدأ الذى يرعاه ولا يتزحزح عنه قيد أنملة ، فقد عطل صحيفته وبين يديه عرض سخى من جماعة «تركيا الفتاة» التى أرادت أن تتخذ منها لسان حال لها فى مصر والشرق باللغة العربية ، وهذا غير العروض السخية التى تتوالت عليه من جانب «المعية الخديوية» .. فأقدم على تعطيل الصحيفة لكيلا يخالف عقيدة من عقائده السياسية مرضاة لهؤلاء أو هؤلاء وباع كتبه ليؤدى حساب العمال والصفافين والموظفين مليمًا بمليم .

أحسن الله ذكراه فى مثواه .

وأكثر الله بين الصحفيين من ينحو فى هذه الصناعة «المباركة» منحاه .

...هجرت وظائف الحكومة...

«الاستخدام رق القرن العشرين» .

كان هذا عنوانا كتبته فى «الجريدة» حوالى سنة ١٩٠٧ وأنا فى وظيفتى الحكومية ، وكنت يومئذ على أهبة «الاستعفاء» منها للاشتغال بالصحافة . .

ومن «السوابق» التى أغتبط بها وأحمد اللّه عليها أننى كنت - فيما أرجح - أول موظف مصرى استقال من وظيفة حكومية بمحض اختياره ، يوم كانت الاستقالة من الوظيفة والانتحار فى طبقة واحدة من الغرابة وخطل الرأى عند الأكثرين ، بل ربما كانت حوادث الاستقالة أندر من حوادث الانتحار . . ولو ظفرنا اليوم بإحصاء ثابت لحوادثهما معًا منذ بدأت عندنا الوظائف الحكومية إلى أوائل القرن العشرين لتحقق لنا أن الاستقالة من الوظيفة كانت أندر من الانتحار ، ولا يخرج هذا عن حيز المعقول ، لأن الوظيفة كانت معيشة وشرفًا ومزية اجتماعية ، ولأن عدد الموظفين الذين تسجل عنهم حوادث الاستقالة أقل من عدد الجمهرة الكبرى التى تسجل عنها حوادث الانتحار ، ولعلنا لو أخذنا فى العددين بالنسبة المئوية لما اختلفت دلالة الإحصاء .

كان الشرف كله يومئذ منوطا بالوظيفة الحكومية ، وكانت كلمة القائلين أن خدمة «الميرى» شرف مثلا سائرًا فى كل طبقة من طبقات الأمة ، ويضارعه فى الشيوق قول القائلين : «إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه» وهو القول القاطع الذى شاع وظل شائعًا إلى عهد قريب .

وليس فى الوظيفة الحكومية لذاتها معابة على أحد ، بل هى واجب يؤديه من يستطيع ، ولكنها إذا كانت باب المستقبل الوحيد أمام الشاب المتعلم فهذه هى المعابة على المجتمع بأسره ، وتزداد هذه المعابة حين تكون الوظيفة - كما كانت يومئذ عملا آليا لا نصيب فيه للموظف الصغير والكبير غير الطاعة وقول التسخير ، وأما المسخَّر المطاع فهو الحاكم الأجنبى الذى يستولى على أداة الحكم كلها ، ولا يدع فيها لأبناء البلاد عملا إلا كعمل المسامير والآلات فى تلك الأداة .

* * *

وأعود فأقول مرة أخرى إن نفورى من الوظيفة الحكومية فى مثل ذلك العهد الذى يقدسها كان من السوابق التى أغتبط بها وأحمد اللّه عليها . . فلا أنسى حتى اليوم أننى تلقيت خبر قبولى فى الوظيفة الأولى التى أكرهتنى الظروف على طلبها كأننى أتلقى خبر الحكم بالسجن أو الأسر والعبودية . . إذ كنت أومن كل الإيمان بأن الموظف رقيق القرن العشرين .

وقد اشتغلت بوظائف كثيرة فى المديريات ومصلحة التلغراف ومصلحة السكة الحديد وديوان الأوقاف ، ويلحق بها – أى بهذه الوظائف – عملى فى تعلية الخزان ، لأنه كان بمثابة الوظيفة الحكومية فى ذلك الحين .

وأذكر أننى تقدمت للامتحان فى «نظارة الحقانية» يوم كان الكاتب المشهور فى زمنه «أحمد سمير» رئيسًا من الرؤساء الكتابيين فيها ، وكان موضوع الامتحان حسابًا وترجمة وإنشاء عربيًا ، سئلنا فيه أن نكتب تاريخ حياتنا فكتبت تاريخ حياتى فى الوظائف الحكومية قبلها ، ومهدت له بمقدمة عن الوظائف وما ينبغى لها من الإصلاح ، ونظر الأستاذ أحمد سمير فى ورق الإنشاء أمامنا فقال : «يظهر أن خوجة هذا الطالب كان من المجاورين الحناشيص فى اللغة العربية» . . ثم أتم القراءة فقال لى بعد أن دعيت باسمى : «ومن لنا بأنك تبقى عند غيرنا أكثر مما بقيت عند غيرنا . . أنت يا بنى تريد إصلاح الوظائف كلها ، ونحن مش قدك ، واللّه العظيم !» .

فقلت له : «والآن تستطيع أن تعتبر ورقة الطلب وورقة استعفاء ، مادامت هذه طريقتكم فى الامتحان » .

* * *

ولو أننى أردت أن أسجل تجاربى فى تلك الوظائف جميعًا لما وسعتى المقالات فإنها تستوفيه الكتب المطولات .

ولكننى أذكر هنا تجربة أو اثنتين من مهازلها ومآسيها ويقاس عليها غيرها من هذا الباب ، وغير هذا الباب . .

كانت الرسائل تسمى يومئذ «بالإفادات» . .

وكانت «للإفادة» صيغة مقررة مكررة لا تختلف من الديباجة إلى التقفيلة كما كانوا يسمونها ، وكان من نماذجها ترتيب الألقاب من «حميتلو» إلى «رفعتلو» إلى «سعادتلو» إلى «عطوفتلو» بين ملاحظ البوليس وناظر المالية الذى كنا تابعين له فى أقسامنا المالية بالمديريات . .

فإذا قلت «صاحب الحميـة ، أو صاحب العطوفة» بدلا من «حميتلو» أو «عطوفتلو» بطلت الإفادة ووجبت إعادتها من جديد .

وكذلك تبطل الإفادة إذا ختمتها بعبارة غير عبارة التقفيلة المعهودة «وهذا ما لزم عرفناكم به أفندم» .

وتتخلل الإفادة قوالب تعبيرية «أو كليشيهات» على هذا المثال لا يجوز فيها التبديل ولا التقديم ولا التأخير .

وأكتب عشرين أو ثلاثين إفادة دفعة واحدة فإذا هى تعاد إلىّ «للتصحيحها وكتابتها مرة أخرى بالأسلوب المعهود» .

* * *

ويتكرر هذا مرة بعد مرة ولا متسع من الوقت لكتابة الإفادات جميعًا فضلا عن كتابتها وتغييرها بلا سبب غير هذا الجمود على الأسلوب العتيق .

ويتفق يومًا أن أدخل على «الباشكاتب» بالإفادات المشطوبة فأجده منفردًا فى المكتب ، وتزين لى «شقاوة» التلمذة أن أعبث بالرجل عبثًا لم يكن يخطر له على بال ، ويخاصة هذا الباشكاتب الذى اشتهر فى مديريات القطر بالحزم والمهابة والدراية بأصول الإدارة وأساليب المكاتيب .

قلت له فى كل بساطة : «يا أيها الحمار الأزعر . . أمثلك يصحح الكتابة العربية وأنت لا تعرف منها غير الهجاء وكتابة (العرضحالات) !؟» .

ولم يصدق الرجل أذنيه . وظن أنه أمام مجنون لا يؤمن أن يبطش به ويعتدى على حياته ، فقفز من كرسيه إلى خارج الحجرة ينادى الفراشين والموظفين المساعدين ، ثم ذهب إلى مكتب وكيل المديرية يشكونى إليه ، لأن المدير - محمد محب باشا - كان غائبًا عن البلد ، وينوب عنه «محمد خليل نائل بك» الذى كان معروفًا فى ذلك الوقت بأنه رجل «رياضى» بحبوح قبل أن تشيع كلمة الـ «سبور» .

ويدعونى الوكيل فأقول له مقسمًا أننى ما خاطبت الرجل إلا بما يستحقه من الاحترام . ويبتسم الوكيل الظريف ، ثم يقول للبك الباشكاتب :

- دعه لى . . فإننى سأنظر فى أمره «بما يستحقه» .

وما كاد الباشكاتب يولى قفاه حتى ضحك الوكيل وكاد أن يقهقه ، ثم اصطنع العبوس وهو يقول :

- اسمع يا بنى .. شغل الحواة فى المدارس لا ينفع هنا فى الوظائف ، ولو ثبت عليك أنك تطاولت على حضرة الباشكاتب لكان جزاؤك الفصل العاجل ، فلا تعد إليهامرة ثانية .

وقد علمت بعد ذلك أن الباشكاتب قد استكبر على مهابته المشهورة أن يذاع عنه أن موظفًا صغيرًا قال له : «ياحمار» .. فلم يذكر للوكيل إلا بعض ما قيل !

وتجربة أخرى فى هذا الديوان نفسه أننا كنا نعمل بقسم المكلفات أى تدوين الملكيات الزراعية أيام فك الزمام ، وليس أكثر من هذه الأيام من العقود الواردة من المحاكم ومن الأقاليم فلا طاقة للموظف بإنجاز العمل مرة واحدة فضلا عن إنجازه مرتين .

وأقرر .. نعم أقرر ، وأقولها الآن وأنا أضحك كما يضحك القارئ وهو يتصفحها .. أقرر عددًا من العقود أنجزه كل يوم ولا أزيد عليه ولو تراكمت الأوراق على المكتب كالتلال .

ومن هذه العقود عقد أذكره تمامًا .. أنه كان لأمين الشمسى باشا والد السيد على الشمسى الوزير السابق المعروف ، مضت عليه أشهر وهو بانتظار التنفيذ فى الموعد الذى قررته لنفسى وجاء الباشا يسأل عنه فرأيته لأول مرة ، ورأيته لا يغضب ولا يلوم حين تبينت له الأعذار التى استوجبت ذلك القرار .

* * *

وإذا كان هذا قليلا من كثير من تجاربى فى وظائفى الحكومية فلا أحسب القارئ المعاصر يعجب لاستقالتى منها واحدة بعد واحدة ..

غير أننى أقول اليوم كما أقول كلما ذكرت أمثال هذه التجارب ..

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ (١) .

وهكذا مرت بى تجارب الوظائف على خير لا شك فيه ، فلولا اشتغالى بالمديريات بين قنا ، والزقازيق ، والفيوم ، ولولا تنقلى فيها بين أعمال تتصل بالملكيات الزراعية ، وأخرى تتصل بمساوئ الأوقاف وغيرها بالمواصلات ومشروعات الأبنية والمقاولات ، لفاتنى كثير ، بل كثير جدا ، من العلم بحقائق بلدى ومواطن الإصلاح فيه .

ولو اطلعتم على ما فى الغيب لاخترتم الواقع .

ولعلى لم أكن أختار هذه الوظائف بعينها ، ولكننى أختار أن أعرف ما عرفت من حقائق وطنى بالثمن الذى «تستحقه» .. وهى تستحق الكثير .

(١) البقرة : (٢١٦)

قلمي..

من ذكريات المدرسة التى أستعيدها الآن لمناسبتها ، حادث شجار عنيف بين تلميذين على قلمين من أقلام الكتابة العربية ، يدّعى كلاهما أن أحد القلمين قلمه ، ويرد الآخر إلى صاحبه .

أكان النزاع على القلم المطلوب من أجل قيمته الغالية ؟ . .

كلا . . فإن قيمة القلمين معًا لم تكن تزيد عن ثلاثة مليمات أو أربعة ، لأنهما من أقلام البوص التى كانت توجد يومئذ فى جميع الأسواق .

فلم يكن النزاع بين الزميلين لغلو الثمن ، وإنما كان لنفاسة أخرى غير نفاسة المال ، وهى أن القلم الذى تنازعا عليه كان من الأقلام التى براها الأستاذ وقطعها بيديه ، فهو صالح لتجويد الخط ، وضمان بعض الدرجات فى الامتحان!

كان ذلك يوم كان القلم ثمرة من ثمرات الطبيعة ، وكان لكل قلم شخصية ممتازة بما يكتبه من نوع الخط ، ثلثًا كان ، أو نسخًا ، أو رقعة ، أو حرفًا من الحروف الديوانية أو الفارسية . . ويوم كانت لكل قلم شخصية ممتازة يستمدها ممن براه ، وقطّه ، وهيّأه للكتابة ، وقلّما يحسن ذلك غير أستاذ خبير بالأقلام ، وبما تخطّه الأقلام .

كان ذلك التقريب شأن كل قلم فى المدرسة ، وفى غير المدرسة ، فكان قلم البوص هو القلم المعتمد بين التلاميذ ، وبين الموظفين ، وبين الكتبة فى كل مكان .

أما اليوم فلا «شخصية» للأقلام ، لأنها جميعًا من صنع «الفابريكة» ، التى تخرج مصنوعاتها بالألوف ، وعشرات الألوف !

إنها «نمر» مرصوصة فى صناديق ، وكل قلم فيها ككل بلا اختلاف فى غير علامة «الفابريكة» أو قدم القلم وجدته . . وفيما عدا ذلك فالأقلام جميعًا سواء !

* * *

وكنت فى المدرسة من المعدودين بين المتقدمين فى الخط ، فلم تكن درجتى فيه تقل عن الدرجة العليا بأكثر من درجتين أو ثلاث .

ولكننى لم أكن من المتقدمين فى صناعة البرى ، والقط ، وتنويعها على حسب الحروف والخطوط . . وكنت أعوّل فى هذه الصناعة على الأستاذ ،

وأحتفظ بأقلامه طوال العام ، فلما تركت المدرسة لبثت برهة أنتفع بأقلامى المدرسية ، ثم عدلت عنها مضطرا إلى الريشة المعدنية ، ولم أزل أكتب بها فى الدواوين ، حتى اشتغلت بالصحافة ، ووجدت الكلفة فى الاستملاء ، وحمل الدواة إلى كل جهة أذهب إليها وأحتاج إلى الكتابة فيها . .

ولم يكن من اليسير أن أحصل على قلم «مداد» ، أو قلم «أمريكانى» كما كان يسمى فى تلك الأيام ، فلجأت إلى استخدام القلم الرصاص .

واتعبنى القلم الرصاص لأنه ينقصف ، ويؤلم الأصابع بضغطه ، ويترك فيها مثل علامة السجدة فى جباه المصلين ، ولكنها علامة لا تنفع أصحابها كما تنفع علامة السجدة من ينتفعون بها فى سوق الرياء !

فما هو إلا أن تيسّر لى ثمن القلم المداد ، أو القلم «الأمريكانى» ، حتى استبدلته بأقلام الرصاص ، ومازلت أكتب به إلى اليوم .

واتفق أننى عملت فى عدة صحف صباحية على التوالى ، فظهر لى أن المداد الأحمر «أريح» للنظر فى ضياء الليل ، فهو المداد الذى استعملته إلى عهد قريب . .

هل احتفظت بقلم من أقلامى هذه أو غيرها لمناسبة خاصة تهمنى ذكراها؟ . .

نعم . . احتفظت بأقلام ثلاثة ، كان لاحتفاظى بكل منها سبب وتاريخ ، وكان كل منها باينًا لصاحبيه فى سببه وتاريخه . .

قلم منها احتفظت به لأنه كان هدية من إنسان أعزه ، وكان قد كتب به قصيدة من شعرى فى وصف ليلة على النيل ، ثم أهدى إلى القلم ، والصحيفة المكتوبة بخطه .

وقلم ثالث كتبت به الفصول الأولى من كتابى عن «ابن الرومى» ، ثم أدركنى وأدركه شؤم الرجل ، وسوء طالعه ، فدخلت السجن ، ودخله معى حيث قضى فيه تسعة أشهر ، ولكن فى مخزن الأمانات !

وقلم آخر أخرجته لخصم من خصومى السياسيين ، وأقسمت له لتسقطن الوزارة النسيمية قبل أن ينبرى هذا القلم .. وقد كان من أجود الأقلام المعروفة «بالكوبية» أهديت بصندوق من نوعه ، فجعلت أراوح فى الكتابة العجلى بينه وبين القلم المداد .

أين هذه الأقلام الآن ؟ هل هى محفوظة كما احتفظت بها فى أوانها ؟

كلا . . مع الأسف ، فليس عندى منها اليوم قلم واحد ، لأنها ضاعت بسبب وتاريخ ، كما كان لها فى الاحتفاظ بها سبب وتاريخ .

القلم الذى أهداه إلىّ إنسان عزيز عاد بعد فترة من الوقت ، فأصبح فى حياتى غصة لاتطاق .

فحملته ذات ليلة ، وحملت معه الصحيفة التى كتبتها بيد ذلك الإنسان العزيز ، ووهبته للنيل فى الموضع الذى وصفته بذلك القصيد !

والقلم الذى صاحبنى فى السجن ، أفرجت عنه ، وأصررت على أن أتم به الكتاب الذى شرع معى فى تأليفه .

ثم أدركه نحس «ابن الرومى» مرة أخرى ، فامتدت إليه يد سارق لا بد أنه حبس بعد ذلك . . ! إذا جرى «ابن الرومى» على عاداته ، سامحه اللّه !

فإننى على ما أظن قد عثرت بالقلم عينه ، وإن خطر لى فى ذلك الحين - ولا يزال يخطر لى ساعة - أنه شبيه به مشابهة الزميلين فى صنعة واحدة . .

ولقد رثيت القلم المسروق بقصيدة أقول فى مطلعها :

زاملنى فى السِّجْنِ ذاك القَلَمْ ... ونَالَه ما نالَنى مِنْ قَسَمْ

ومنها أقول :

أما وقد فارقْتَنَا يا قلم ... وصَالَحَ اليَأْسُ عَليكَ الأَلَمْ
فَخَيْرُ ما أرجوه أَلا تُرَى ... فى كفِّ خَوَّانٍ ولا مُتَّهَمْ
ولا تَخُطُّ الجَهْلَ فى صَفْحَةٍ ... أَبْيَضُ ما فيها سَوَادُ الحُمَمْ
ولا تكُنْ يا قلمى آلَةً ... تَشْتُمنى باللَّغْوِ فيمَنْ شَتَمْ
بَدَأْتَ فى الأَوْجِ فلا تنحدرِ ... إلى حَضِيضِ الذُّلِّ فى المُخْتَتَمْ

ثم عثرتُ بقلم «مرجوع» من لونه ، ونقشته ، وعلامته فاشتريته وقلت فيه :

شبيه القَلَمِ المفقو ... دِ فى لَوْنٍ وفى حَجْمِ
وفى البائع والشا ... رى وفى الصَّنعةِ والرَّسمِ
سَتُغْنِينِى إذا استغنيـ ... ـتُ بعد الروح بالجِسمِ
أو استغنى بتمثال ... فؤادُ الأب والأمِّ

ولكننى أعطيته لمن طلبه فى الإسكندرية ، وذهب به إلى الشاطئ ، فضاع ! . .

أما القلم الذى راهنت به على الوزارة النسيمية ، فقد احتفظت به زمنًا بعد سقوط تلك الوزارة ، ثم التبس علىَّ بفضلات من أقلام أخرى تشبهه ، فلم أشأ أن أحتفظ بنسخ متعددة لا أدرى أيها الجدير بالاحتفاظ ، وتركته مع شبيهاته لما يصيبه من صروف الأقدار .

وقيل لى كثيرًا : «احتفظ بهذا القلم أو ذاك لأنك كتبت به هذا الكتاب أو ذاك» . . فلم أجد معنى للاحتفاظ بقلم تغنى عنه فى عملى ، وفى نظرى أقلام .

.. لماذا هويت القراءة؟ ..

أول ما يخطر على البال - حين يوجه هذا السؤال إلى أحد مشتغل بالكتابة - أنه سيقول : إننى أهوى القراءة لأننى أهوى الكتابة ! .

ولكن الواقع أن الذى يقرأ ليكتب وكفى هو «موصل رسائل» ليس إلا .. أو هو كاتب «بالتبعية» وليس كاتبًا بالأصالة . فلو لم يسبقه كتاب آخرون لما كان كاتبًا على الإطلاق ، ولو لم يكن أحد قبله قد قال شيئًا لما كان عنده شيء يقوله للقراء .

وأنا أعلم فيما أعهده من تجاربى أننى قد أقرأ كتبًا كثيرة لا أقصد الكتابة فى موضوعاتها على الإطلاق ، وأذكر من ذلك أن أديبًا زارنى فوجد على مكتبى بعض المجلدات فى غرائز الحشرات ، فقال مستغربًا ، ومالك أنت والحشرات؟ .. إنك تكتب فى الأدب وما إليه ، فأية علاقة للحشرات بالشعر والنقد والاجتماع ؟

ولو شئت لأطلت فى جوابه .. ولكننى أردت أن أقتضب الكلام بفكاهة تبدو كأنها جواب وليس فيها جواب ..

فقلت : نسيت أننى أكتب أيضًا فى السياسة !

قال : نعم نسيت والحق معك ! .. فما يستغنى عن العلم بطبائع الحشرات رجل يكتب عن السياسة والسياسيين فى هذه الأيام !

والحقيقة كما قلت مرارًا أن الأحياء الدنيا هى «مسودات» الخلق التى تتراءى فيها نيات الخالق كما تتراءى فى النسخة المنقحة ، وقد تظهر من «المسودة» أكثر مما تظهر بعد التنقيح . فإذا اطلع القارئ على كتاب فى الحشرات ، فليس من اللازم اللازب أن يطلع عليه ليكتب فى موضوعه ، ولكنه يطلع عليه لينفذ إلى بواطن الطبائع وأصولها الأولى ، ويعرف من ثم كيف نشأ هذا الإحساس أو ذاك الإحساس ، فيقترب بذلك من صدق الحس وصدق التعبير ، ولو فى غير هذا الموضوع .

كذلك لا أحب أن أجيب عن السؤال كما أجاب قارئ التاريخ فى البيت المشهور :

ومَنْ وَعَى التاريخَ فى صدرِه   أضاف أعمارًا إلى عُمْرِه

فليست إضافة أعمار إلى العمر بالشيء المهم إلا على اعتبار واحد ، وهو أن يكون العمر المضاف مقدارًا من الحياة لا مقدارًا من السنين ، أو مقدارًا من مادة الحس والفكر والخيال ، لا مقدارًا من أخبار الوقائع وعدد السنين التى وقعت

فيها . فإن ساعة من الحس والفكر والخيال تساوى مئة سنة أو مئات من السنين ، ليس فيها إلا أنها شريط تسجيل لطائفة من الأخبار وطائفة من الأرقام .

كلا . . لست أهوى القراءة لأكتب ، ولا أهوى القراءة لأزداد عمرًا فى تقدير الحساب . .

وإنما أهوى القراءة لأن عندى حياة واحدة فى هذه الدنيا ، وحياة واحدة لا تكفينى ، ولا تحرك كل ما فى ضميرى من بواعث الحركة .

والقراءة دون غيرها هى التى تعطينى أكثر من حياة واحدة فى مدى عمر الإنسان الواحد ، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق ، وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب . .

فكرتك أنت فكرة واحدة . .

شعورك أنت شعور واحد . .

خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك . .

ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى ، أو لاقيت بشعورك شعور آخر ، أو لاقيت بخيالك خيال غيرك . . فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين أو أن الشعور يصبح شعورين ، أو أن الخيال يصبح خيالين . . .

كلا . . وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقى مئات من الفكر فى القوة والعمق والامتداد .

والمثل على ذلك ، محسوس فى عالم الحس والمشاهدة ، ومحسوس فى عالم العطف والشعور .

ففى عالم المشاهدة يجلس المرء بين مرآتين فلا يرى إنسانًا واحدًا أو إنسانين اثنين ، ولكنه يرى عشرات متلاحقين فى نظره إلى غاية ما يبلغه النظر فى كل اتجاه .

وفى عالم العطف والشعور نبحث عن أقوى عاطفة تحتويها نفس الإنسان فإذا هى عاطفة الحب المتبادل بين قلبين . . لماذا ؟ لأنهما لا يحسان بالشىء الواحد كما يحس به سائر الناس . .

لا يحسان به شيئًا ولا شيئين ، وإنما يحسان به أضعافًا مضاعفة لا تزال تتجاوب وتنمو مع التجاوب إلى غاية ما تتسع له نفوس الأحياء .

وهكذا يصنع التقاء مرآتين ، وهكذا يصنع التقاء قلبين . . فكيف بالتقاء العشرات من المرائى النفسية فى نطاق واحد ؟

وكيف بالتقاء العشرات من الضمائر والأفكار ؟

إن الفكرة الواحدة جدول منفصل .

أما الأفكار المتلاقية فهى المحيط الذى تتجمع فيه الجداول جميعًا ، والفرق بينهما وبين الفكرة المنفصلة كالفرق بين الأفق الواسع والتيار الجارف ، وبين الشط الضيق والموج المحصور .

وقد تختلف الموضوعات ظاهرًا أو على حسب العناوين المصطلح عليها ، ولكنك إذا رددتها إلى هذا الأصل كان أبعد الموضوعات كأقرب الموضوعات من وراء العناوين .

أين غرائز الحشرات مثلا من فلسفة الأديان ؟

وأين فلسفة الأديان من قصيدة غزل وقصيدة هجاء ؟

وأين هذه القصيدة أو تلك من تاريخ نهضة أو ثورة ؟

وأين ترجمة فرد من تاريخ أمة ؟

ظاهر الأمر أنها موضوعات تفترق فيما بينها افتراق الشرق من الغرب والشمال من الجنوب وحقيقة الأمر أنها كلها مادة حياة ، وكلها جداول تنبثق من ينبوع واحد وتعود إليه .

غرائز الحشرات بحث فى أوائل الحياة .

وفلسفة الأديان بحث فى الحياة الخالدة الأبدية .

وقصيدة الغزل أو قصيدة الهجاء قبسان من حياة إنسان فى حالى الحب والنقمة .

ونهضة الأمم أو ثورتها هما جَيشان الحياة فى نفوس الملايين ، وسيرة الفرد العظيم معرض لحياة إنسان ممتاز بين سائر الناس .

وكلها أمواج تتلاقى فى بحر واحد ، وتخرج بنا من الجداول إلى المحيط الكبير . .

ولم أكن أعرف حين هويت القراءة أننى أبحث عن هذا كله ، أو أن هذه الهواية تصدر من هذه الرغبة .

ولكننى هويتها ونظرت فى موضوعات ما أقرأ فلم أجد بينها من صلة غير هذه الصلة الجامعة ، وهى التى تتقارب بها القراءة عن فراشة ، والقراءة عن المعرى وشكسبير .

لا أحب الكتب لأننى زاهد فى الحياة .

ولكننى أحب الكتب لأن حياةً واحدة لا تكفينى . . ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة ، ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد ، ومهما يتنقل فى البلاد فإنه لا يستطيع أن يحل فى مكانين ، ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات فى عمر واحد ، ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل ، وتتضاعف الصورة بين مرآتين .

هذا موضوع جليل ، ولكن هلى تعرف أننى أفضل قراءة كتب فلسفة الدين ، وكتب التاريخ الطبيعى ، وتراجم العظماء ، وكتب الشعر ؟

إننى أقرأ هذه الكتب وأعتقد أن العلاقة بينهما متينة ، وإن كانت تفترق فى الظاهر ، لأنها ترجع إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان . . فكتب فلسفة الدين تبين إلى أى حد تمتد الحياة قبل الولادة وبعد الموت . وكتب التاريخ الطبيعى تبحث فى أشكال الحياة المختلفة وأنواعها المتعددة ، وتراجم العظماء ، معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة ، والشعر هو ترجمان العواطف ، فإننى أفضل من الكتب كل ما له مساس بسر الحياة .

* * *

وتسألنى ما هو سر الحياة ، فأقول على الإجمال إننى أعتقد أن الحياة أعم من الكون ، وأن ما يرى جامدًا من هذه الأكوان أو مجردًا من الحياة إن هو فى نظرى إلا أداة لإظهار الحياة فى لون من الألوان أو قوة من القوى . . والحياة شىء دائم أبدى أزلى ، لا بداية له ولا نهاية . .

فإذا كنت تستطيع أن تعرف سر اللّه عرفت سر الحياة ، ولكننا مطالبون بأن نحفظ لأنفسنا فى هذا المحيط الذى لا نهاية له أوسع دائرة يمتد إليها شعورنا وإدراكنا . والكتب هى وسائل الوصول إلى هذه الغاية ، وهى النوافذ التى تطل على حقائق الحياة ، ولا تغنى النوافذ عن النظر .

ومن جهة أخرى فإن الكتب طعام الفكر ، وتوجد أطعمة لكل فكر كما توجد أطعمة لكل بنية ، ومن مزايا البنية القوية أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام وكذلك الإدراك القوى يستطيع أن يجد غذاء فكريا فى كل موضوع . وعندى أن التحديد فى اختيار الكتب إنما هو كالتحديد فى اختيار الطعام . وكلاهما لا يكون إلا لطفل فى هذا الباب أو مريض ، فاقرأ ما تشتهى تستفد إذا كان لك فكر قادر أو معدة عقلية تستطيع أن تهضم ما يلقى فيها من الموضوعات وإلا فاجعل القابلية حكمًا لك فيما تختار لأن الجسم فى الغالب يغذيه ما نشتهيه .

ولا تغنى الكتب عن تجارب الحيـاة ، ولا تغنى التجارب عن الكتب ، لأننا نحتاج إلى قسط من التجربة لكى نفهم حق الفهم ، أما أن التجارب لا تغنى عن الكتب ، فـذلك لأن الكتب هى تجارب آلاف من السنين فى مختلف الأمم والعصور ولا يمكن أن تبلغ تجربة الفرد الواحد أكثر من عشرات السنين .

ولا أظن أن هناك كتبًا مكررة لأخرى ، لأنى أعتقد أن الفكرة الواحدة إذا تناولها ألف كتاب أصبحت ألف فكرة ، ولم تعد فكرة واحدة . . ولهذا أتعمد أن أقرأ فى الموضوع الواحد أقوال كتاب عديدين ، وأشعر أن هذا أمتع وأنفع من قراءة الموضوعات المتعددة . فمثلا أقرأ فى حياة نابليون أكثر من أقوال ثلاثين كاتبًا وأنا واثق من أن كل نابليون من هؤلاء هو غير نابليون الذى وصف فى كتب الآخرين .

أما تأثير كل من أنواع الكتب الثلاثة : العلمية ، والأدبية ، والفلسفية فهو أن الكتب العلمية تعلمنا الضبط والدقة ، وتفيدنا المعارف المحدودة التى يشترك فيها جميع الناس ، والكتب الأدبية توسع دائرة العطف والشعور ، وتكشف لنا عن الحياة والجمال ، والكتب الفلسفية تنبه البصيرة وملكة الاستقصاء وتتعدى بالقارئ من المعلوم إلى المجهول ، وتنتقل به من الفروع إلى الأصول .

وكل من هذه الأنواع لازم لتثقيف الإنسان ، . وتعريفه جوانب هذا العالم الذى يعيش فيه . وأنا أفضلها على هذا الترتيب : الأدبية ، فالفلسفية ، فالعلمية .

ولا يستطيع القارئ أن يحصر مقدار الفائدة التى يجنيها من كتاب ، فرب كتاب يجتهد فى قراءته كل الاجتهاد ، ثم لا يخرج منها بطائل ، ورب كتاب يتصفحه تصفحًا ، ثم يترك فى نفسه أثرًا عميقًا فى كل رأى من آرائه ، وكل اتجاه من اتجاهات ذهنه ، فأنت لا تعرف حق المعرفة «الطريقة» التى تضمن الفائدة التامة من قراءة الكتب ، ولكن لعل أفضل ما يشار به - على الإجمال - هو ألا تكره نفسك على القراءة ، وأن تدع الكتاب فى اللحظة التى تشعر فيها بالفتور والاستثقال .

أما مقياس الكتاب المفيد فإنك تتبينه من كل ما يزيد معرفتك وقوتك على الإدراك والعمل وتذوق الحياة ، فإذا وجدت ذلك فى كتاب ما ، كان جديرًا بالعناية والتقدير ، فإننا لا نعرف إلا لنعمل أو لنشعر ، أما المعرفة التى لا عمل وراءها ولا شعور فيها فخير منها عدمها وعلى هذا المقياس تستطيع أن تفرق بين ما يصلح للثقافة والتهذيب وما لا يصلح .

منهجى فى كتابة المقالات

أكتب أكثر المقالات الصحفية للمجلات الأدبية باقتراح من الزملاء المشرفين على تحريرها ، وأرحب بهذه الطريقة كل الترحيب لأننى عرفت بالتجربة الطويلة أن محرر المجلة أولى باقتراح موضوعاتها ، وأقدر على اختيارها واجتناب التكرار فيها ، إذ هو أعرف بمنهج صحيفته وأذواق قرائه وبرنامج الأعداد التى تصدر منها مبوبة ، أو مرتبة على حسب مواعيدها .. فهو يعفى الكاتب من مؤنة البحث عن موضوع يوافق هذه المطالب ويجهله أكثر الأحيان أو لا يعلم بتفصيلاته علم صاحب الدار .

فاقتراح موضوع المقال من قبل المجلة ييسر لمحررها أن يلاحظ مطالبها ، ويعفى الكاتب من البحث عنها ، وليس فيها مشقة على الكاتب فى استجابة الاقتراح كائنًا ما كان .. لأنى ، من وجهة نظرى ، لا أرى عنوانًا من العناوين غير صالح للكتابة فيه ، ولو على سبيل الاستطراد وإبداء وجهة النظر فى قلة صلاحه أو قلة جدوى الكتابة فيه ، إن رأى الكاتب أنها لا تجدى فى حالة من الحالات ، أو فى جميع الحالات .

أما المقالات الصحفية التى كتبتها فى صحف يومية توليت تحريرها فقد كانت الصعوبة الكبرى فى تقديم موضوع منها على موضوع ، أو فى تأجيل بعضها إلى ما بعد يومه ومناسبته ، لأننا تولينا العمل الصحفى فى إبان الحركة الوطنية قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها ، فلم يخل يوم من أيام كتابتنا الصحفية من خبر خارجى أو داخلى ، يستدعى المبادرة بالتعقيب عليه ، ولم تزل أعمال الإصلاح التى يشتغل بها ولاة الأمور ويدعو إليها المصلحون الوطنيون سيلا متدفقًا بالآراء والنصائح والمشروعات والبرامج على اختلاف المذاهب والنيات ، بين أنصار الدعوة من جانب وبين معارضيها من جانب واحد أو جوانب شتى ، وكثيرًا ما كانت الصحف اليومية تصدر فى وقت واحد من النهار وفيها ما يستلزم الرد عليه قبل فوات يومه ، وقد تصدر بعض الصحف صباحًا ويتبعه الرد على ما فيه مع طبعات المساء .. فقد كانت الصعوبة - كما تقدم - أن نؤجل موضوعًا منها أو نجمع ما بينها فى وقت واحد . وقد يكون الجمع بين الموضوعين أيسر الأمرين ، فينشر أحدهما بتوقيع صريح وينشر المقالين معًا لسبب من الأسباب الفنية .

* * *

ولم تكن المقالات الأدبية أقل فى موضوعاتها وازدحام مناسباتها من مقالات السياسة فى الصحافة اليومية وملاحقها الأسبوعية ، فقد كان الأسبوع لا ينقضى

على غير كتاب ينقد ، أوقصيد يتبع بالتعليق عليه ، أو خبر عن أديب مشهور فى الثقافة الغربية يستحق الكتابة عن سيرته أو ذكراه ، أو مناقشة مذهبه أو مذهب مدرسته في مسائل الفن والفكر وما إليها . وقد يتسع المجال كل وقت لكتابة المقالات المتتابعة عن موضوع من موضوعات الأدب التى تتجدد مناسباتها ولا تحتاج إلى مناسبة خاصة لإعادة البحث فيها . ومن هذا القبيل مقالات الشعر والقصص والمبادئ الفكرية ، وهى حاضرة فى أذهان قرائها وعلى أقلام كتابها لا يستغرب ابتداؤها والعودة إليها فى سنة من السنين ولا فى موعد من مواعيد الصحف والمجلات ، ما لم يكن هناك موضوع يشغل الأذهان لمناسبة عاجلة تميزه بالتقديم ، فهو فى هذه الحالة يختار نفسه للكتابة فيه ولا يلقى على الكاتب مؤنة الاختيار .

* * *

هذا هو الغالب فى أسباب اختيارى لموضوعات المقالات والفصول ، ولكن اختيار موضوعات الكتب يجرى على غير هذه الطريقة فى أهم موضوعات التأليف عندى ، وهو موضوع التراجم والسير التاريخية أو الأدبية .

فالقاعدة فى اختيار ترجمة ما للكتابة فيها أن تكون لازمة لإبراز حق ضائع أو حقيقة مجهولة ، وتستوى فى ذلك سير العظماء والنوابغ من كل طراز وفى كل طبقة من طبقات العظمة والنبوغ .

فالحافز الأكبر على تأليف كتابى عن «ابن الرومى» أنه مجهول القدر مبخوس الحق يصطلح على بخسه والنزول به عن قدره جهل النقاد وظلم الأغراض والأهواء ، ورأيى فيه أنه أعظم شعراء العالم بلا استثناء فى ملكة الوصف التصويرى والعاطفة الممثلة في قالب الحس والخيال ، ولكن نقادنا يذكرونه ويحسبون أنهم يتعطفون عليه إذا ألحقوه بشاعر كالبحترى أو ابن المعتز على غير مساواة ، وهما بالقياس إليه كمن ينطق بحروف الهجاء فى مجالس البلغاء .

ولقد كان إنصافه - مما أصابته به خرافة الجهل وخرافة الشؤم - حافزًا يوشك أن يكون من حوافز الغيرة الدينية إلى جانب لذته الأدبية ، وفضلت البدء به على البدء فى تأليف غيره فى موضوع النقد وتواريخ الآداب . .

ولا يقال عن عظمة النبى عليه الصلاة والسلام أنه بحاجة إلى إنصاف أحد ، أو دفاع فى وجه ناقد ناقم يفترى عليه ، لأنها عظمة القداسة التى تعلو على إنصاف المنصفين وافتراء المفترين . ولكننى كتبت «عبقرية محمد» للقارئ «الإنسان» الذى تضطره مقاييس الإنسانية العليا إلى تعظيم نبى الإسلام ولو لم يكن على دين المسلمين ، وتوخيت فى بيان خلائقه وأعماله أن تسقط عذر الخلاف فى الدين

لمن يحجم عن تقدير تلك العظمة جهلا منه بدين الإسلام أو بتاريخ النبوة الإسلامية ، ولم أشأ أن أجعل الاعتراف بها موقوفًا على صفة يدين بها المسلم لأنه مسلم ويرفضها المخالف لأنه يرفضها بحكم العقيدة الدينية .

وممن أختارهم للترجمة عظماء الفرصة الذين بلغوا بالحيلة ما لم يبلغوه بالقدرة الخالصة ، وتوسلوا إلى منافعهم فى أزمنتهم بتلك الوسائل التى نسميها اليوم بالوسائل «الميكافيلية»[1] .. فإن الغرض الأول من الترجمة التاريخية أن يعرف الناس الفارق بين حق الفرصة فى زمن من الأزمان ، وحق القدرة فى كل زمن ، ومع اختلاف الفرص وعوارض الظروف ، فلا ينبغى أن يأخذ عظيم الفرصة من التاريخ فوق ما أخذه من منافع عصره ، وبخاصة حين يكون حكم التاريخ الكاذب جورًا على خصومه وتغطية لنقائص عصره . وليست أجد فى نفسى باعثًا قويا للكتابة عن العظماء الذين اتفقت لهم الفرصة والعظمة معًا فاستحقوا المجد الذى نالوه ، ولكن بشىء من المبالغة العاطفية أو مبالغة الظروف ومناسبات الحوادث ، ولهذا أفضل الكتابة عن عبقرية خالد على الكتابة عن عبقرية صلاح الدين .. لأن إنصاف صلاح الدين لا يحتاج إلى مزيد .

* * *

ومن حظوظ التآليف ، التى لها حكم كحكم الخط فى كل شىء ، أننى أؤجل أحب الموضوعات عندى وقتًا بعد وقت على أمل فى اقتراب الموافق لتأليفها ، فلا يقترب كما أريد مع توالى الأعمال واعتراض المطالب العاجلة التى لا تحتمل التأجيل ، وأحب الموضعات عندى تلقى منى هذا التأجيل بعد التأجيل لأن توفية الكلام فيها تستغرق الوقت الطويل وتستلزم الإحاطة بجميع الأطراف ، ولا يتم إجمال القول فيها - فضلا عن التفصيل - فيما دون المئات من الصفحات .

وقد تأخرت من أجل هذا كتابتى عن أبى حامد الغزالى ، وهو أحب المفكرين الإسلاميين إلىّ وأقدرهم تفكيرًا على الإطلاق ، ولم يتيسر لى أن أكتب عن خليفته الشيخ «محمد عبده» إلا بعد أن أجمعت على اطراح التردد فى أمره وأقنعت نفسى بثلاثمائة صفحة تكتب فى ترجمته حيث كان ألف صفحة دون الكفاية عندى لمثل هذا الموضوع .

إن الاقتراح يعمل فى تأليف الكتب أحيانًا عمل الاقتراح فى تأليف المقالة الصحفية ، وقد ألفت كتبى عن «سن ياتسن» و«شكسبير» و «برنارد شو» و«فرنكلين» و«عقائد المفكرين» وغيرها تلبية للمقترحات التى وافقت رغبتى كما

(١) نسبة إلى ميكافللى .. صاحب مبدأ الغاية تبرر الوسيلة .

وافقت زمانها فى إبانها ، ولكنها كلها - من التراجم وغير التراجم ومن الموضوعات التى أختارها أو أوافق على اختيارها - لا تخرج عن مقصد واحد لا هوادة فيه ولا يتجرد منه موضوع كتاب أو مقال : وهو إحياء الثقة بالروح الإلهى الخالد من لوثة المادة ومهانة الإنكار العقيم ، أو مهانة كل اعتقاد وخيم يغلب فيه عامل السلب والنفى على عامل الثبوت والإيجاب . .

طريقتى فى الكتابة

أما طريقتى فى الكتابة ، فإنى أبدأ المقال وفى ذهنى جميع أصوله و«نقطة» مرتبة على الجملة حسب التسلسل المنطقى ، ولكنى إذا مضيت فى الكتابة عرضت لى حاشية من هنا ، أو لمحة من هناك ، تطرأ فى عرض الكلام ولا تغير شيئًا من جوهر المقال إلا أن تزيده جلاء فى بعض الأحيان أو تضيف إليه عنصر الفكاهة والتبسيط .

وأكتب فى كل مكان خلا من الضوضاء . أما إذا لم تقيدنى الضرورة بمكان معين فأكثر ما أكتب وأنا مضطجع على الفراش وثلاثة أرباع مقالاتى السياسة كتبت كذلك . هذا فى النثر أما الشعر فيغلب أن أنظمه وأنا أتمشى أو أسير فى الخلاء .

ويهمنى كثيرًا أن أعود إلى كلامى قبل الطبع لأصححه وأراه فى صورته الأخيرة ، إلا أن يعوقنى عن ذلك عائق . . ومتى نظرت فيه قبل تسليمه إلى المطبعة فقد أحذف وأزيد عليه ويندر جدا أن يمس الحذف أو الزيادة جوهر الموضوع . .

وإذا شطبت على الكلمة أثناء الكتابة عنيت بأن أطمسها طمسًا تاما كأننى لا أريد أن تتراءى لنظرى بعد ذلك ، ويكثر الشطب إذا كنت مشغول الذهن منحرف المزاج . ويقل إذا أقبلت على العمل بنفس راضية وجسم مستريح . أما زمان الكتابة فشرطى الوحيد فيه ألا يكون بعد تناول الطعام . .

* * *

وخطتى فى المناقشة أن أعمد إلى أقوى الحجج بداءة فأجتهد فى تقويضها ثم أقفوها بأضعف الحجج ، وأعود إلى ما فيه مساك من القوة ، وربما كانت فى هذه الخطة مفاجأة للقارئ ولكنها مفاجأة لا تخلو كما شاهدت بالتجربة من تأثيرها المحمود .

وأفضّل الكتابة منفردًا لا يحيط بى أحد . ولم أكتب قط فى الأدب خاصة ومعى آخر فى الحجرة ، إلا أن أملى عليه ما أقول وهو جد نادر .

ولم أتعود أن أستعين بشيء من المنبهات التى يألفها بعض الكتاب أثناء العمل كالتدخين وشرب القهوة وما إليها ، حتى أيام كنت أدخن . . بل لقد كنت يومئذ أترك التدخين حين أشرع فى الكتابة .

منهجى فى التأليف يلخص فى كلمتين ، هما : التقسيم والتنظيم ، وهما كما سيرى تختلفان بعض الاختلاف عن منهج التبويب والترتيب .

فعملى الأول عند تأليف الكتاب أن أتبين فى ذاكرتى أقسامه الواسعة التى تحيط بأجزائه المتفرقة ، فإذا فرغت من الإحاطة بها كتبت عنوان كل قسم على غلاف متوسط الحجم يتسع لعدة أغلفة أصغر منه إذا وضعت فيه . .

ثم أراجع فى ذهنى مصادر الأخبار والآراء والحوادث التى تتصل بهذه الأقسام . . وهى الكتب التى اطلعت عليها فى المبحث المطلوب من جميع نواحيه ، وقد أضيف إليها كتبًا أخرى لم أطلع عليها ولكنها مشتركة فى مدار البحث أو معدودة من موسعاته عند النظر فى الاستقصاء ، والمقابلة بين الوجهات والآراء . .

* * *

أذكر كيف ألفت - على سبيل التمثيل - كتابى فى البحث عن العقيدة الإلهية ، وهو الكتاب الذى أطلقت عليه اسم «اللّه» ولاحظ بعض النقاد بعد صدوره أن الأحرى به من ناحية البحث العلمى أن يسمى «الإله» . . لأن اسم «اللّه» عنوان لعقيدة خاصة «الإليهة» لا يدين بها جميع المؤمنين بالربوبية ، وكان موضع الخطأ فى هذا النقد أن مدار البحث هو «اللّه» الذى انتهى إليه الإيمان «بالإله» ، وهما بحثان مختلفان لأن الوصول إلى فكرة «الإله» قد تم قبل ظهور العقيدة فى «اللّه» بدهر طويل . .

ولا بد من تحقيق اسم الكتاب قبل الشروع فى حصر أقسامه ، فلو كان موضوع الكتاب «الإله» كما اقترح أولئك النقاد لاكتفينا فى تقسيمه بدرجات التقدم مع العقيدة إلى أن ظهرت فى التاريخ فكرة الربوبية على إطلاقها ، لأن «الرب» يطلق على كل «إله» بغير تعريف ، خلافا لاسم «اللّه» ، فإنه هو «الإله» كما انتهت إليه غاية البحث فى عقيدة الوحدانية .

* * *

أما والعقيدة المطلوبة هى العقيدة فى «اللّه» فالأقسام التى تناولها البحث هنا غير الأقسام التى يستوفيها البحث بمجرد الوصول إلى الاعتقاد بأى إله ، وأى رب معبود . .

وقد كان من أهم هذه الأقسام قسم عن نشأة العقيدة الدينية من مبدئها ، وقسم عن الاعتقاد بالأرباب على إطلاقها ، وقسم عن العقيدة الإلهية فى أمم التاريخ الكبرى ، وقسم عن العقيدة الإلهية فى الديانات الكتابية ، وقسم عن الإله فى مذاهب الفلسفة قبل الديانات المشهورة ، وقسم عن مذاهب الفلسفة بعدها وعن مذاهب الفلسفة بعد شيوع العلوم العصرية التى أطلق عليها اسم العلوم التجريبية ، ثم ختام لهذه الأقسام لجمع أطرافها والتعقيب عليها . .

* * *

وكان ابتداء التأليف فى هذا الكتاب صيفًا بمدينة الإسكندرية ، فنقلت إليها مكتبة صغيرة مما قرأته قبل ذلك ، وطلبت من مكتبة المعارف - وهى ناشرة الكتاب - أن تستحضر أكثر من مائة مرجع من المؤلفات الأوروبية ، فلم يتيسر فى ذلك الحين استيرادها ولم نجد فى فرع الإسكندرية غير نصفها وبعض الكتب المطلوبة باللغة الإنجليزية منقولة إلى اللغة الفرنسية ، وبدأنا المراجعة تصفحًا واستعراضًا لا نتوسع فيه إلا بمقدار ما يكفى للاستذكار والتعليق والعلم بما يلزم فى كل قسم من الأقسام وكادت أن تنقضى إجازة الصيف فى هذا الاستذكار والتعليق .

فالعمل الأول على حسب هذا المنهج هو الإحاطة بأقسام الكتاب وتخصيص غلاف مستقل لكل قسم منها ، ويليه جمع المصادر اللازمة للرجوع إليها عند كتابة كل قسم من هذه الأقسام .

ويأتى بعد ذلك عمل التصفح والمراجعة ، والغرض منه حصر المسائل المتفرقة وتوزيعها على أقسامها .

* * *

فإذا مرت بى مسألة من تلك المسائل فى المرجع الذى أتصفحه أثبت رقم الصفحة التى وردت فيها ، وعرفتها بعنوانها المختصر ، وألحقت بها إشارة تتضمن تعقيبى عليها بالموافقة أو الشك أو تعليق الرأى إلى موعده ، ولم تزد هذه الإشارات على علامة كعلامة «صح» فى الكراسات المدرسية أو علامة كعلامة الاستفهام أو التعجب أو التضمين ، أفهم المقصود بها ساعة النظر إليها ، وتغنينى عن كتابة التعليق بالكلمات .

وتكتب كل إشارة من هذه الإشارات على قصاصة صغيرة ثم توضع فى الغلاف الخاص بها حسب أقسام الكتاب ، وإلى نهاية التصفح والمراجعة فى المصادر

المجموعة بين يدى ، فلا يبتدئ التأليف قبل الفراغ من حصر هذه المسائل المتفرقة فى موضعها وتيسير الرجوع إليها ساعة الحاجة . .

ثم تأتى بعد ما تقدم مرحلة تالية وهى مرحلة التصفية والتنظيم .

وفى هذه المرحلة يعاد النظر إلى قصاصات كل غلاف على حدة ، لإبقاء ما يظهر من مجموعة المسائل أنه جوهرى ضرورى لا غنى عنه لاستيفاء مقاصد الكتاب ، وتنحية ما يظهر على نقيض ذلك أنه زيادة يستغنى عنها ، وتكرار يدخل فى خلال المقاصد الأخرى ويلحق بها على هذا الاعتبار ، ولا يندر فى هذه الحالة تغيير عناوين الأقسام وتفريع المسائل إلى أبواب فى القسم الواحد ، كل باب منها منفرد بجانب من جوانب البحث يستقل بعنوانه وحدوده .

وقد يرى هنا موضع الاختلاف اليسير بين منهج التقسيم والتنظيم ومنهج التبويب والترتيب . . فإن التبويب على منهجنا هذا ينطوى فى التقسيم ولا يسبقه ، بل لا يتأتى التفريع قبل الفراغ من تقرير الأصول .

أما الترتيب فليس من أسرار الصناعة أن أقول إننى لست ألتزمه فى جميع الأحوال ، فموضوع البراهين القرآنية فى الكتاب الذى نحن بصدده كان أول فصل كتب فيه ، وموضوع الفلسفة اليونانية جاء ، على ما أذكر ، بعده فى ترتيب الكتابة . . ولست أغفل الترتيب لغير سبب يستدعيه تنظيم أوقات العمل . ولكننى أنظر إلى الوقت الميسور لكتابة الفصل وإلى الأيام التى أفرغ فيها للتأليف بين الأعمال الأخرى . فإذا كان أمامى ثلاثة أيام تركت الفصل الذى يحتاج إلى خمسة أيام أو عشرة أيام متوالية وفضلت الابتداء بالفصل الذى يكفيه الوقت الميسور بغير انقطاع أو تأجيل .

* * *

وقد كان صديقنا المازنى يقول إن أسلوبه الاستطرادى لا يمكنه من بناء الدور الثالث فى المنزل قبل الدور الثانى ، على حسب تعبيره . . . ولكننى أعتقد أن تشبيه المراحل هنا بمسافات الطريق أقرب إلى الواقع من تشبيهها بطبقات البناء ، لأن فصول الكتاب لا تقوم على اختلافها فى العلو والارتفاع كما تقوم على اختلافها فى الابتداء والانتهاء على خطوط الطريق ، ومتى عرفت مسافات السير من الميل الأول إلى الميل الألف فلا فرق بين الابتداء بالتمهيد من الميل الأول إلى العشرين والثلاثين وبين الابتداء به من الميل العشرين والثلاثين إلى ما بعد ذلك من المراحل والمسافات . .

وإنما المهم هو التحقق من حدود كل مسافة بالنسبة إلى سائر الحدود ، وهذا هو العمل الواجب قبل الشروع فى الكتابة من مبدئها ، فلابد من الاطلاع على عناصر الكتاب عنصرًا عنصرًا فى كل مبحث قبل كتابة فصل من الفصول .

وليس لكتابة المقالات منهج يخالف هذا المنهج فى تأليف الكتب ، سوى الخلاف الضرورى بين الإطالة والإيجاز وبين التشعب ووحدة الموضوع ، فكل فكرة فى المقالة حاضرة قبل أن تكتب كلمتها الأولى ، ولكن أفكار المقال غير تعبيراته ، بل غير صبغته الفنية فى أكثر الأحيان ، لأن إشباع المعنى ساعة الكتابة قد يوحى بألفاظ العبارة التى تليها ، وقد يكون للعاطفة صلة بأسلوب التعبير عن المعنى فيشتد شعورى بها على قدر إشباعها وقوة أدائها ، وربما تحول القلم من أسلوب الانفعال إلى أسلوب السخرية والتهكم ، أو من أسلوب النقد إلى أسلوب التنديد والتفنيد ، إذا ارتفعت نغمة المعنى وارتفعت طبقته أثناء الأداء ، كما يحدث فى أداء أصوات الغناء حيث تظهر آثار الفوارق العاطفية بين نغمة ونغمة ، وبين توقيع وتوقيع مع وحدة النوطة الموسيقية ، ويحدث هذا فى فصول الكتب كما يحدث فى المقالات المنفصلة ، فربما كتبت الفصل وعيناى مغرورقتان كما حدث فى كتاب «أبى الشهداء» ، وربما كتبت المقال وفى نفسى مغالبة عنيفة للبكاء كما حدث فى مقالات الرثاء للمازنى والنقراشى وغاندى وسعد زغلول .

ولم أعالج كتابة القصة فى غير قصة واحدة مطولة هى قصة «سارة» ، وقصص قلائل من الحكايات أو الأماثيل القصار .

ورأيى فى منهج القصة أن إبلاغ مؤثراتها النفسية إلى وجدان القارئ هو كل ما يطلب من كاتبها بغير قيد مرسوم ولا اتباع لمذهب مدرسة خاصة أو فنان معلوم .

وقد قيل غير مرة أن «سارة» لا تجرى على منهج القصة المتبع ، ولم يقل أصحاب هذا الرأى ما هو المنهج المتبع الذى يعنونه وما هو القانون الفنى الذى يفرض على كل كاتب ولا يسمح له بالتصرف فيه . .

وكل ما هنالك أن الناقد يلقى بهذا الرأى وهو يعرض فى ذهنه أساليب قصص مختلفة ويريد منى أن أوافقها جميعا فى أسلوب قصة واحدة ، وينسى أننى لابد أن أخالف أسلوب عشرات من القصص إذا وافقت واحدا منها ، بل ينسى أنه لم يكلف نفسه تعريف موضوع القصة فى «سارة» قبل مطالبة الكاتب بالمنهج الذى يمليه عليه .

فقصة «سارة» ليست قصة حياة همام بطل الرواية ، ولا قصة حياة سارة بطلتها ، ولا قصة حياة من المذكورين أو المذكورات فيها ، ولكنها قصة العلاقة فى فترة محدودة من الزمن بين فتى وفتاة ، فلا منهج لها غير المنهج الذى يصور البواعث الظاهرة والباطنة التى عملت فى تعريضها للشك والاضطراب ، ثم انتهت بها إلى ختامها ، ولم تبتدئ الرواية إلا حيث ينبغى أن تبدأ ، لأنها بدأت بموقف الفصل بين دواعى بطل الرواية وبطلتها إلى استئناف علاقتهما ودواعيهما إلى القطيعة والانفصال ، ومن هنا ينبغى أن يبدأ تساؤل المطلع عن طبيعة تلك الصلة وطبيعة الدواعى التى ألحت عليها بدواعى التردد إلى خاتمة التردد على غير يقين . .

ولست أدعو كل قلم إلى اتباع هذا المنهج فى وصف هذه العلاقة ، ولكننى أدعو من شاء أن يقترح لها منهجًا آخر يوافق النقاد والشعراء على أنه أصلح من منهجها لإبلاغ مؤثراتها النفسية إلى وجدانهم ، ولا أحسبهم موافقين . .

وبعد ، فما هو المقياس الذى يقاس به هذا المنهج وكل منهج سواه ؟

إنه هو ذلك المقياس المتفق عليه فى خطوط المواصلات جميعا : وهو وقت السفر ومحطة الوصول . .

..مالم أكتب وما أريد أن أكتب..

إذا سألنى القارئ ما الذى تريد أن تكتبه ؟ وما الذى لم تكتبه عمدا أو لضرورة من ضرورات الوقت والحالة ؟ فالجواب عن هذه الأسئلة قد يعرفه القارئ الذى يلم بعناوين كتبى وموضوعاتها ، لأنه يعرف منها ما يهمنى وما أستطيع أن أكتب فيه ، ويعرف من ثم كيف يتم ما بدأته من تلك الموضوعات ، وما الذى يحتاج منها إلى إتمام .

فالغالب على القراءة والكتابة عندى أنهما تتصلان بمسائل شاملة يجمعها برنامج واضح يحيط بتفصيلاتها ، وكلها تدور على مسائل الوجود والعقيدة والعظمة الإنسانية والفنون ، وأكثر ما كتبت فيه من هذه المسائل يشير إلى أن بقيتها «تحت التأليف» .

كتبت عن وجود الخير الأكبر ، وهو الله خالق كل شىء ..

وكتبت عن وجود الشر الأكبر وهو إبليس أو الشيطان ، رمز الفساد فى كل شىء ..

لأن الكون هو الخلق الأعظم فى مجموعته الواسعة الكاملة ، ولأن الإنسان هو أشرف المخلوقات التى نعلمها وأقربها إلى الوجود الإلهى ، وقد يراه المتصوفة أكبر من الكون كله كما قال شاعرهم :

وتزعم أنَّك جِرْمٌ صَغِيرٌ وفيك انطوَى العَالَمُ الأكبر

لأنهم يرون أن وجود الكون بما رحب إنما هو وجود مادى مجرد من الروح والحياة ، وليس فيه من مظهر روحى حى أشرف من الإنسان .

فى هذا الباب إذن أريد أن أؤلف كتابًا عن الكون وكتابًا عن الإنسان ، أشرح فيهما ما أفهمه وما أحسبه من معنى وجود المادة ومعنى وجود الفكرة أو الضمير أو الروح .

وقد ألفت عن الأنبياء فكتبت «عبقرية محمد» و«عبقرية المسيح» و«أبى الأنبياء إبراهيم». بقيت «عبقرية موسى» الكليم ..

وبقيت معها «عبقرية بوذا» و«عبقرية كنفشيوش» .

ذلك أنى تبينت من دراسة تاريخ النبوءات أن أنبياء الأديان الثلاثة الكبرى - وهى الموسوية والمسيحية والإسلام - قد ظهروا فى الشرق الأوسط بين الأمم السامية ، وتفسيرى لذلك أن النبوة لم تكن لتظهر فى بلاد الدول المتسلطة ، لأنها تخضع فى شرائعها وآدابها لقوانين السلطان وعرف الكهان ، ولم تكن لتظهر

فى الصحراء لأنها تخضع لقوانين الثأر والعصبية ، ولكنها تحتاج إلى بيئة تجمع بين أحوال الدولة وأحوال البادية ، وهى مدينة القوافل .

إن مدينة القوافل تعرف المعاملات العامة والمصالح المختلفة والشرائع التى تقوم على حقوق المتعاملين غير مقيدين بسياسة السلطان ولا بعصبية القرابة ، وفيها - أى فى مدينة القافلة - تتعرض الأخلاق للفتنة والغواية لكثرة المتقلبين على المدينة من المترحلين المتنقلين وكثرة طلاب الكسب والارتزاق حيث تروج التجارة وتروج دواعى اللهو والمتعة . .

ففى هذه البيئة تتهيأ الأحوال النفسية والاجتماعية لظهور هداة الأديان ودعاة الإصلاح والإنصاف من الرسل والأنبياء ، ولهذا ظهر إبراهيم فى مدن القوافل بين «أور» فى الفرات وبعلبك فى سورية وبيت المقدس فى فلسطين ، وظهر موسى فى مدين وما حولها ، وظهر المسيح فى الخليل ثم فى بيت المقدس ، وظهر نبى الإسلام فى مكة بعد أن ظهر أنبياء العرب حيث تقوم العلاقات وسطا بين شريعة الدولة وشريعة البادية .

وموسى عليه السلام هو ثالث الرسل العظام فى السلالة السامية ، بعد أبى الأنبياء إبراهيم .

أما «بوذا» و«كنفشيوس» فهما نوع آخر من أنواع الرسالة يقترب تارة إلى الشك وتارة إلى تعليم الأدب والسلوك ، وتفصيل البحث فيهما بقية لازمة بعد جلاء آيات النبوة فى إبراهيم وبنيه عليهم السلام .

* * *

وقد تضاف هنا إضافة مناسبة ولكنها لا تخطر على البال لأول وهلة . . قد يقال: إن هذا شأن النبوة فيما مضى ، فكيف يكون الإصلاح الدينى بيننا فى العصر الحديث ولا مزعج هنا للبحث ولا للرسالة ؟ . . .

أقول إنه - حيث لا ينتظر البعث أو الرسالة - تنتظر الهداية على سنة النبوة ، ولن تكون الهداية فيما أعتقد إلا بفضل «الشخصية الإنسانية» فى صورة من صور الإلهام والتأثير بالقدرة المهيمنة على العقول والضمائر . .

كذلك كانت هداية جمال الدين ، وكذلك كانت من بعده هداية تلميذه محمد عبده ، وأحسب ما أتمناه من موضوعات التأليف أن أُلحق بعبقريات الإسلام كتابًا عن عبقرية جمال الدين وكتابًا جامعًا يترجم لهما فى نسق واحد ، ويترجم معهما ببعض الإيجاز لمن عمل على نهجهما فى ديار الإسلام .

وقد ألفت عن «ابن سينا» وعن «ابن رشد» ، وهما أكبر فلاسفة اللغة العربية فى المشرق والمغرب .

وبقى كتاب عن «الغزالى» الفيلسوف الذى يصارع الفلاسفة ، والفقيه الذى يؤدب الفقهاء ، والمتصوف الذى يكشف عن عالم الخفاء ، كما يكشف عن عالم الشهادة .

وليس فى المشرق والمغرب من هو أرجح فكرًا وأصفى عقلا وأقوى «دماغا» من هذا الإمام الجليل ، ولولا اتساع الأفق الذى تدفعنا إليه الكتابة عنه لبدأت بترجمته ونقده قبل «ابن سينا» و«ابن رشد» وغيرهما من حكماء المشرق والمغرب ، ولعله مانع وشيك أن يزول ، لأنه مانع يقتضينا واجبين معا ، إذا كان العمل السهل يقتضينا واجبا واحدا لا موانع فيه . .

ولقد كتبت عن شعراء كثيرين .

كتبت المؤلفات المستقلة عن «ابن الرومى» و«أبى نواس» و«عمر بن أبى ربيعة» و«جميل بثينة» ، والفصول المتفرقة عن «المتنبى» و«أبى العلاء» و«دعبل» و«بشار» و«ابن زيدون» و«ابن حمديس» وغيرهم من المشارقة والمغاربة ، ولا يزال فى المجال متسع للمطولات عن أدب «أبى الطيب» وأدب «أبى العلاء» على التخصيص .

وأريد أن أكتب ما يغنى عن تفصيل الكتابة فى الشاعرين الحكيمين وفيمن عداهما من شعراء الأدب الغنائى أو شعراء الرونق والجمال ، وأحسب أننى أستغنى عن ذلك اضطرارا ، بكتاب يتناول موازين النقد فى الشعر وفلسفة الجمال كما نطبقها على الفنون فى صورتها التى تمتزج بالفكرة والعبارة النفسية على الإجمال ، وشواهد هذا البحث من كلام الشعراء والبلغاء دليل يرجع إليه من شاء فيما تقوله فلسفة الجمال عن شعرائنا الحكماء وغير الحكماء . .

وقادة الفكر بين أمم الحضارة ، قديمها وحديثها ، كتبت عن بعض منهم ولم أكتب عن بعض ، وليس فى الوسع ولا فى النية أن أستقصيهم بقضهم وقضيضهم ، فليكن خلاصة ، أو عصارة لمذاهبهم وآراء المفكرين فيهم ، وبها تتأدى حصتى الصغيرة من أمانة تحملها الأرض والجبال ، والإنسان ! . . ثم ماذا بعد هذا ؟ . .

سيرة «سعد زغلول» ظهرت فى زمن لا تظهر فيه حقائق الحكم والمحكومين ، فمن الخير أن تعاود وأن يزاد عليها ما لم يكن يزاد فى عهد أحمد فؤاد . .

وإلى هنا أرانى ذكرت حقا ما لم أكتب ، وذكرت طرفا أو أطرافا مما أريد أن أكتب ، ولكن «ما أريد» يصدق عليه قول القائل : «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون» .

وسأريد ما يكون ، وقد يكون ما لم أذكره وما لم أرده ، وعلمه عند اللّه . .

عرفت نفسى

وهل يعرف الإنسان نفسه ؟ . .

كلا ، بغير تردد ، فلو أنه عرف نفسه لعرف كل شىء فى الأرض والسماء وفى الجهر والخفاء ، ولم يُكتب ذلك لأحد من أبناء الفناء . .

إنما يعرف الإنسان نفسه بمعنى واحد وهو أن يعرف حدود نفسه حيث تلتقى بما حولها من الأحياء أو من الأشياء . والفرق عظيم بين معرفة النفس ومعرفة حدودها ، لأننا نستطيع أن نعرف حدود كل مكان ولكن لا يلزم من ذلك أن نعرف خباياه وخصائص أرضه وهوائه وتاريخ ماضية ولو قسنا كل شبر فى حدوده .

والأحرى أن يقال إن الإنسان يعرف الفواصل بينه وبين غيره ، فيعرف مداها ولا يتعداه . .

وقد عرفت أننى أثق بنفسى وأعتمد عليها ولكننى أعتقد أننى وثقت بها من طريق النفى قبل وثوقى بها من طريق الثبوت ، فقد كنت فى بادئ الأمر أحسب أننى أنا المخطئ وحدى ، وأن جميع الناس على صواب . .!

هناك اختلاف لاشك فيه فمن المخطئ ومن المصيب ؟ . . أنا المخطئ إذن لا جدال . .

كنت فى طفولتى أحب مراقبة الطير والحيوان وكان فضاء بلدى – أسوان – يمتلئ فى أوائل الشتاء وأوائل الصيف بأسراب الطير المهاجرة إلى أفريقية الوسطى أو القافلة من الهجرة ، فاتفق أننى تتبعت سربًا منها وهو يحط على الأرض ويرتفع عنها حتى ضللت الطريق فى الصحراء ، وعدت إلى المنزل بعد هبوط الظلام .

فلما سئلت وأجبت كان جوابى أضحوكة الكبار والصغار وشاع بين أندادى فى المدرسة فتندروا به وأكثروا من السخرية به والتعقيب اللاذع عليه ؟ .

هم إذن على صواب . . وإلا فلماذا ضللت الطريق وحدى وراء ذلك السرب ، ولم يحفل به غيرى من كبير أو صغير !! . .

وأقيم لقريب لى عرس فى دار ريفية ذات فناء رحيب من تلك الأفنية التى تكثر فى قرى الصعيد الأعلى ، فاجتمع أهل القرية حول المشاعل الموقدة يصفقون ويهللون وانحرفت وحدى إلى الفناء المعزول ، فإذا الظلام الحالك قد أطلع فى السماء كل كوكب يسرى على ذلك المدار ، فجلست على الرمل أتملى هذا المنظر الساحر ، فريع أهلى إذ تفقدونى ولم يجدونى ، وكنت فى نحو التاسعة من عمرى ، فما أشعر إلا والمشاعل كلها قد تحولت إلى مكانى من الفناء ، وأصوات

الدهشة تنبعث من جميع الأفواه ، حتى سئلت فأجبت ، فانتقلت الدهشة منهم إلىّ ، ودهشت أنا ، لأنهم راحوا يقهقهون ولم أدر لماذا يقهقهون ولولا أن اليقظة كانت ملء عينى لقالوا طفل حالم أو طفل مخبول ..

إذن نحن لا نتفاهم ، وخير لى أن أطوى على جد نفسى وهزلها لأسلم من الضحك والسخرية إلى أن يغيرنى الله ، فأهتدى كما اهتدى سائر خلق الله ...

وإنى لعلى هذا التوجس من البوح بما فى نفسى ، وعلى هذا الشك الشديد فى جدها وهزلها ، إذا بى أقرأ ما كتب عن بعض الشعراء ومحبى الطبيعة وهم يعتزلون العالم ليمتعوا النظر بصورة من تلك الصورة السماوية ، وإذا بى أقع على جزء قديم من «مجلة المقتطف» صدر فى سنة ١٨٩٩م . وفيه مقال عن الطائر الطنان ويليه مقال عن مناقير الطيور ، وأقرأ فى كليهما أن مراقبة الطير شغل شاغل لبعض العلماء والرحالين ، وأن حركة الطائر وهو يتقدم ويتأخر أو يأكل ويشرب أو يغنى ويلعب ، مسألة ذات خطر وليس سخرية لمن سخر ..

أكذاك هو ؟ ..

إذن يبسط أبو حنيفة رجله ، ولا مبالاة ..!

وكان أبو حنيفة كما قيل يبسط رجله فى حلقة الدروس لأنه لم يكن يستطيع أن يثنيها من مرض أو من إعياء .. فأقبل على درسه ذات يوم شيخ غزير اللحية وقور المشية هابه أبو حنيفة فثنى رجله على ألم ثم أخذ فى درسه عن موعد صلاة الصبح ، فإذا بالشيخ يسأل : «وما العمل إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟» قال أبو حنيفة : «العمل أن أبا حنيفة يبسط رجله ويحمد الله»!

وقد بسطت رجلى وحمدت اللّه من ذلك الحين ، وعلمت أن خطأ الكثيرين جائز ، وأن سخريتهم لا تضير ، فلم أحفل بتلك السخرة ، ولعلى بالغت فى قلة الاحتفال بها «وأخذت راحتى» جدا فى بسط رجلى حيث أشاء ..

لقد علمتنى تجارب الحياة أن الناس تغيظهم المزايا التى ننفرد بها ، ولا تغيظهم النقائص التى تعيبنا ، وأنهم يكرهون منك ما يصغرهم لا ما يصغرك ، وقد يرضيهم النقص الذى فيك ، لأنه يكبرهم فى رأى أنفسهم ، ولكنهم يسخطون على مزاياك لأنها تصغرهم أو تغطى على مزاياهم .. فبعض الذم على هذا خير من بعض الثناء لا بل الذم من هذا القبيل أخلص من كل ثناء لأن الثناء قد يخالطه الرياء . أما هذا الذم فهو ثناء يقتحم الرياء .

وود أبو حنيفة لو يصل رجله برجل أخرى ، ليبسطها كل البسط فى وجه كل مذمة من هذا الطراز .

وعرفت أن الذين أسخطهم لا يرضيهم منى شىء ، وأن الذين أرضيهم لا يسخطهم علىّ شىء فلا فائدة إذن من اتقاء السخط ولا من اجتلاب الرضى ،

لأن الذين يسخطون علىّ يرجعون إلى خلائقهم التى لا تتغير ، والذين يرضون عنى يعرفوننى من عملى الذى يرتضونه ولا يريدون منى شيئا سواه .

وأعجب ما عرفته من أمر نفسى أننى أسئ الظن بالناس لأننى أحسن الظن بهم . . .

فأول ما يخطر لى على بال أن أتهم من يقترف عملا من الأعمال المنكرة بسوء النية وتعمد الإساءة . لأننى لا أحسب أن إنسانا عاقلا يقع فى خطأ جسيم عفوا أو جهلا بالفرق بين الحسن والقبيح . .

فإذا ظلمته فقد يشفع لى أننى أظلمه فى سبيل الإنصاف . .!

* * *

وعرفت أننى من أعجز الناس عن رفع حاجز واحد يقام بينى وبين إنسان ولا سيما حاجز الكلفة والإعراض ، فإذا تلقانى إنسان بمثل هذا الحاجز فلا اقتراب بينى وبينه أبد الدهر ، وليس أشق على نفسى من تلك الزلفى التى يزدلف بها بعضهم لكسب صداقة أو تمكين علاقة . . فإن زال الحاجز وحده فهنالك يمتزج العقل بالعقل والنفس بالنفس طواعية وعفوا كأننا فى عشرة حميمة منذ سنين .

وعرفت أننى أكره الهزيمة فى كل مجال ، ولكن يشهد اللّه أننى أعاف النصر إذا رأيت أمامى ذل المنهزم وانكسار المستسلم ، ولولا أن هزيمتى أبغض إلىّ من هزيمة خصمى لأبغضت النصر الذى يفضى لا محالة إلى انهزام واستسلام . .

وأعرف أن العادة قوية السلطان على سليقتى وخلقى ، ولا تعصمنى منها إلا الثورة النفسية ، وأشدها ما كان ثورة للكرامة أو الحقيقة كما أومن بها . . فكل بناء تبنيه السعادة ينهار فيما بين ليل ونهار إذا ثارت النفس لحقيقة محجوبة أو كرامة مغلوبة ، وقلما تكون للإرادة يد فى الحالتين .

وأعرف أننى أعامل الناس والأشياء كأنهم معان مجردة فى الضمير ، لا كأنهم شخوص ومحسوسات . . فعشرة ملايين جنيه – مثلا – معناها عندى المتعة أو الترف أو السطوة أو الجاه . وطلبى لها يتوقف على حاجتى إلى تلك المعانى لا على حسابها بلغة الأرقام والمصارف والقصور والضياع . .

وأكره الظلم حين أكره الظالم ، والشر حين أكره الشرير ، والخبث حين أكره الخبيث . . .

ولهذا يفوتنى أحيانًا أن أفرق بين كراهة المبدأ ، وصاحب المبدأ ، ولا يسيغ طبعى ما يقال عن التفرقة بين العمل وعامله ، لأن العمل لايكون خبيثا وعامله من الأطهار !

وعرفت كثيرًا من أمثال هذه الحدود ، ولكننى لم أعرف كثيرًا ولا قليلا مما تحيط به تلك الحدود . . فعرفت أن الفيلسوف سقراط كان يستعير لغة الكهانة حقًا حين قال : «اعرف نفسك» !

لأنه كان كمن يطالبنا بمعرفة الغيب أو معرفة المجهول وكلاهما من صناعة الكهان ! . .

يعرف المعنيون بطبائع الطيور المهاجرة أنها قد تضلل عمدا - أو على غير عمد - عن طريقها فتضل عنه مرة أو مرتين أو ثلاث مرات على الأكثر ، ولا يلبث الطير المهاجر أن يتجه إلى وجهته ويستقيم عليها إلى أقصاها .

يصدق هذا على النفس البشرية وهى تلتمس طريقها السوى فى أوائل حياتها كل يصدق على الطيور المهاجرة ، فتضل الطريق مرة أو مرات ، ثم لا يلبث أن تعتدل على نهج تتحراه إلى أقصاه .

وهذا الذى حدث لى فى أوائل صباى بين المناهج المختلفة التى اعتقدت أننى مهيأ للمسير عليها بالفطرة وهداية الظروف ..

* * *

خطر لى فى مبدأ الأمر أننى مهيأ لحياة الجندية وأننى أبلغ أمنيتى من الحياة إذا بلغت مرتبة القيادة فى جيش مصر وطردت جيش الاحتلال ، وبين زملائى فى الدراسة من يذكر هذه الأمنية أو هذه الطليعة ، ومنهم الأستاذ سيد جودت المهندس الكبير ، واللواء محمود عسكر الذى اتجه دونى إلى الحياة العسكرية وترقى فيها إلى غاية الدرجات التى يرتقى إليها الضابط المصرى قبل سن الإحالة إلى المعاش .

ثم خطر لى أننى خلقت لدراسة علوم الزراعة والحيوان ، فاقترحت على والدى أن أتمم الدراسة فى كلية الزراعة العليا بدلا من التوظف بدواوين الحكومة .

ثم علمت يقينا أننى خلقت للأدب ولم أخلق لغيره ، وأن التفاتى إلى الجندية والزراعة إنما كان التفاتا للأدب من طريق آخر : طريق الإنشاد الحماسى قبل المبارزة ، وطريق الشغف بالأزهار وعامة الأحياء .

وكانت أسوان ميدانًا لمختلف الجنود المصريين والسودانيين والإنجليز أيام حرب الدراويش ، وكنا فى المدرسة نؤلف الجيوش ونتقاتل فى الوقت المخصص للرياضة ، وكنا نبدأ القتال بإنشاد الشعر الحماسى على سنة الفرسان الأقدمين كما قرأنا عنهم فى كتب الملاحم والغزوات .

وشـاقنى أن أنظم الشـعـر لا نشـده فى هذه المـواقف ، فكان هذا فى الواقع مـوطن هواى للجندية التى اعتقدت أننى خلقت لها وللتقدم فى صفوفها إلى مرتبة القيادة .

أما دراسة الزراعة فالذى حولنى إليها شغفى بأزهار الحديقة المدرسية وسائر الحدائق المحيطة بالمدينة الخالدة : مدينة أسوان .

وقد حولنى إليها كذلك أن أسوان كانت معبر الطيور المهاجرة فى أوائل الشتاء وأوائل الصيف ، فلم تزل تلفتنى هذه الظاهرة وتلفتنى الظواهر الأخرى من قبيلها فى طبائع الحيوان حتى ظننت أننى خلقت للزراعة ثم علمت الحقيقة من هداية وجدانى ، فأيقنت أن الولع بالشجر والطير إنما هو ولع بالوصف والتعاطف مع الحياة فى شتى ظواهرها ، فهو تمهيد للأدب وللهيام بالطبيعة كما يهيم بها الشعراء . .

* * *

ولى أن أقول من باب المجاز القَريب إلى الحقيقة أن حياتى الأدبية لم تخل من نضال الجندية ولا من الغرس وتعهد الغراس الفكرى من الجذور إلى الثمرات . .

فإذا سئلت : هل نجحت ؟ وجب أن أبين فى البداءة ماذا قصدت ، ووجب أن يكون الجواب على وفاق المقصد المطلوب .

نجحت لأننى قصدت إلى العمل بالقلم ووصلت فى هذا العمل إلى نتيجة يحمدها الأديب العربى لنفسه ويحمدها له قراؤه ، ولا محل للدعوى والإنكار فى هذا التقدير ، فإنه مما يقدر بأرقام الحساب ولا يكتفى فيه بتقدير الآراء .

ولا أحسب أننى اعتمدت على المعجزات أو الغرائب فى توفير أسباب هذا النجاح ، ولكننى أحسب أنها أسباب طبيعية معروضة للعاملين فى كل صناعة ، يلتفتون إليها باستعدادهم لها ، ويعينهم على الالتفات إليها نصح الناصح وهداية الدليل .

* * *

أول هذه الأسباب الرغبة الصادقة فى النجاح ، فإننى لا أخال أحدا ينجح فى عمل لا يرغب فى نجاحه .

ويلى هذا السبب الأول أن يعنى العامل بعمله لذاته ، ولا للنتيجة التى يترقبها من ورائه ، سـواء كـان ربحًا من المـادة أو شـهـرة على الألسنة أو وجـاهة فى المجتمع أو التاريخ .

وأقرر هذه الفكرة تقريرًا آخر حين أقول : إن الذى خلق للأدب لا يتحول عنه إلى منهج آخر من مناهج العمل لأن هذا المنهج يعطيه الربح والشهرة والوجاهة حيث يفقدها أو يتعذر عليه بلوغها فى منهج الأدب .. ولعلى لا أخطئ التشبيه إذا تلك إن مثل الأديب فى هذا كمثل الأب الذى يعرض عليه أن يختار ولدًا غير ولده يطيعه ويسره بالفلاح والتقدم حيث يخيب ولده ويعصيه ، فإنه لن يقبل هذا العرض مع يقينه برجحان الولد الناجح المطيع من غير ذريته على ولده المخفق المصر على العصيان ..

وسبب لا يقل عن الرغبة الصادقة والعمل للعمل لا للنتيجة المترقبة منه – وهو الثقة بالنفس والاستخفاف بالعقبات وبإنكار المنكرين عن جهل أو حسد أو تباين فى الرأى والخليقة .

* * *

ولو أننى سئلت أن أرتب أسباب النجاح بالنسبة إلى لبدأت بهذا السبب وأخرت بعده جميع الأسباب .

ولو أننى سئلت عن الفضل فيه هل هو للقدرة والتعليم والظروف أو هو للسليقة المطبوعة لقسمت هذا الفضل بينها قسمين متعادلين ، وزدت قسم السليقة المطبوعة بعض الزيادة فى معظم الأحوال .

* * *

وبحمد الله أقول إننى نجحت فيما قصدت إليه ، وأنتهى بذلك إلى عبرة هذا النجاح ، فألخصه فى عوامله الغالبة التى لا يخلو منها نجاح فى صناعة من الصناعات ، وتلك هى الاهتداء إلى استعداد الفطرة ، ثم صدق الرغبة فى تحقيق ذلك الاستعداد وصرف الجهد إلى العمل دون النتيجة المرتقبة منه ، وتعزيز الثقة بالنفس أمام الموانع والعقبات .

ومن الحق أن أتبع هذا بالتفرقة بين النجاح وبين تحقيق كل ما يراد وكل ما يرجوه المرء من نفسه ويرجوه عنه الناس ...

فما من أحد يحقق كل ما يريد وكل ما يراد منه ، وإن كان أنجح الناجحين ، وإنما يقاس النجاح بما أستطيع فعلا وبما يستطاع حقًا لو اتسع الوقت وأسعدت الظروف .

* * *

... تعلمت من أوقات الفراغ ...

أوقات العمل تملكنا . .

ولكننا نحن الذين نملك أوقات الفراغ ونتصرف فيها كما نريد ، فهى من أجل هذا ميزان قدرتنا على التصرف وميزان معرفتنا بقيمة الوقت كله ، وليست قيمة الوقت إلا قيمة الحياة . .

فالذى يعرف قيمة وقته يعرف قيمة حياته ، ويستحق أن يحيا وأن يملك هذه الثروة التى لا تساويها ثروة الذهب ، لأن مالك وقته يملك كل شىء ويصبح فى حياته سيد الأحرار .

إن أفرغ الناس هو الذى لا يستطيع أن يملأ ساعات فراغه ، وعندنا فى الشرق كثيرون ، بل كثيرون جدا ، من هؤلاء الفارغين .

على القهوات وعلى أفاريز الطرقات ، فى الصباح وفى المساء ، خلال أيام الصيف وخلال أيام الشتاء . .

فى كل وقت وكل موسم وكل مكان ألوف من الشبان الأقوياء والرجال الناضجين يقضون ساعات الفراغ فى لعب النرد والورق أو فى تعاطى الراح والدخان ، أو فى مراقبة الغادين والغاديات والرائحين والرائحات .

ليس هذا وقتا فارغا لأنهم مشغولون فيه ، وليس هذا وقتا مملوءاً لأنهم يملأونه بما هو أفرغ من الفراغ .

هذا ليس بوقت على الإطلاق . .

هذا عدم خارج من الزمان ، خارج من الحياة !

وليس معنى «وقت الفراغ» أنه الوقت الذى نستغنى عنه ونبدده ونرمى به مع الهباء ، ولكن وقت الفراغ هو الوقت الذى بقى لنا لنملكه ونملك أنفسنا فيه ، بعد أن قضينا وقت العمل مملوكين مسخرين لما نزاوله من شواغل العيش وتكاليف الضرورة .

قرأت مرة فى تاريخ أمريكا الشمالية أن الإنجليز والفرنسيين تسابقوا على استعمار «كندا» فنجح الإنجليز حيث أخفق الفرنسيون . . لماذا ؟

زعموا فى تعليل ذلك – وأصابوا – أن استعمار القفار من الأرض البور يحت
إلى قضاء الأوقات الطوال فى عزلة عن المدن الحافلة ، وأن الإنجليز نجحوا
استعمار تلك الأرض لأنهم يستطيعون أن يقضوا أوقات الفراغ منفردين منعزلين
وأن الفرنسى لا يطيق العزلة ولا يحتمل أن يفرغ لنفسه ولا يزال فى شوق
المدينة لقضاء السهرات والأصائل بين الناس فى الأندية والمجتمعات ، فتة
ميدان الخلاء لمن هم قادرون عليه . .

* * *

ويصدق علينا فى الشرق ما يصدق على الفرنسيين ، فإن الإنسان منا لا يستـ
أن يجد فى نفسه ما يشغله ساعة فراغ ، ولا يحس بفراغ من الوقت حتى ؛
بالطرقات والقهوات .

ولا يهتدى بعد الحث الطويل فى أعماق ضميره وأطواء دماغه إلى شىء يملأ
ذلك الفراغ .

إن كان قصارى ما أصاب الفرنسيين من هذه الخصلة أنهم أخفقوا فى استعـ
«كندا» . . فالأمر معنا أخطر وأعظم ، فلعلنا لم نذهب فريسة الاستعمار إلا لأ
فارغون ، وأننا لا نجد فى نفوسنا ما ننطوى عليه !

قيل عن «أسبرطة» إنهم كانوا ينبذون الطفل الضعيف فى العراء ، وأنهم كـ
يمتحنون قوة الأطفال بوضعهم فى إناء مملوء بالنبيذ ، فمن بقى منهم مفيقًا بـ
هذه التجربة أبقوه واستحق عندهم عناء التربية ، ومن ظهر عليه التخدر والسـ
أهلوه ونبذوه . .

ولو أننى أردت امتحان الأقوياء من الرجال لما تركتهم فترة فى آنية النبيذ
تركتهم فترات فى مكان مغلق يقضون فيه ساعات فراغهم ، فمن صبر على ه
الساعات فهو رجل ملآن بقوة الفكر وقوة الخلق وقوة الاحتمال ، ومن لم يصـ
عليها فهو الفراغ الذى لا خير فيه .

* * *

ماذا نتعلم من ساعات الفراغ ؟

نتعلم منها كل شىء ، ولا نتعلم شيئًا من الحوادث أو الكتب أو الأعمال
احتجنا بعده أن نتعلمه مرة أخرى فى وقت فراغ . .

فالمعارف التى نجمعها من التجارب والكتب محصول نفيس ، ولكنه محصول لا يفيدنا ما لم نغربله ونوزعه على مواضعه من خزائن العقل والضمير . .
ولن تتيسر لنا هذه الغربلة وهذا التوزيع فى غير أوقات الفراغ . . .
إن معارف التجربة والاطلاع زرع فى حقله ينتظر الحصاد والجمع والتخزين ، ولا فائدة للحرث والسقى والرعاية ما لم تأت بعد ذلك ساعة التخزين . .
وهى ساعة الفراغ . .
ساعة هى ألزم لنا من ساعات العمل ، لأن العمل كله موقوف عليها فى النهاية ، فلا ثمرة لأعمال الحياة بغير فراغ الحياة .
ولولا أننا نخشى أن يقدس الناس الفراغ لقلنا إن تاريخ الإنسانية من أوله إلى عهده الحاضر مدين لساعات الفراغ .
لقد عرف التاريخ الإنسانى أقوامًا فارغين جنوا عليه بفراغهم أشنع الجنايات ودفعوا به إلى الحرب تارة وإلى الفتنة تارة أخرى لأنهم وجدوا أمامهم متسعًا من الفراغ يعيشون فيه .
ولكننا - حتى مع هذا - لا نستغنى عن ثمرات ذلك الفراغ جميعًا دون أن تجازف بالجانب الصالح النافع من تاريخ الإنسان .
ماذا يبقى من تاريخ الإنسانية لولا الفارغون الذين اتسعت أوقاتهم للبذخ والترف بين الحلى والحلل فى ظلال القصور ؟
من كان يجوب الأرض ويمخر عباب البحر ليجلب الحرير والبهار والحجر النفيس والحجر الذى تبنى به الصروح ؟
من كان يتعلم الملاحة ؟ من كان يتعلم صناعة السفن ؟ ومن كان يتعلم النسيج؟ من كان يستخرج اللآلئ أو يبحث عن شذور الذهب والفضة ؟ من كان يرسل القوافل ويحذق فنون التجارة ؟ من كان يرصد النجوم ويدرس حركة الأفلاك فى السماء ؟
من كان يعرف هذه الأعمال التى يعيش عليها الملايين لولا ذلك الفراغ الذى تقدم به الزمن فى تواريخ الأمم !
لقد كان فراغًا ذميمًا فى أكثر نواحيه ، ولكنه على مذمته قد أفادنا درسا خالدا لا يصح أن ننساه . ذلك الدرس الخالد هو حاجة الناس جميعًا إلى أوقات الفراغ ، فهى شىء لا غنى عنه فى حياة أمة ولا فى حياة أحد . .

وحبذا قضاء الفراغ كله فيما هو خير . ولكننا إذا خيرنا بين الفراغ بخيره وشره وبين ضياع الفراغ كله لا اخترنا أهون الشرين .

إن العقلاء من أصحاب الأعمال يطلبون اليوم متسعا من الفراغ لعمالهم بعد أن كان طلب الفراغ مقصورًا على العمال .

فالعامل الذى ينفق بعض الوقت ينفق بعض المال فتدور الحركة - حركة البيع والشراء فى الأسواق .

حسبة من حساب الحرص لا من حساب الإسراف ، وحسبة يرضى عنها علم الاقتصاد ولا يغضب عليها علم الأخلاق .

والاقتصاد الأعظم بعد هذا وذاك هو الذى تعلمناه ونتعلمه من تاريخ الإنسانية من أوله إلى عهده الحاضر .

لابد من فراغ ! . .

ولابد من فراغ نحفظه !

والفراغ الذى نحفظه هو الذى يحفظنا ، لأننا نستخلص فيه خير ما ندخره من غربلة التجارب والمعارف والعظات .

* * *

إنها كانت ساعة من ساعات كارتر البوليس السرى المشهور ذلك أنى كنت مدة الحرب العالمية الأولى «ناظر المدرسة الإسلامية بأسوان» وكان عندنا إذ ذاك مدير متألة طالما كابد الأهالى من غطرسته شرا . وصادف أن وقعت حادثة إلقاء القنبلة على السلطان حسين كامل فنجا منها واحتفلت البلاد بنجاته ، وكان حقا علينا أن تحتفل مدرستنا بهذه المناسبة فلما أعددت العدة لهذا الاحتفال دعوت سعادة المدير لحضوره ولكنه لم يقبل ، فاحتججت عليه فى ذلك فكان جوابه أن طوق المدرسة بخيله ورجله ، فرفعت عنه تقريرًا إلى السلطان حسين . . فلما وصل عظمته استدعى المدير إلى القاهرة وأطلعه شكواى . ويظهر أنه أنبه تأنيبًا شديدًا ، إذ ما عاد المدير حتى استدعانى . . فلما حضرت إلى مكتبه جلست على أحد المقاعد التى فيه ، فما كان منه إلا أن انتفض قائلا : «قف أمامى يا أفندى» فلم أملك أمام تلك الفظاظة إلا أن أقول له : «ولأى شىء هذه الكراسى المرصوصة التى اشترتها الحكومة للجلوس فى هذا المكتب ؟» فبهت الرجل من هذه الإجابة . . ولكننى تركته وانصرفت ، فتهيج الرجل وأمر أعوانه باللحاق بى . فلما رجعت إليه يهددنى بالنفى إلى «مالطة» وأنا أعلم أن النفى إلى «مالطة» إذ ذاك معناه الإعدام لأن صحتى كانت لا تسمح لى بتحمله ، ولكنى لم أعبأ بذلك وقلت له : «افعل ما تريد» وانصرفت . .

وكان مفتش الداخلية إذ ذاك فى أسوان ، وكنت فى هذه المدة تحت المراقبة . . وكان يلازمنى عسكرى بوليس أينما ذهبت نهارا ، فإذا جاء الليل وقف على باب دارى غفير إلى الصباح ، وهكذا دواليك . . فما أن وقعت تلك الحادثة بينى وبين المدير حتى أخذ يشدد علىّ المراقبة ، وكتبت خطابًا إلى رئيس جمعية المدرسة بفصلى ، ثم جعل يرسل التقارير ضدى إلى الداخلية ، ويزعم أنى أقوم بتهييج الأهالى . واستقر رأيه هو ومفتش الداخلية على نفيى إلى «مالطة» ولكن قبل أن أنتظر موافقة الداخلية دبرت طريقة للخروج من أسوان . ففى ذات يوم وضعت «عفشى» فى قفة من قفف الطحين وغطيته بطبقة من القمح ، وأرسلت القفة إلى بيت أحد أقاربى بالبلدة ، وهناك وضعوا «العفش» فى «شنطة» وأخذها

أحدهم إلى المحطة الثانية التى تلى أسوان ، وفى اليوم الثانى كلفت صديقًا لى بأن يقطع تذكرة من محطة أسوان إلى الأقصر . .

بقى أمر خروجى أنا من المنزل مع هذه المراقبة الشديدة التى تستمر صباحًا ومساء . . . فلم أجد وسيلة إلا تكليف أحد أقاربى بإحداث «شكلة» مع أحد المارة بقصد إبعاد الغفير عن البيت - وقد كان - وأثناء اشتغال الغفير بالمتنازعين خرجت ورفيق لى إلى ظاهر البلدة حيث كنا أعددنا الحمير للركوب فى المساء . . فما أن ركبنا حتى حثثنا السير إلى المحطة الثانية . فلما وصلنا إليها وجدنا حامل التذكرة المذكورة ، فأخذتها منه واعتليت القطار . ولسوء الحظ وجدت فى المركبة التى دخلتها معاون بوليس أسوان مسافرًا لكتابة محضر حريق فى «كوم امبو» فأحرجت ، وكانت تلك الساعة ما بين محطة أسوان ومحطة كوم امبو هى أحرج ساعة فى حياتى ، ولكنها مضت بخير ، ووصلت إلى القاهرة بعد أن انتقلت إلى قطارين آخرين بقصد التمويه على إدارة أسوان حتى لا ترسل من يلحق بى فى الطريق ، ولما حضرت إلى القاهرة أخذت أقابل ولاة الأمور فى شأنى . وبينما كنت أقابلهم للشكوى من المدير كان هو يكتب إليهم التقرير إثر التقرير ، ويزعم أنى أقوم فى ذلك الوقت بتحريض الناس وتهييجهم فى أسوان مما أدى إلى افتضاح كذبه وإحالته على المعاش .

* * *

كنت شيخًا فى شبابى

كنت شيخًا فى الشباب ، فلا عجب أن أكون شابًا فى الشيخوخة .. قياس منطقى غير صحيح كما يظهر لأول وهلة ..

فإذا كانت الشيخوخة قد بكرت إلى الفتى فى إبان شبابه ، فالمعقول أن يصبح شيخًا قبل الأوان ، وأن يأتى عليه السن وليست فيه بقية من الشباب ..

هذا هو المعقول ، ولكن لأول نظرة كما تقدم ..

أما بعد نظرة أو نظرات فالمعقول غير هذا على التحقيق .

المعقول بعد النظرة والتجربة أن الشباب المرح المندفع فى شِرَّته وعنفوانه يبعثر قواه عاجلا ، ويستنفد رأس ماله سريعًا ، فيخطو إلى الشيخوخة خطوات واسعات كأنه يسير إليها بكل قوة الصبا والفتوة !

إن الشباب الذى يحس الشيخوخة قبل أوانها يتأنى ويتئد ، فلا يصل إلى شيخوخته فى الأوان ..

وهذا هو المعقول فى القياس .

وهذا هو المعقول لأنه هو الواقع الذى أعلمه من نفسى كيفما كان حكم القياس ..

نعم .. لقد كنت شيخًا فى الشباب ، وأصح من هذا أن أقول : بل كنت شيخًا فى الطفولة الأولى قبل أن أجاوز سبع سنوات .

ولا أطيل فى وصف العوارض والبدوات التى تدل على أطوار الشيخوخة فى تلك السن المبكرة ، فإن طورًا واحدًا يغنى عن عشرات الأطوار ، وحسبى أن أذكر أننى لم ألبس قط بنطلونًا قصيرًا ، وأصررت كل الإصرار على رفضه مع فرحى بالملابس الجديدة المجهزة لدخول المدرسة مع زملائى وأقاربى ، وقد كنت من أصغر التلاميذ سنًا فى السنة الأولى الابتدائية ، وكانوا جميعًا بالبنطلونات القصيرة ما عداى ، فقد أصبح إيجاد البنطلون الطويل لمن كان فى مثل سنى مشكلة تجارية فى المدينة الصغيرة ، لو لم يسعفنى طول القامة الذى جعلنى أطول من لداتى بنحو سنتين !

هذا المثل يغنى عن أمثال ..

* * *

وأحسب أن هذا الشعور قد لازمنى فى كل مرحلة من مراحل حياتى ، وأحسبنى أشير إليه حين قلت أخاطب الشيب وأنا فى السادسة والعشرين :

دُونَ الثَّلاثِينَ تَعْرونى وَمَا انْصَرَمَتْ ... إلاَّ كمَا تنقَضِى الأَعوَامُ فى الحُلم!

قُلْ لابن تسعين لا تَحْزَنْ فَذَا رَجُلٌ ... دُونَ الثلاثِينَ قد سَاوَاكَ فى الهَرَمِ

إذا ادَّكَرْتَ شَبَابًا فى النَعِيم مَضَى ... لم يَدَّكِرْ مِنْ شَبابِ كَانَ أوْ نعَمِ

وما انتِفَاعِى وقد شَابَ الفُؤَادُ سُدًى ... أنْ لَمْ أشِبْ أَبدًا كفى ولا قَدَمى

وليسَ ما يَخْدَعُ الفِتْيَانَ يَخْدَعُنى ... كَلا ، ولاَ شِيَمُ الفِتْيَانِ مِنْ شِيَمى

وهو الصحيح ، فلم تكن شيم الفتيان قط من شيمى ، وأعى بها اللهو والغى والتمادى فى طلب المتعة والسرور ، وهذا التحفظ الذى لم يفارقنى فترة فى حياتى هو «القصد» الطبيعى الذى حفظ لى ثروة الفتوة ، فجاوزت الستين وأنا أعمل عملى فى العشرين وفى الثلاثين وفى الأربعين ، وقد أزيد عليه . .

وهذا هو المقياس الصحيح لدوام قوة الشباب ، ولكنه مقياس واحد من عدة مقاييس ، يكثر ترددها فى مثل هذا المقام .

فعندهم مقياس الشعور ، وأصحاب هذا المقياس يقولون ما معناه ، عمرك شعورك أو أنك تبلغ العمر الذى تحس أنك بلغته ، فأنت فى الثلاثين إن شعرت شعور ابن الثلاثين ، وأنت فى الستين إن شعرت شعور ابن ستين ، وإن كانت تذكرة ميلادك تقول أنك لم تبلغ نصفها من السنين . .

وعندهم مقياس القلب والهوى ، وأصحاب هذا المقياس يقولون أنك شاب إذا كانت الفتاة تسعدك وتشقيك ، وكهل إذا كانت تسعدك ولا تشقيك ، وشيخ إذا كانت لا تسعدك ولا تشقيك .

أى أنك شاب ما دمت تنخدع بالهوى ، وما دمت تطلبه ، فإن أصبحت لا تنخدع به ، ولا تطلبه ، فقد جاوزت الشباب وجاوزت الكهولة بعد الشباب .

وشاعرنا العربى على هذا المذهب حين قال :

يا عزّ هل لك فى شيخ فَتى أَبًا ... وقد يكون شَبَابٌ غيرُ فِتْيَانِ

وعندهم مقياس الهمة والطّموح ، وأصحاب هذا المقياس يحسبون المرء شابا ما دام له مطمع فى المجد والعظمة ، فإن ونى وقنع فهو هرم الهمة وإن كان فتى الأيام . .

وعندهم من يقول إن الخمسين شباب الشيخوخة وشيخوخة الشباب ..

ولكنها كلها مقاييس عامة لجميع الناس ، وإنما المقياس الخاص ما يقيسك بنوع عملك أو شغل نفسك الذى لازمك فى كل الأعمار ، فإذا استطعت فى الستين عملا كنت تقدر عليه وعمرك عشرون أو ثلاثون سنة ، فأنت فى شيخوخة يمازجها الشباب ، ومهما يقل أصحاب مقياس الشعور ، أو أصحاب القلب والهوى ، أو أصحاب مقياس الهمة والطموح ، أو أصحاب مقياس الخمسين ..

والمقياس الواحد الذى أقيس به جهدى فى جميع أدوار حياتى هو النهم إلى المعرفة ، فإننى لا أذكر سنا لم أكن فيها أحب أن أعرف ، وأن أقرأ وأن أختبر ، وأن أفيد من كل ذلك توسعه فى آفاق الشعور .

صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم تخيلنى فى بعض كتبه قد دخلت الجنة وذهبت أطوف فى أرجائها عسى أن أرى وجهة مكتبة أقف أمامها ، وأتأمل عناوين الكتب فيها ، فلما طال بى المطاف ولم أجد مكتبة ولا كتبا ضججت منها وطفقت أقول :

«ما هذا ؟ .. جنة بغير كتب ؟ ..» .

وصديقنا الحكيم لم يبالغ فى تخيله ، لأننى فعلا لا أستطيع أن أعيش فى جنة لا أطلع فيها .. نعم لا أطلع فيها ، وليس من الضرورى أن أقرأ فى كتاب ..

وأود أن ألفت القارئ إلى هذا الفارق المهم جدا فى نظرى بين القراءة والاطلاع ..

فقد يقرأ الإنسان ولا يطلع ، وقد يطلع ولا يقرأ ، فالقراءة هى إحدى وسائل الاطلاع ، وليست هى وسيلته الوحيدة ....

ولماذا لا نطلع فى الجنة ؟ ..

يجب أن نطلع فى الجنة قبل غيرها ، لأن المكان الذى تسكنه وتحب أن تسكنه هو أحق الأمكنة أن تطلع عليه وتعرف كل ما قيل فيه ، وكل ما خطر بالبال عنه ، وكل ما خامر به النفوس غير نفسك من خوالج الغبطة والشوق والرغبة والاستطلاع .

يجب أن نطلع فى الجنة لأن الساعة الحاضرة فيها لا تكفينا ، ومن حقها علينا أن نعرفها ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، وأن نحيط فيها بشعورنا وشعور الآخرين الذين اختبروها غير خبرتنا ، وشهدوا منها غير ما شهدناه ..

فإن لم تكن لنا وسيلة إلى ذلك غير الكتاب فليكن الكتاب فى الجنة ، ولا يعقل أن تنقص الجنة حيث تكمل المدن العامرة فى هذه الدنيا .

ويقول قائل : أقراءةٌ فى الجنة ؟ .. إذن أنت سوسة كتب يا صاح ! ..

كلا أيها القائل ، وهذه غلطتك الكبرى . فإن سوسة الكتب هو الذى يعيش فى الكتب كما يعيش السوس ، وأما الذى يقرأ الكتاب ليوسع حياته فى العالم ، فالكتاب عنده طريق إلى عالمه ، أو هو نظارة يكبر بها نظره ليضاعف رؤيته ، فهو من صميم الحياة وليس بالصومعة التى تعزل ساكنها عن الحياة ..

وأيا كان الرأى فى طلب المعرفة فالواقع أنها هى المقياس الذى أعرف به ما بقى لى من الشباب ، لأنها هى العمل الواحد الذى حصل بالأمس وسيحصل اليوم وسيحصل غدًا إلى أن يشاء الله .

* * *

وأحمد اللّه لم يتغير من ذلك شىء إلا قوة النظر على طول القراءة ، فليس فى طاقتى اليوم أن أثابر على القراءة أكثر من ساعة واحدة ثم أستريح هنيهة قبل أن أعاودها ، وقد كانت تطول فى إبان الشباب بضع ساعات متواصلات .

وأحمد اللّه مرة أخرى ، لأنه نقص يقابله عوض حسن ، فالساعة اليوم أبرك من ساعات ، مع المرانة على التحصيل وعلى الكتابة والتسجيل .

ولا أرانى صنعت معجزة إذا احتفظت بهذا القسط من الشباب ، لأنه حظ يصيبه من شاء ، وأخال طريقتى فى إصابته من أيسر الطرق للجميع ..

فلى وقت للعمل ، ولى وقت للرياضة ، ولى يوم كل أسبوع أكف فيه عن كل عمل وكل قراءة حتى مطالعة الصحف وفض رسائل البريد ، ولى مواعيد للطعام والنوم لا تختل فى يوم ، ولى قاعدة عامة تشمل العمل والرياضة والطعام والجد واللهو والبطالة ، وهى التوسط بين الإفراط والتفريط ..

وقبل ذلك كله كانت لى شيخوخة فى مقتبل الشباب .

ولم يخل شبابى من الشيخوخة فمن الحق ألا تخلو شيخوختى من الشباب ..

* * *

أصدقائي وأعدائي

لى بحمد الله أصدقاء ..
ولى كذلك أعداء بحمد الله ..
وأحمد الله على الأصدقاء حمد الغبطة والرضا والمسرة ..
وأحمد الله على الأعداء حمد الإنعام بالبلوى ..
وقد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ..
ويبتلى الله ببعض القوم بالنعم ..
كما قال أبو تمام ..

ومن الأعداء من تود لو تشتريه بمالك وسعيك ، إذا أنت افتقدته فلم تجد من حولك ..

ومن حقك أن تشترى بالمال والسعى عدوا يزينك بمخالفته إياك ، فإنه لا يزينك بهذه المخالفة إلا إذا كان على خلق يعيبه ولا يشرف من يوافقه عليه ..

ومن حقك أن تشترى العدو الذى لا يعاديك إلا حسدًا على النعمة ، فليس أسوأ حالا من إنسان على حالة لا يحسد عليها ، وليس من الخير اتقاء حسده بخسارة نعمتك ..

ومن حقك أن تحرص على الأعداء الذين يقولون بعداواتهم لك إنك تضر وتنفع ، فمن لا يضر ولا ينفع موجود لا يحس له وجود ، ولا ضير عليك أن يخال بعض الناس أن تضره أكبر الضرر أو أصغره ، فإن من الناس لمن يكون ضرره عقوبة على الشر ، وإن منهم لمن يجهل ضرره ونفعه ، وإن منهم لمن يبتليه الله بالضرر لصلاح أمره ، ومن يكون ضرره فى نفسه كضرر عداوته لغيره .

فعلى عداوة هؤلاء جميعًا نحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، ولكنه مكروه يستزاد .

وعلى صداقة من يبقى لنا بعد عداواتهم فلنحمد الله ، حمدًا لله ، ثم حمدًا لله ..

وحمدًا لله مرة بعد مرة ، لأننى لا أصادق أحدا ولا أعاديه فى مأرب من مآرب النفس ولا فى صغيرة من صغائر الضعف الذى يبتلى به كل إنسان ، فما عرفت

صديقا فعرفت لصداقتى له سببا غير فكرة نشترك فيها أو مطلب من مطالب الأدب تتفق عليه ، أو غاية من الغايات العامة نسلك السبيل إليها ، أو طرفة من طرف الراحة الروحية تعم كل من يستريح إليها ، ولا تخصنى أو تخصه بداع من دواعى الأثرة والمحاباة .

وكذلك أعدائى الكثير منهم والقليل ..

أعاديهم ، وأصح من ذلك أنهم هم يعادوننى ، لأننا نتعادى على عقيدة أو خطة أو برنامج أو مصلحة من مصالح الناس ، ونحن من أولئك الناس .

وفى ذلك ألقى العجاب من عداوة النقيضين ، وضغينة العدوين المتعارضين .

لقد حاربت الطغيان وحاربت الفوضى ..

لقد حاربت رؤوس الأموال وحاربت مذاهب الهدم والبغضاء ..

لقد حاربت التبشير وحاربت التقليد الأعمى والدجل المريب باسم الدين ..

لقد حاربت الجمود والرجعية وحاربت الإنكار والجحود ..

لقد حاربت الأحزاب وحاربت الملوك ..

لقد حاربت هتلر ، ونابليون ، وحاربت المستعمرين فى صفوف الديمقراطيين ..

لقد حاربت أعداء الأدب المسمى بالقديم ، وحاربت أصدقاء الأدب المسمى بالجديد ..

لقد حاربت الصهيونية وحاربت النازية أكبر أعداء الصهيونية ..

لقد حاربت جميع هؤلاء فالتقى على محاربتى أناس من جميع هؤلاء ...

صهيونى ، إلى جانب نازى ، إلى جانب فوضوى ، إلى جانب رجعى ، إلى جانب ملحد ، إلى جانب حامل اللحية والعذبة باسم الدين ، إلى جانب الماركسى من اليسار والمبشر من اليمين .

وفى معسكر الأعداء - كما يقال فى لغة المعسكرات - يلتقى «المليونير» والمتشرد ، ويلتقى المعجب بالخنساء والمعجب بساجان ، ويلتقى الصوفى والخليع ، ومن ورائهم معسكر الشاردات من الجنس اللطيف ومعسكر الشاردين من الجنس المخشوشن الكثيف .

جيش جرار بحمد الله ..

نعم بحمد الله حقا وصدقًا حمدين متواترين ..

حمدًا للّه «أولا» لأنه أرسل عليّ هذه السيوف المشرعة من كل جانب ، ولكنه أسبغ عليّ الدروع التى تنكسر عليها تلك السيوف ، فقال رب الجنود : أنت «قدهم وقدود» ..

وحمدًا للّه «أولا وأخيرًا» لأنه خصنى من بين هذا العموم بصداقة «الإنسان» حيث كان ، وفى جميع هذه الأشكال والألوان ..

فحيثما اختلفت هذه الجماعة وتلك الجماعة ، وحيثما افترقت الأسماء والأزياء ، فالإنسان الذى يكمن فى كل مكان وراء العناوين والجدران ، يبسط يديه إلىّ ، ويلتقى بصاحبه لدىّ ، ويتقلب على حزبه ولو كان مستخفيًا فى سرية ، فهم شيع وأحزاب من بعيد ، وهم معى فى محراب «الإنسانية» الوحيد ، صديق رشيد إلى جانب صديق رشيد ..

ولا تنسى من هذه الأشكال والألوان ، عباد الأصنام والأوثان ..

والأوثان هنا هى أوثان المظاهر والألقاب لا أوثان المذاهب والأرباب ..

ولقد نكب هذا البلد المسكين بداء الاستبداد القديم ، فوقر فى أخلاد بنيه على توالى العصور أن قيم الناس مرهونة بتقدير الحاكم المطلق المتصرف فى الأقدار والمقامات ، فلا قدر لإنسان بغير مظهر ، ولا مقام لأحد بغير لقب ، ولا جاه ولا حسب ولا علم ولا يقين بغير صيغة مرسومة فى سجلات الدواوين ..

وبلغ من عبادة الأوثان أن «الصوفية» خلقت فى هذا البلد منذ قرون فما لبثت أن عاشت على المظاهر والألقاب ، وعلى الشيع والأحزاب ، بين عريف ووكيل ورئيس ، وبين منتسب إلى هذا الضريح ومنتسب إلى ذلك الهيكل أو تلك الزاوية أو ذلك الكنيس .. ! ومعهم كلهم ألوان من الشارات وأشتات من الرايات والفوانيس .. وإنهم لكذلك وهم يتصوفون ويتقشفون ، أو هكذا يقولون لينبذوا مظاهر الدنيا وألقاب التعظيم والتقديس ..

وقبل أن تتحطم هذه الأوثان ، يظهر فى هذا البلد مخلوق وأى مخلوق ، وقل إن شئت إنسان وأى إنسان ..

أديب مشهور ، وليس بليسانس ولا دكتور .

وعضو فى مجلس الأعيان ، وليس فى حوزته نصف فدان ..

وليس ببيك ولا باشا ، ولكنه يقول للبيك والباشا : كلا وحاشا ! ..

وصاحب أعوان وأنصار ، وما هو بزعيم حزب ولا بصاحب عصبية ، ولا مصطبة ولا دوار ..

وفقير جد فقير ، ولكن ليس بهين ولا حقير . .
وصاحب قلم مسموع الصرير مرهوب النفير ، ولكن ليس بصاحب صحيفة ولا بمدير ولا برئيس تحرير ، ولا سكرتير تحرير . .
يا حفيظ . .
شىء يجنن . .
ويزيد المغيظين من هذا «المقتحم المتهجم» أن يهاجم «الأصلاء» فلا يبالى هجومًا عليه ، أو يباليه ولكنه بأصبع واحدة من إحدى يديه ، يرده على عقبيه . .
ياحفيظ . . شىء يجنن شىء يغيظ !
ولقد أراحنا اللّه من هذه الأوثان فى عالم الرتب والنياشين ، وبقى الطقم الأخير من أوثان الألقاب والمظاهر فى عالم «العلم» المحجوز على ذمة المعاهد والدواوين . .
وكان خليقًا بهذا الوثن المتخلف أن يتحطم أو يتهشم أو يقبع فى عقر داره بعيدًا عن الأنظار والأسماع ، ولكنه – وهو الوثن «الحيلة» والبقية الباقية من القبيلة – قد ضوعفت حوله القناديل والقرابين ، وأوشك وحده أن يخلف أوثان الدنيا والدين . .
وأغيظ ما يكون عابد الوثن إذا كان للوثن صلاته وصيامه وكان حول الوثن طوافه وقيامه ، وكان لكل حقه فى سمعة العلم مرهونًا بلقبه ، وكل توهين لشأن هذا اللقب موهنا لحجته فى دعواه ، وما من حجة سواه . .
إن من أهل العلم من هو على موثق من فضله ، ومن هو فى غنى عن قشور المظهر بلبابة ، فلا موضع لضغائر الدعوى فى سبيل هذه النافلة عنده ، ولى صديق فى كل إنسان وكل ذى أمانة من هؤلاء ، ولهم حق على الناس أراه على سنة الإنصاف والوفاء ، ولكننى أدعو اللّه ألا يحرمنى من عداوة مدع دخيل على حرم المعرفة وحرمتها : نكرانه للفضل على قدر شعوره بعرفان غيره ، وكفرانه بالحق على قدر صواب المحق لا على قدر خطئه ، فإن الذى لا صواب له يكفى الحقادين مئونة النقمة عليه واللجاجة فى مذمة عمله وبخس جهده واجتهاده . .
والحمد للّه على عداوة هؤلاء ، ووقانا اللّه شر الرضا من هؤلاء ، وشر الصداقة والأصدقاء «الألداء» من هؤلاء وأشباه هؤلاء . .
ولست أحدث القارئ بجديد فى أمر العداوة على المظهر والعنوان ، ولا فى أمر الغيرة على الأصنام والأوثان ، وأقبحها أوثان المظاهر والعناوين فى أمة شقيت طويلا بأرباب الطغيان ، قبل أرباب الأديان . .

ولكننى أود لو يعلمون كم يبلغ العابدون فى محراب هذه الوثنية من أهلها ومن غير أهلها ، فإنهم لكثيرون بل جد كثيرين . .!

فإن بين المحرومين من كل مظهر لمن هو أخلص عبادة لهذا الوثن من أقرب المقربين إليه ، وأوفرهم حظا من نعمته ، لأنه ينقم عليك أن تساويه فى مظهره ولا تساويه فى هواه ، وأن تعلو حيث يهبط وترتفع حيث ينحدر ، وتسلم لك الشهادة حيث تبطل عندك المكابرة واللجاجة ، فلا يقاربك بواقعه ولا بدعواه !

وخذ مثلا من هؤلاء العباد «المتطوعين» ، مخلوقا عرفته لا له فى العلم ولا فى دعواه ، ولا يخطر له يومًا أن يحسب فى زمرة العلماء من حملة الألقاب ولا فى زمرة العلماء العاطلين ، ولا العلماء المغمورين والمجهولين المنسيين ، بل لعله - وهو طرزى بلدى - لم يطمع إلى مزيد من الشهرة فوق مكانته بين أهل الصناعة ، ناجحين أو كاسدين . .

ولكنه كان أغيظ ما يغيظه أن ينهض الناس تحية لفاضل من فضلاء عصره لم يكن من ذوى الألقاب والأحساب ، ولكنه كان موفور القدر فى أعين ذويها ، وفى أعين الناس ممن يعبر بهم فى طريق الطرزى ، من ميدان التوفيقية حيث يسكن ، إلى قهوة «الاسبلندد» حيث يتلقى بالإخوان والصحاب ، وأكثرهم من ذوى المراتب والمظاهر ، وكلهم يلقاه بذلك التوقير وذلك الترحاب . .!

وينفجر الطرزى غيظا وقد عبر الرجل الفاضل أمام دكانه ، وقد وقفت أتحدث إلى صديق لقيته فى ذلك الدكان فكدت أحسبها ترة من ترات الدم بين ذلك الطرزى وذلك الفاضل الموقر بغير لقب ولاحسب ، ولا جاه ولا مال . . قلت له : أتعرفه؟ . .

قال : لا واللّه ، ولكننى عرفت حاله - وهو «غلبان» فى بيته وفى مأكله ومشربه وكسائه فعجبت : ما هذه النفخة فى غير شىء ؟ . . وما هذا التوقير من هؤلاء المغفلين لإنسان لا يحسب من «الأفندية» ولا البكوات . . إلا بتقليد اللسان : «حتى مش بيه إلا بالكذب» . .

ولقد عرفت الرجل فلا واللّه ما عرفت عليه سمة من سمات «النفخة» التى ادعاها عليه ، ولكنه كان لا يقبع فى حاله - كما قال - وهو يعلم أنه ليس من «البشوات» ولا من أصحاب المناصب والأموال . .

وحول «الأوثان» ألوف من هؤلاء العباد «المتطوعين» ذهبت لهم دولة الرتب والنياشين ، ولكنهم حول الوثن الأخير لا يزالون راكعين ساجدين ، وفاء لعهد المذلة والعادة ، وإن فاتهم كل وفاء لكل علم ولكل دين . .

أزاهير الرياض بشائر الخير والجمال ، وترجمان الربيع بالألوان والعطور ، والناس يحبونها ولا يعجبون من حبها ، بل لعلهم يعجبون إذا قيل لهم إن هذا أو ذاك لا يحب الأزاهير . . .

ولكنهم قد يحسبون أن حب الأطفال «خبر» يروونه عن هذا أو ذاك ويفسرونه كما يفسرون غرائب الأخبار . .

أتراهم يظنون أن نضرة الزهرة أجمل من نضرة الطفل الصغير ؟ . .

ولا نخالهم يظنون ذلك ، ولكنها «الأنانية» تدخل هنا فى الحساب ، فتضلهم عن حسن التقدير . .

لأنهم تعودوا كلما ذكروا الأطفال أن يتصوروهم أبناء لآباء وأمهات . . فإذا سمعوا أن الأب يحب وليده وأن الأم تحب صغيرها فلا عجب ولا حاجة إلى خبر . .

ولكن ما بال من ليس بأب يحب أبناء آبائهم وهم عنه غرباء ؟ . .

هذا هو وسواس الأنانية الذى يدخل فى الحساب فيضل الخيال عن التقدير الصحيح . .

أما الواقع - بمعزل عن هذه الأنانية - فهو أن الأطفال محبوبون لأنهم أزاهير الإنسانية وترجمان ربيعها ، محبوبون لأنهم بشائر الشباب والحياة . .

بل هم محبوبون ، وينبغى أن يحبوا ، لأننا نتعلم منهم ، ولأننا نستمتع فى صحبتهم برياضة من رياضات النفس تجدد لنا كل شىء ، ولأنهم عزاء ، وأى عزاء حتى حين يبكون بكاء الطفولة الساذج المضحك المأمون . .

إنهم معلمون من الطراز الأول . . لأن أخلاق الإنسانية مكتوبة فى نفوسهم بالخط البارز الذى تقرؤه لأول نظرة ، وهى فى نفوس الكبار ضامرة أو مصفحة أو ملتبسة بوشى الرياء وزركشة العرف وزخارف التكلف والتمويه . .

إن معلمينا الصغار لا يكتمون شيئًا ، وكل ما كتموه أبرزوه وضاعفوا إبرازه ، فمن لم يتعلم حقائق الضمير الإنسانى من الطفل فما هو بمستفيد شيئًا من علوم الكبار ، ولو كانوا من كبار العلماء . .

وصحبة الطفل الصغير رياضة وما أجملها من رياضة . .

إن الأوروبيين يعبرون عن الرياضة بالخلق الجديد recreation كأنهم يقولون إن الترويح عن النفس يخلقها خلقًا جديدًا ويعيدها نشأة أخرى كما كانت أو خيرًا مما كانت عليه . .

والطفل يريك هذا الكون قشيبا عجيبا كأنك تراه خارجا من يد اللّه فى يوم الخليقة الأول . .

إن الصغير الذى يرفع العصا ليدركك بها القمر يعود بك كما كنت يوم ملأت عينيك من القمر أول مرة ، فزعم لك خيالك الطريف أنه على مد الذراع القصيرة ، وأنه إذا احتاج منك إلى جهد فغاية هذا الجهد أن تصعد إلى سقف وترفع العصا إليه ، فتنزل به إليك !

إن التليفون لا يدهشك إذا نظرته أو استمعت إليه ، ولكنه يملؤك بالدهشة كلما حدثت طفلا من وراء المسافات البعيدة فسمعته يهلل ويصيح على من حوله أن ينظروا إليك مختبئًا فى جوف السماعة المسحورة . . وأكبر عجبه أن تحتويك تلك السماعة وهى تضيق عن كفيه الصغيرتين .

إن كل محادثة مع الطفل عن هذه المنظورات المملة المطروقة إنما هى احتفال برفع الستار للمرة الأولى عن تلك المنظورات العتيقة . . كأنها أعجوبة لم تقع عليها من قبل عينان .

وهؤلاء الصغار عزاء . . مثله عزاء الحكماء . .

ألا يبكون من مصائبهم التى تضحك الثكلى ؟ ألا تعلم من هذا البكاء المضحك أننا سنضحك غدا مما يبكينا فى هذه الساعة ؟ ألا نعود إلى ماكان يبكينا فى طفولتنا فنعلم أن كثيرًا من البكاء هزل ، وأن كثيرًا من العزاء جد ويقين ؟

ولهم محرجات تخنق فى حينها ولكنها حتى حين «تخنقنا» من الحرج تكاد تخنقنا من الضحك المكتوم .

وكلكم عرفتم هذه المحرجات وتعرفونها وستعرفونها ، فأنتم في غنى عن الإفاضة فى سرد الأمثال والنوادر ، وقد تذكركم نادرة واحدة بمئات من هذه الأمثال . .

حضرنا مجلسنا كان فيه رجل وقور أعور بين العور ، وفى الدار طفل فى الثالثة من عمره ، سليط اللسان يكاد لا يدخل لسانه فى فمه من فرط الثرثرة والفضول .

ووقف هذا الشرثار على باب الحجرة ، ثم رأيناه يطيل النظر إلى الرجل الوقور الأعور ، ثم اقترب منه وهو يضع إصبعه فى فمه ويرفع نظره إلى العين العوراء . . .

قلنا : يا ساتر استر . إنه لن يسكت ولن يطول الانتظار حتى نسمعه قائلا شيئًا . فما عسى أن يقول ؟

وقبل أن نفرغ من هذا الخاطر رأيناه يصعد على ركبتى الرجل ويمد يده إلى عينه العوراء ويسأله كأنه يسأل عن ساعة أو سلسلة أو خاتم أو حلية مما يثير الفضول :

«لماذا أقفلت عينك هكذا ؟» .

تشاغلنا كأننا لا نسمع لعله يكتفى بسؤال واحد فلا نلجئ الرجل ولا نلجئ أنفسنا إلى حرج .

ولكنه كأنما قد أقسم ليعرفن السر فى تلك الحيلة المستغربة : حيلة هذا المشعوذ الذى يستطيع أن يقفل عينه ، وكل من رآهم حوله لا يستطيعون .

فعاد يلح ويسأل : ألا تقول لى لماذا أقفلت هذه العين ؟

فبطلت الحيلة ، وأخذته أمه جذبا بإحدى ذراعيه ، وخرجت وهى تختنق كما نختنق نحن من الحرج المضحك أو من الضحك المحرج ، وهو مع هذا يمد ذراعه الأخرى غاية امتدادها مشيرًا إلى العين المقفلة ، ويكرر على أمه هذا السؤال : ولكن لماذا يقفلها يا ماما؟ .. ولم تسترح «ماما» منه إلا حين قذفت به إلى داخل الحجرة المجاورة ، وهى تقول ولا تملك نفسها من الغضب والضحك المكتوم : أنت مالك والعينيه!؟

هؤلاء المحرجون «مصائب» فى أوقات الحرج .

إلا أنها المصائب التى نذكرها بعد ضاحكين ، ولا ندرى هل نتمناها أو نتمنى انقطاعها .. فإنها المصائب التى يسوءنا أن تنقطع من الحياة ..

وأى مخلوق أحب إلى القلب من المخلوق الذى يسليك وهو يحرجك ، ويعزيك وهو يبكى أمامك ، ويجددك وهو أنت وهو ينظر إلى كل قديم من حولك ، ويعلمك وأنت تحسب أنك لا تفرغ من تعليمه ، وأن دروسه التى يمليها عليك لأنفع من دروسك التى تمليها عليه .

لكن .. ويالها من لكن !

لكنها كما نعلم جميعًا متعة غالية الثمن . غالية جدا لا نملك ثمنها ، لأنه قاصم للظهور فى كثير من الأحوال .

فنظرة إلى طفل مريض تنسيك متاع الدنيا بأسرها ، وصيحة ألم من ذلك الصغير تزلزل عزائم الأبطال .

أما إذا كان الخطب أجسم من ذلك فلا حول ولا قوة إلا من حول اللّه وقوته .. وكلاهما ليس فى اليدين ..

وجاهل بهذا الخطب من يحسب أن الحزن على الصغير أهون من الحزن على الكبير .

إذ الواقع أن الحزن على الكبار قد يهون عند الحزن على هؤلاء الصغار ، لأنك تحزن عليهم بمقدار تعويلهم عليك ومقدار الرجاء فى غدهم ، وغدهم طويل مفتوح لآمال الخيال ، ونظرتهم إليك وهو مرضى على يديك تطالبك بالمعجزات ، وتعجزك بعد ذلك عن الصبر على ذلك الأمل الذى ضاع فيك وضاع فيهم ، فلا عزاء .

متعة نفيسة وثمن غال ، ومما زهدنى فى اقتناء المتعة النفيسة على غلو الثمن .. ولا أخالنى مع هذا نجوت مما ابتليت به فى طائفة من هؤلاء الأصدقاء الأعزاء ...

* * *

أنا فى السجن ..

فتحت الكوة الصغيرة ، ثم فتح باب الرتاج الكبير ، ثم احتوانا البناء المحفور الذى يعرف فى مصلحة السجون باسم «سجن مصر العمومى» ويعرف على ألسنة الناس باسم «قرة ميدان» أى الميدان الأسود باللغة التركية! ..

وخطر لى - وأنا أخطو الخطوة الأولى فى أرض السجن - - قول الفيلسوف ابن سينا وهو يخطو مثل هذه الخطوة :

دخولى باليقين بلا امتراء ... وكل الشك فى أمر الخروج

فهو تقرير فلسفى صحيح للواقع ! ..

أما الدخول فها هو ذا يقين لا شك فيه ، وأما الشك كل الشك فهو فى أمر الخروج .. متى يكون ، وإلى أين يكون ؟ إلى رجعة قريبة من السجن وإليه ؟ أم إلى عالم الحياة مرة أخرى ؟ أم إلى عالم الأموات ؟

فى تلك اللحظة عاهدت نفسى لئن خرجت إلى عالم الحياة لتكونن زيارتى الأولى إلى عالم الأموات ، أو إلى ساحة الخلد كما سميتها بعد ذلك .. أى ضريح سعد زغلول ..

ولم تقع منى هذه الرحلة بين الدار والسجن[1] موقع المفاجأة ، لأننى كنت أنتظرها منذ زمن طويل ولو على سبيل الحجز الذى ينتهى بإفراج سريع ، ولكننى كنت لا أرى فرقا بين أيام أو أسابيع أقضيها على ذمة التحقيق وبين مدة أقضيها فى الحبس بحكم القضاء ، لأننى كنت أقدر أن حبس التحقيق - وإن قصر - كاف لأن يصيبنى بأكبر الضرر الذى يخشاه الناس من السجن ، وهو ضرر العلة التى لا تزول ، وعلى توقعى الاتهام والحبس كانت الأنباء تتوالى علىّ ما يؤكد

---

(١) فى أوائل سنة ١٩٢٨م اجتمع البرلمان اجتماعًا خاصا فى عهد وزارة الرئيس مصطفى النحاس للبحث فيما يدبر للحياة النيابية بين القصر ودار المندوب السامى ، ووقف عباس محمود العقاد خطيبًا ، فهاجم أعداء الأمة وأعداء الدستور ، ونطق بكلمته المشهورة «إن الأمة على استعداد لسحق أكبر رأس فى البلد يخون الأمة ويعتدى على الدستور» وفهم القصر أن المقصود بهذه الكلمة الملك فؤاد ، وكان العقاد متمتعًا وقتذاك بالحصانة البرلمانية كنائب فى البرلمان ، فلما حلت الحكومة البرلمان .. ثم جاءت حكومة إسماعيل صدقى دبرت قضية العيب فى الذات الملكية من المقالات التى كان يكتبها وقتذاك عن الرجعية ، فقضت المحكمة بحبسه ٩ أشهر من ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٠ إلى ٨ يوليو سنة ١٩٣١ م .

ذلك التوقع من جهات عدة ، وسمعت النبأ اليقين فى هذا الأمر من صديقنا المغفور له سينوت حنا بك ، لقد لقينى مرة فاستوقفنى وقال لى : «حذار يا أستاذ!» فقلت له باسما : «لا يغنى الحذر من القدر!» قال لى : «إننى أروى لك ما علم لا ما أظن : إن مقالاتك تراجع فى بعض الدوائر مراجعة خاصة ، وإنهم ينتظرون يومًا معينًا ربما كتبت فيه ما يساعد على تأييد التهمة ، ثم يقدمونك إلى المحاكمة بما استجمعوا من أدلة قديمة وحديثة !» .

* * *

وكان فى نيتى أن أسافر صيف سنة ١٩٣٠ إلى لندن مع وفد مجلس النواب لتمثيل مصر فى مؤتمر المجالس النيابية الذى عقد تلك السنة فى العاصمة الإنجليزية ، فقد استخرجت جواز السفر السياسى ، واشتريت دليل لندن ودليل العواصم الأوربية التى كنت أنوى زيارتها ، ولم يبق إلا تذكرة السفر والاتفاق على الموعد واللحاق بإخواننا الذين سبقونا إلى باريس ليشهدوا فيها الاحتفالات بعيد الحرية ، ثم بدا لى أننى إذا سافرت فقد أمهد بيدى وسيلة لنفيى فى أوربا سنوات بلا عمل ولا قدرة على البقاء فى ذلك الجو القارس أيام الشتاء ، وربما كان منه عودتى أسهل على الوزارة من محاكمة قد تنتهى بالبراءة أو بعقوبة لا ترضيها . .

فعدلت عن السفر فى اللحظة الأخيرة ، وقلت إن السجن أحب من النفى الذى لا عمل فيه ولا ضمان للصحة ولا للحياة!

وفى اليوم الثانى عشر من شهر أكتوبر دق الجرس أصيلا وأنا وحدى بالمنزل ، لأن أخى كان معتقلا فى قضية «البلطة» المشهورة متهمًا بالتآمر على حياة رئيس الوزراء ، ولأن الخادم لم يعد من راحته الظهرية وصلاته العصرية ، ففتحت الباب فإذا ضابط من رتبة «اليوزباشى» . على ما أذكر يبادرنى بالسؤال :

- هل حضرتك فلان !

قلت : نعم . .

فمد إلىّ ورقة من دفتر فى يده على هيئة ذكرتنى الكونت نيمور وهو يلقى القفاز فى محضر لويس الحادى عشر .

قلت : تفضل أولاً فاجلس .

فتردد فى الدخول ، ثم دخل وجلس ، فتناولت الورقة وقرأت فيها دعوة من صاحب السعادة النائب العمومى للحضور إلى مكتبة فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى ، ووقعت على الدفتر - كما طلب الضابط - بأننى تسلمت الورقة .

وأخذت فى إعداد الكتب التى سأقرأها فى السجن ، والأدوية التى أتعاطاها ، والملابس البيتية التى أحتاج إليها هناك ، وزدت فأعددت الأغطية الصوفية التى تلزمنى للفراش والغطاء ، لأننى كنت حتى تلك الساعة أجهل «تقاليد السجون» وأظن أن الأغطية الخاصة مسموح بها كالملابس الخاصة أثناء التحقيق وفى الفترة التى تسبق المحاكمة ، ثم حضر الطاهى فأريته هذه الأشياء كلها وقلت له : إنه سيحضرها لى فى السجن غدًا عند اللزوم .

فظهر لى أنه لم يفهم .. وأنه ينوى أن يقصد بها سجن الأجانب الذى كان أخى معتقلا فيه .

فقلت له : «بل هى لى أنا فى السجن الذى سيخبرونك عنه غدًا بدار النيابة!» .

ووصفت له الدار واجتهدت أن أفهمه جهد المستطاع ، وذلك جهد يعرف العارفون بالشيخ «أحمد» أنه ليس باليسير !

وذهبت فى الموعد المحدد إلى دار النيابة ، واستغرق التحقيق ساعات ، ثم قال لى حضرة المحقق : «إننى آسف لأننا سنضطر إلى إبقائك عندنا قليلا يا أستاذ !» وبدأ حضرات المحامين يوجهون نظر رجال النيابة الحاضرين إلى «الحيطة الصحية» الواجبة فى هذه الحالة ، ومنها اختيار السجن الذى يوافقنى أثناء الحبس «الاحتياطى» أكثر من سواه ؛ وكان الأساتذة المحامون لحسن الحظ من الخبيرين بمزايا سجون القاهرة التى تردد عليها فى سنوات الثورة السياسية معظم المشتغلين بالقانون والسياسة ، فأضافوا خبرتهم بالسجن إلى خبرتهم بالمحكمة وقدرتهم على النصح السديد للمتهمين والموكلين ، واستحسنوا أن يكون الحبس فى «سجن مصر» لأن الجو فيه أوفق لى من سجن الاستئناف ..

فذهبت مع الضابط والجند فى سيارة خاصة إلى «قرة ميدان» وتخطيت الباب فإذا هدوء غير مألوف لأن الوقت كان وقت الراحة عقب الغداء . وتوجه بى الضابط نحو حجرة الكاتب لتسليم ما عندى من الودائع وكتابة الأوراق التى لابد منها لكل مسجون جديد . وما هى إلا لحظة حتى توافد الموظفون وكثر دخول السجانين ينظرون إلى القادم الذى سرى بينهم نبأ قدومه .. وأخذ كاتب هناك مرح ثرثار يداعبهم واحدا بعد واحد كلما مروا به وتصنعوا سؤاله عما يضمره لهم بريد اليوم . فيقول لأحدهم : «اطمئن .. لقد عينوك مديرًا لمصلحة السجون» .. ثم يحدج ببصره كمن يستغرب دهشته . ويقول : «ألا تصدق؟ آه يا ابن الحلال معذور فإنك فى السجن ولست فى البيمارستان ..» ..

أو يقول لغيره : «تعال هنا .. قرب أذنيك !! قرب أيضًا» .. ثم يناديه بصوت يسمعه كل من فى المكان : «افرح .. نقلوك إلى أسوان . لا تقل لأحد يا ولد !»

وهكذا فى أثناء التسليم والتدوين . فاستعدت فى ذهنى موقف هملت وحفارى القبور . . إذ يغنون وهم فى ذمار الموت !!

الليلة الأولى

لم يكن مكتب الموظفين إلا بمثابة «الأعراف» التى تفصل بين نعيم الحرية وجحيم الاعتقال . ولكنها «أعراف» تنقل من النعيم إلى الجحيم كما تنقل من الجحيم إلى النعيم . . وقد كانت فى اليوم الذى سجلت فيه اسمى بين الداخلين تسجل أسماء شتى للخروج أو للإفراج كما يسمونه فى لغة السجون !

وعبرنا مكتب الموظفين ومكتب المأمور مع ضابط العنبر فى هذه المرة ، لا مع ضابط الشرطة الذى مقامه عند الباب . فاتجه الضابط إلى عنبر «ب» وفتح الباب الحديدى ودخلنا العنبر فكان أول ما صادفنا فيه منظرًا عجيبًا لا تألفه العين :

أناسا بملابسهم العادية جالسين القرفصاء فى صمت لا يلتفت أحدهم يمنه ولا يسرة . ومن ورائهم نفر مكبون على الأيدى كما تمشى الدواب يزحفون زحفًا ، ويتغنى أحدهم بصوت خفيض والباقون يجيبونه بصدى - لا بكلام - يقولون فيه : «هيه هيه» . . أما المغنى فالذى ذكره من أنشودته الآن عبارة واحدة : «راجحه له فيه ! ده عليه سنتين !» .

فقلت : فأل جميل وأيم الله ! وللفأل شأن كبير فى «نفسيات» المسجونين ، كما سيرى القراء فى بعض هذه الذكريات . .

وكان لابد لى من «فرجيل» يصاحبنى كما صاحب الشاعر الإيطالى «دانتى» فى طبقات الجحيم ليدله على أنواع العذاب ودرجات المعذبين . . فمن هؤلاء الجالسون القرفصاء ؟ ومن هؤلاء المكبّون على أربع ؟ أهذا ضرب من العقاب فى مكان العقوبات ؟ وما بال أناس منهم يلبسون ثيابهم العادية على اختلافهم بين المعمم والمطربش ولابس «الطاقية» . . ولا يلبسون كأهل السجون ؟

على أننى لم ألبث طويلا حتى عثرت على الدليل الذى ينوب فى جحيمنا عن فرجيل !

فقد كان على يسار الحجرة التى خصصت لى حجرة للصحفى الظريف على أفندى شاهين رحمه الله . وكان محبوسًا رهن المحاكمة فى قضية مقالات ورسوم قذف بها بعض الوزراء وعلى رأسهم إسماعيل صدقى باشا كبير الوزراء فى تلك الأيام . وكان واقفا عند باب حجرته ينتظرنى بعد أن سبقت البشائر بقدومى

فلقينى مرحبا . وعلى مقربة منه اثنان أو ثلاثة من أهل بولاق «دادائرتى الانتخابية» كانوا فى مؤخرة صفوف الجالسين القرفصاء ، فنهضوا يحيوننى ويهمون بالصياح لولا أن شاهدوا الضابط والسجانين فعادوا جالسين .

وعلمت بعد ذلك بهينهة أن هؤلاء الجالسين القرفصاء هم المحبوسون على ذمة التحقيق ممن آثروا البقاء بملابسهم العادية .

وأنهم جلسوا تلك الساعة فى انتظار الخروج «للطابور» الذى هو موعد الرياضة المصطلح عليه مساء كل يوم . وللمحبوسين شوق إلى موعده يفرحون به أشد من فرح الطلقاء بنزهة الأصيل على شاطئ النيل وطريق الأهرام !

* * *

أما المكبون على أربع فهم أصحاب النوبة المنوط بهم تنظيف بلاط العنبر وتلميعه . وهم يتغيرون كل شهر مرة . ويقومون بهذا العمل طول النهار ، ويؤثرونه على أعمال السجن الأخرى لأنهم ينطلقون فيه على مدى واسع بعض السعة ، ولا يحبسون فى الحجرات .

قال دليلى أو «فرجيلى» بعد الشرح المتقدم : «وإن هؤلاء المساكين يعانون هذا العناء من أثر دعوة النبى يوسف عليه السلام » .

قلت : «وماذا أفادك الله ؟» .

قال : لقد دعا يوسف ربه فى السجن أن يغزر ترابه ويحلى طعامه ويقصر أيامه .. فالتراب لا ينقطع لحظة عن أمثال هذا المكان» .

قلت : «يخيل إلىّ أن يوسف عليه السلام قال اللهم غزر رغامة ولم يقل غزر ترابه .. لأن السجعة تقضى بذلك» !

وما لبثت فى السجن نصف ساعة حتى رأيت بعينى حرص الأقدار على إجابة ذلك الدعاء ، فما هو إلا أن يزحف الماسحون من طرف العنبر إلى طرفه حتى يكون التراب قد سفا على المكان الذى تركوه .

وإلى هنا لم أكن قد تناولت طعام الغذاء مع اهتمامى برعاية المواعيد فى تناول الوجبات .

فأين الطعام ؟ هل أحضره الطاهى أو نسى إحضاره وفهم غير ما تعبت بالأمس فى إفهامه إياه ؟ .

هنا ظهرت لى قيود السجن دفعة واحدة ، فليس من المستطاع أن أعرف هذا الخبر الصغير إلا بعد أن أسأل السجان ، وبعد أن يسأل السجان الضابط ، وبعد أن

يسأل الضابط البواب ، وبعد أن يحيل البواب الأمر إلى المأمور وأطباء المستشفى ، وبعد أن ينقضى فى ذلك كله وقت غير قصير . .

ولم يكن الذنب فى هذه المرة على ذكاء «الشيخ أحمد» كما توهمت لأول وهلة ، فإنه قد أحضر الطعام بعد انصرافى من دار النيابة ، ولكنهم حجزوه على الباب حتى يتلقوا أمرًا بقبوله وانتظام حضوره وحتى يراه الطبيب ويرى الأدوية التى معه ، وحتى يتم الفحص عن حالتى الصحية وما يصلح لى من الدواء ، ثم قبلوا الطعام والدواء وردوا الغطاء والفراش ، لأن السجن كما قالوا فيه الكفاية من غطاء وفراش !!

* * *

وفى هذه الأثناء بدأت أشعر بقشعريرة الرطوبة التى ينضح بها الأسفلت فى أرض العنبر وسقوفه ، ثم فرغ السجان وصاحب النوبة الموكل بحجرتى من إعداد سريرها وأدواتها ولوازمها ، فألقيت نظرة على الغطاء الذى سيغنينى عن غطائى فلم أطمئن إليه كثيرًا ، ولكنى قلت : لا بأس بالتجربة هذه الليلة . وبقيت متوجسا من هذه النافذة المفتوحة على رأسى يندفع منها الهواء طول ليل الخريف . . فما العمل فيها ؟

قال دليلى أو «فرجيلى» على أفندى شاهين : «لا عليك من هذه النافذة ! فسترى كيف نعالج خطبها» والتفت إلى صاحب النوبة فأوصاه أن يسدها بالحصيرة المفروشة على أرض الحجرة كما يصنع فى حجرته هو ، ففعل صاحب النوبة توا ليرينى كيف يحكم هذه الصناعة ، وضحك شاهين أفندى ضحك العلم والمعرفة وهو يقول لى : «الحمد الله على أنهم لم يختاروا لك سجن الاستئناف . فهناك النافذة أربعة أضعاف النافذة هنا ولا أمل فى سدها بحال من الأحوال ، فضلا عن الظلام المطبق من الصباح إلى المساء» .

قلت : «الحمد للّه !» .

* * *

وهبط ظلام الليل شيئًا فشيئا ، وعاد المسجونون قبل ذلك أفواجا إلى الحجرات ، وتعالت بينهم ضجة كضجة السوق فى يوم زحام ، ثم توالى إغلاق الأبواب وإدارة المفاتيح فى الأقفال ، ثم بدأ «التتميم» أو المراجعة حجرة حجرة :

كم يا ولد ! . . عشرة !

كم يا ولد ؟ . . أربعة . . وهكذا إلى نهاية الدور ، وفى كل عنبر أربعة أدوار ولن يبرح السجان دوره حتى يستوثق من مطابقة العدد الموجود للعدد المكتوب فى سجله المعلق عند الباب .

وازدادت الضجة بعد انتهاء المراجعة فلم يكن للسامع أن يسمع إلا أسماء تتقاذفها أفواه رجال ونساء ، وصرخات وأهازيج وشتائم هى عندهم فى منزلة التحيات المباركات ! ثم سكنت الضجة بعض الشىء وتبين من هنا وهناك نداء مفهوم ، وشرع اثنان فى قافية من القوافى المعروفة فى محافل الأعراس والموالد المصرية . وكأنهما علما بمقدم الصحفى الطارئ على السجن فى تلك الليلة فجعلا للصحافة قسمًا من هذه المساجلات المحفوظة . .

– الأولاد تنادى وراك وتقول :

– إيش معنى .

– المؤيد ! المؤيد . . وهو يعنى «المقيَّد» .

– فوق رأسك يا معلم على .

– إيش معنى .

– المقطم .

وهذه حقيقة واقعة وليست بمجاز ! لأن بناء السجن واقع فى حضن جبل المقطم .

– الرغيف فى سقف بيتكم .

– إيش معنى .

– كوكب !

– تطلع من هنا تقابلك فى البيت

– إيش معنى .

– الحمارة !

وقس على ذلك ما يقال ، وما يسمع كرها ولا يقال .

* * *

وقد أظلمت الحجرة عندة – حينذاك – ظلامين ، لأن النافذة المغلقة حجبت كل ضياء يتسلل إلى الحجرة من فناء السجن المنار بنوره الضئيل ، فلم أستطع أن أعرف مكان الكوب ولا سلة الطعام فى ذلك الظلام ، ولبثت أسمع الأصوات تخفت وتخفت حتى انقطعت أو كادت نحو الساعة التاسعة كما أنبأتنى الساعة العربية التى تدق فى مسجد القلعة ، ولم يبق من مسموع إلا وقع أقدام الحراس على البلاط ، وإلا صيحاتهم كل نصف ساعة يطيلونها ، ويتنافسون فى إطالتها ، فذكرتنى مبيت ليلة على حدود الصحراء ، أسمع فيها صياح الذئاب .

* * *

فى ديوانى الأول قصيدة بعنوان «الشاعر الأعمى» أقول فى مطلعها :

شَكَا الشاعِرُ البَاكى عمًى قَدْ أَصَابَهُ ... وأَظْلَمُ مَا نالَ العَمَى جَفْنُ شَاعِرِ

ومنها أبيات يصرخ فيها الشاعر سائلا :

لِمنْ تتَجمَّلُ الأَكوانُ إنْ كَانَ لاَ يَرَى ... بَدَائعَهَـا عَيْنٌ تَرَى كُلَّ بَاهِرِ
فَمَا كَانَتِ الدُّنيا سِوَى حُسْنِ مَظْهَرٍ ... ومَا جَادَ فيهَا الحَظُّ إلاَّ لِنَاظِرِ
وهَلْ كُنْتُ أَخْشَى المَوتَ إلاَّ لأَنَّهُ ... سَيَحْجُبُ عَنِّى حُسْنَ تِلْكَ المَنَاظِرِ

* * *

ثم ينعى الشاعر قسمته فى الحياة فيقول :

جَمَعْتُ شَقَاءَ العَيْشِ فى ظُلْمَةِ الرَّدَى ... فَيَالى مِنْ مَيِّتٍ شَقِىِّ الخَوَاطِرِ
أَرَى الصُّبْحَ وَهَّاجًا بِمُقْلَةِ نَائمٍ ... ويَلْحَظُهُ قَلْبِى بِحَسْرَةِ سَاهِرِ
فَمَنْ لى إِلَى هَذَا الوُجُودِ بِنَظْرَةٍ ... أَرَاهُ وَلَمْ يُعْمِ التُّرَابُ بَصَائِرِى

* * *

إلى أن يقول متأسيا بنور البصيرة عن نور البصر :

فَيَا قَلْبُ انْفِقْ مِنْ ضِيَائِكَ واحْتَسِبْ ... لدى الشَّمْسِ لألاءَ الوُجُوهِ النَّوَاضِرِ

حادثة عارضة

قصيدة لا شك كان لها باعثها كغيرها من القصائد التى ينظمها الشعراء وحى من خاطر نفسانى أو حادثة عارضة . فما هو الخاطر النفسانى هنا ؟ أو ما هى الحادثة العارضة ؟

هل كنت أحس فى صباى ضعفًا فى النظر بعث فى نفسى الإشفاق من فقدانه والمصير إلى مثل ذلك الظلام الذى شكاه الشاعر المنكوب فى بلواه ؟

ذلك أقرب ما يرد على الخاطر فى تفسير باعث القصيدة ، ولكنه على قربه بعيد من الواقع لأننى كنت أيام نظم الديوان الأول على أقوى ما يكون الإنسان بصرا فى صباه ، وكنت - بالإيجاز - أستطيع أن أقرأ الصحيفة على نور القمر تحت قبة السماء .

* * *

ومن الجائز أننى كنت لا أعرف هذه القوة فى بصرى ، وأننى كنت أكبر وأجاوز الشباب والكهولة ولا أدرى مبلغ بصرى من القوة ، كما يتفق كثيرًا أن يجهل الإنسان ما يألفه من قوته ويحسبه من المألوفات التى لا غرابة فيها ، ولم يكن هنالك ما يدعونى إلى القراءة على نور القمر لأن المصابيح أوفر من أن تفتقد فى مدينة كبيرة أو صغيرة ، ولكننى أعلم الآن أننى استطعت أن أقرأ على نور القمر وأذكر ذلك جيدًا لأننى حين اضطررت إلى هذه القراءة مرة واحدة كان ذلك مقرونا بمناسبات متشابكة جامعة بين الجد والفكاهة وبين ذكريات الأسرة والموطن وغرائب الروايات والتقاليد المتواترة فى الريف . فليس فى وسعى أن أنساها بعد حين ولا أزال أذكرها اليوم كأنها حدثت قبل يوم أو يومين ولم تمض عليها - كما مضى فعلا - أربعون سنة أو تزيد .

وفى جوار أسوان - بلدتى - ضاحية صغيرة جميلة على مسافة قصيرة منها ، أهلها من أقدر خلق الله على التشبيه المحكم أو على الإصابة بالعين كما اشتهروا فى الإقليم كله ، ويقال عنهم أن أحدا منهم لا يملأ عينيه من الشىء إلا قضى عليه وأصابه بما يعطبه أو يضره لساعته ، وآية امتلاء العين من الشىء المنظور عندهم أنها تستوعبه بالتشبيه المحكم فلا تعدو صفة من صفاته .. فالتشبيه المحكم والإصابة القاتلة فى عرف القوم مترادفان ..

أمثلة من التشبيهات

قالوا إن أحدهم نظر إلى بستان من التين فصاح إعجابا بثمراته المتفتحة : «ما هذا التين الذى يحكى خياشيم السمك !؟» .

وقالوا إن أحدهم رأى رهوانا محلى السرج واللجام بالألوان المختلفة فصاح قائلا: «أتراه يحمل بيارق الأحمدية !؟» .. يعنى طريقة من الطرق الصوفية تسمى بالطريقة الأحمدية ويحمل أتباعها الرايات المتعددة بمختلف الألوان ..

وقالوا : إن أحدهم نظر إلى ساقية بخارية فقال : «إنها تبلع البحر بحوته» ..

وقالوا غير ذلك كثيرًا من أمثال هذه التشبيهات ولم ينسوا مرة من المرات أن يردفوا التشبيه بذكر العاقبة التى تلحق به على الأثر، وهى التلف والبوار..

وكان فى هذه الضاحية عرس نعرف أصحابه، وذهبنا نشترك فى إحياء العرس فمر القطار بالصحف قبل وصوله إلى أسوان، وجاءتنا الصحيفة فطويناها حتى خرجنا من الدار نتنسم الهواء فوق كثيب من الرمال البيضاء، وفتحت الصحيفة على غير التفات منى إلى الخطر المزعوم من وراء هذه المجازفة.. وإذا بزميلى يختطفها من يدى على عجل ويصيح بى: «ويحك!.. أتريد أن تعمى؟ ألا تعرف أين أنت؟.. أهذا مكان تقرأ فيه الصحيفة على نور القمر وتسلم من العاقبة!!».

حادث بطرائفه ومناسباته لا ينسى، فليس فى وسعى إذن أن أجهل أننى كنت على قوة مبصرة خارقة فيما بين الخامسة عشرة والثلاثين، وليس الباعث على نظم القصيدة - قصيدة الشاعى الأعمى - أننى أشفقت من مصير كذلك المصير الذى وصفته بتلك الأبيات.

أما الباعث فى الواقع فلا أعرفه على التحقيق، ولكننى أظن ظنا أنه يرجع إلى مطالعاتى فى تلك الفترة، وأكثر ما كنت أحفظ يومئذ شعر أبى العلاء، وشعر ملتون فى قصيدة الفردوس المفقود، ولعلى قرأت يومئذ لأول مرة قصيدة الشاعر المحدث الضرير فرنسيس فتح اللّه مراش التى يقول فى مطلعها:

هل عَـادَ عندَكَ يا زمـان بِعَـادى خَطْبٌ تُعَـانِدُنى به وتُعَـادِى؟

ويقول منها:

يَبْـدُو النهـارُ لِكُلِّ عَيْنٍ أَبيـضـا ولأَعـينى مُـتَـوَشِّـحًـا بِسَـوَادِ

وليست هى على طائل من جودة الشعر، ولكنها على ضعفها معبرة عن شعور صحيح.

أحكام سن الأربعين

ومضت الأيام والسنون، وجاوزت الأربعين فسمعت عن تقاليدها المرعبة بين أصحاب النظارات، وعملت بتلك التقاليد على غير اضطرار فى مبدأ الأمر لأننى كنت أستطيع القراءة نهارًا وليلا بعد الأربعين، ولكننى أردت المزيد من الوقت فى مطالعاتى الليلية، فصنعت النظارة بين الخامسة والأربعين والخمسين، ولم أستخدمها إلا قليلا جدا فى ذلك الحين..

ثم شعرت فى السنوات الأخيرة بالحاجة إليها تزداد على مر الأشهر ولا أقول على مر الأعوام ، وكدت أنسى قصيدة الشاعر الأعمى فى الديوان الأول بعد ما نظمته من قصائد الدواوين المتوالية ، فإذا بهذه القصيدة أثبت القصائد فى ذاكرتى خلال السنتين الأخيرتين . .

«عملية جراحية» وإلا فلا نظر ! . .

وهانت العملية والعمليات مع هذه العاقبة المحذورة التى يهون معها فقد الحياة . .

وتمت العملية بسلام ، ودخلت فى ظلام الغماء راضيًا به مغتبطًا بسواده المحتوم ، لأنه الليل الذى يطلع على فجر الضياء . .

وتشاء المقادير أننى أضع الغشاء على عينى فى صبيحة اليوم الذى أظلمت بعده سماء مصر الجديدة حيث أقيم ، لأننى أجريت العملية فى أواخر أكتوبر ، وفى تلك الأيام منيت مصر الجديدة بغارات الخريف المشئوم . .

إن كان فى تلك البلية رحمة من رحمات الغيب فرحمتها أنها لم تتقدم يومًا واحدًا ولم تفاجئنا والمشرط بين العين ويد الطبيب القدير ، ثم أطبقت البلية ساعات من أحلك ساعات الليل والنهار على السواء ، فحمدت الله الذى لا يحمد على المكروه سواه . . حمدته لأننى ألازم موضعى بحكمة وشجاعة أو بغير حكمة ولا شجاعة ! . . ولأننى أطفأت النور قبل أن تتصايح الأصوات حول الدار :

– أطفئوا الأنوار . . أطفئوا الأنوار . .

ظلمات فوق ظلمات

ولعلك تسألنى عن تلك الساعات الطوال كيف كنت أقضيها وبأى الأطياف والأشباح كنت أعمر ظلماتها وأملأ فراغها ! . .

والحق أنها كانت ظلمات من أحلك الظلمات ، وأنها كانت فراغًا من أثقل الفراغ . ولكننى لم أسعد فيها – أو لم أشق – بطيف من أطياف الظلام ولا بهاجس من هواجس الفراغ ، ولست أعجب لذلك لأننى تعلمت من تجارب الليالى والأيام أن الشواغل إنما تكون على قدر الحيرة والقلق ، وأنه حيث يكون فى الأمر قولان أو عدة أقوال فهناك التردد والاضطراب ، وهناك الهواجس والأخيلة والأوهام والأشباح . وأما مسألة البصر فأى اختلاف فيها ؟ . . وأى حيرة وأى

موازنة وأى ترجيح ؟ .. إنما هو القبول والاستسلام أو الرفض والخلاص من الظلام إلى الظلام !

وقد كنت أنتظر إحدى النتيجتين ولا أزيد ، وكان جانب الرجاء بحمد الله أقوى فى النفس من جانب الخوف والقنوط ، فتراجعت الأشباح والأطياف إلى ظلماتها . وقضينا الساعات الطوال بالشواغل التى تضحك ولا تبكى وتسلى ولا تشجى ، ومنها ما يضحك السامع ضحكتين لا ضحكة واحدة ! .. لأنه يضيف إلى ضحكة العبث ضحكة المثل القائل : «أن الزمار يموت ويداه تلعبان !» .

ومن أمثلتها الكثيرة مثل «البحث اللغوى» فى إطفاء الأنوار ..

إنهم يسمونه فى سورية ولبنان «بالتعتيم» ونسميه فى مصر بالإظلام أو إطفاء الأنوار .

ونحن فى جوار الغارات الجهنمية نستمع إلى زلازلها وضوضائها ونتساءل : أيهما الصحيح ؟ ..

ونمضى فى التعليق بين قائل إن التعتيم خطأ لأن العتمة ظلام خاص بأول الليل ، وقائل إنها ظلام الليل على إطلاقه ، ونتشاور برهة فى الموازنة بين التغمية والتغشية والتخفية وغيرها وغيرها بديلا من التعتيم ومن الإظلام .. وكلها كالشر الذى تخفيه بلاء ولا خيار فيه !

وانجابت الغمة

وانجابت الغمة بحمد اللّه ، وأسفر الصباح بعد ليال مطبقات ، وإننى لأصدق النور حقه فأقول : بل أسفرت الغمة عن فجر أو شفق ولم تسفر عن صباح أو نهار .

ولا بأس بالفجر والشفق فى عالم الشعر والشعراء ، فربما طاب لنا الفجر كما يطيب الشفق بوحى من ذوق الجمال وغبطة السكينة والسلام ، وإن لم يكن فى سطوعه ولمعانه ندا للصباح أو قرينًا للنهار .

الفصل السادس

إيمـــانى

أومن باللّه . . أومن باللّه وراثة وشعورًا وبعد تفكير طويل .

فأما الوراثة فإنى قد نشأت بين أبوين شديدين فى الدين لا يتركان فريضة من الفرائض اليومية ، وفتحت عينى على الدنيا وأنا أرى أبى يستيقظ قبل الفجر ليؤدى الصلاة ويبتهل إلى اللّه بالدعاء ولا يزال على مصلاة إلى ما بعد طلوع الشمس فلا يتناول طعام الإفطار حتى يفرغ من أداء الفرض والنافلة وتلاوة «الأوراد» . .

* * *

ورأيت والدتى فى عنفوان شبابها تؤدى الصلوات الخمس وتصوم وتطعم المساكين وقلما ترى النساء مصليات أو صائمات قبل الأربعين . وندر بين أقاربى من لا يسمى باسم من أسماء النبى وآله سواء منهم الرجال والنساء أو من أسماء الأنبياء على العموم ، وكان فى بيت أخوالى درس لقراءة الكتب الدينية وأذكر منها مختارات الأحاديث النبوية وإحياء علوم الدين ؛ فللوراثة شأن فيما عندى من سليقة الاعتقاد .

أما الإيمان بالشعور فذلك أن مزاج التدين ومزاج الأدب والفن يلتقيان فى الحس والتصور والشعور بالغيب وربما كان «وعى الحياة» شعبة من «وعى الكون» أو من «الوعى الكونى» الذى يتعلق به كل شعور بعظمة العالم وعظمة خالق العالم . . والوعى الحيوى مصدر النفس والوعى الكونى مصدر الدين .

أما الإيمان باللّه بعد تفكير طويل فخلاصته أن تفسير الخليقة بمشيئة الخالق العالم المريد أوضح من كل تفسير يقول به الماديون . وما من مذهب اطلعت عليه من مذاهب الماديين إلا وهو يوقع العقل فى تناقض لا ينتهى إلى توفيق ، أو يلجئه إلى زعم لا يقوم عليه دليل ، وقد يهون معه تصديق أسخف الخرافات والأساطير فضلا عن تصديق العقائد الدينية وتصديق الرسل والدعاة . فالقول بالتطور فى عالم لا أول له خرافة تعرض عنها العقول لأن ابتداء التطور يحتاج إلى شىء جديد فى العالم وحدوث التطور بغير ابتداء تناقض لا يسوغ فى اللسان

فضلاً عن الفكر أو الخيال . والقول بالارتقاء الدائم من طريق المصادفة زعم يهون معه التصديق بالخرافات وخوارق العادات فى تركيب الأجسام أو الأحياء .

والقول بأن المادة تخلق العقل كالقول بأن الحجر يخلق البيت وأن البيت يخلق الساكن فيه ، وأيسر من ذلك عقلاً بل ألزم من ذلك عقلاً أن يقال إن العقل والمادة موجودان وأن أحراهما بأن يسبق الآخر ويخلقه هو العقل لأن المادة لا توجد ما هو أفضل منها وفاقد الشيء لا يعطيه .. فأنا أومن باللّه وراثة وأومن باللّه شعورًا وأومن باللّه بعد تفكير طويل .

هذا فى مجال العقيدة ..

* * *

أما فى مجال الأخلاق فلا موجب عندى لعمل الخير غير طلب الكمال وفهم الكمال ..

ومن الخير ما هو عسير على النفس محفوف بالخطر مكروه العواقب مستهدف للنقد والمذمة بين من يجهلونه أو يصابون فى منافعهم من جرائه ، فلا باعث لعمل هذا الخير أقوى من باعث الشوق إلى الكمال والارتفاع بالنفس إلى ما ترضاه ..

إن الإنسان لا يرائى بحب الطعام الجيد أو الطعام المفيد ، إنه يحبه فى السر كما يحبه فى العلانية ، وإنه ليبذل فيه ثمنه وإن غلا ويجلبه من مكانه وإن بعد وإنه ليكتفى به ويحسبه جزاء حسنًا ولا ينتظر عليه المثوبة أو الشكران من أحد لأنه يتناول لنفسه ولا يتناوله مرضاة لغيره .

وهكذا طعام العقل أو طعام الروح حيثما عرفت الروح ما يصلح لها وما يليق بها من طعام ، إنها لا تستريح بغيره ولا تتوانى عن طلبه ولا تنتظر المثوبة أو الشكر لأنها تختار غذاءها فتحسن اختياره ولا ترضى بما دونه . وإنما المهم أن تعرف هذا الغذاء فإذا هى عرفته فلا باعث لها إلى الخير أقوى من الشوق إليه ولا وازع لها ولا عقوبة تخشاها فى سبيل أوجع من فواته والحرمان منه ..

وقد ترى لطفل يؤجر على تجرع الدواء ويساق إليه بالحيلة والإغراء لأنه لا يعرف ما هو الداء ، ولا ما هو الدواء ..

ولكنك تنتظره سنوات حتى يعرف هذا وذاك فإذا هو يبذل الأجر لمن يعطيه الدواء ، ويسعى إليه عند الأطباء فى أبعد الأرجاء ، وما تغير طعم الدواء ولا تغير

عمله ولا تغيرت الحاجة إليه ولكن تغير شعور الطفل بالصحة الجسدية وتغير شعوره بالواجب عليه لتصحيح جسده وتغير فهمه «للكمال» فى عالم الأجساد .

* * *

وهناك عالم للضمائر ، وعالم للأفكار ، وعالم للأذواق والأخلاق ، كما هناك عالم للأجساد ، وهناك أطفال فى هذه العوالم كما هناك أطفال فى ذاك .

وهؤلاء الأطفال هم الذين يقبلون الصحة لأنهم يثابون عليها ويتجرعون الدواء لأنهم يساقون إليه ، فدعهم حتى يكبروا فى أعمار العقل ، أو فى أعمار الضمير ولا تتكلف أن تعرض عليهم الدواء أو تلحف عليهم فى تعاطيه لأنهم ينشدون حيث كان ويبذلون فيه أغلى الأثمان . .

فى عالم الأخلاق لا باعث إلى الخير أقوى من شعور الإنسان بكماله ولا وازع عن الشر أقوى من شعور الإنسان بنقصه ولا أخلاق لمن يحسن لأنه يؤجر على الإحسان أو يسيء لأنه فى أمان .

فساعة من الغبطة ببلوغ الكمال هى غاية ما تصبو إليه النفس من مراتب السعادة وساعة من تبكيت الضمير على النقص هى غاية ما تنحدر إليه النفس من الشقاء .

وإيمانى فى المعاملات أن الطيبة موجودة فى الطبيعة الإنسانية ولكنك لا تجدها فى كل إنسان ولا تجدها فى جميع الأوقات . .

ولكنك إذا بحثت عن المعين لم تضمن وجوده حين تريده وإذا وجدته حين أردته لم تضمن أن يوافقك على رأيك ويساعدك على قصدك ، فلعله يعين إذا اعتقد وجه الصلاح فى العمل الذى يدعى إليه ولعله لا يعتقد اعتقادك فيما ترى من الصلاح .

* * *

فلا تقنط من طيبة الناس كل القنوط . . ولا تعول عليها كل التعويل بل أحسن الظن بالناس كأنهم كلهم خير واعتمد على نفسك كأنه لا غير فى الناس .

وقديمًا قلت :

أنـــا لا أَلـــومُ ولا أُلامْ ... حَســبِى مِنَ الناسِ السَّلامْ
أَنـا إِنْ غـنـيـتُ عـنِ الأَنَـامِ ... فـقـد غُنِيتُ عَنِ المَلامْ
وإِذا افْـتَـقَـرْتُ إِلَيـهـم ... فـاللومُ مِنْ لَغوِ الكَلامْ

ولا أزال كلما نسيت هذه الخطة فى سهوة من السهوات ردتنى الحوادث إليها وزادتنى إيمانًا بصوابها .

* * *

وإيمانى بالأدب أنه رسالة عقل إلى عقول ووحى خاطر إلى خواطر ونداء قلب إلى قلوب .

وأن الأدب فى لبابه قيمة إنسانية وليس بقيمة لفظية .

فالأديب الذى يقرأه القارئ فلا يعرف شيئًا جديدًا ولا يحس بشىء جديد فسكوته خير من كلامه .

والأديب الذى يقصر جهده على التسلية وإزجاء الفراغ خادم جسد وليس بصاحب رسالة فى عالم العقل والروح ، والعلاقة بين الكاتب وقارئه علاقة تعاون واشتراك لا يغنى فيها الجهد المفرد على الجهدين المتساندين .

فالقارئ الذى يفرد الكاتب بواجب التفهيم لا يستحق من الكاتب أن يلتفت إليه ، ،

لأنه واحد من ثلاثة : فإما رجل يظن أن القراءة لا تستحق التعب وهو يتعب فى طلب اللهو والتسلية فلا نفع فيه .

وإما رجل يتعب فكره ولا يصل بالتعب إلى نتيجة فذلك أيضًا لا نفع فيه ، وإما رجل لا تهمه نتيجة القراءة التى يتسلى بها أو يتعب فيها فهو كصاحبيه لا نفع فيه .

* * *

وإيمانى بالشهرة والثناء كإيمانى بالثواب والجزاء فما أجفلت قط من نقد ، ولا توسلت قط إلى ثناء ، ويعزينى عن كثير من الثناء أن الناس لا يبذلونه لمن يكبرونه بل يبذلونه لمن لا يملأ قلوبهم بالإكبار ولا يبلغون من إعظامه مبلغًا يحسدونه وينفسونه عليه ، وأن الأدب شىء هين لكل الهوان إن ضاعت قيمته بكلمة حاسد أو جاءت قيمته من كلمة كاذب منافق ، فإذا كانت له قيمة فلا خوف عليها وإن لم تكن له قيمة فلا حرص عليه .

* * *

وبعد فإيمانى كله فى العقيدة والأخلاق والمعاملة والأدب يوزن بميزان واحد وهو ميزان المثل الأعلى أو طلب الكمال لأنه إيمان يغنينا عن طلب الجزاء ويعزينا عن فقدان الحمد والثناء ..

* * *

من قديم الزمن يشعر كل طالب فى حياته المدرسية بالتنازع بين قطبين متقابلين ، أحدهما ما نسميه «بالنظام» والآخر ما اشتهرت به الطفولة والشباب من حب التمرد والهرب ومخالفة النظام .

فالتلمذة بغير نظام مستحيلة ، ولابد لكل مدرسة من مواعيد وفصول وواجبات فى المدرسة وواجبات فى خارجها ، ولابد للتلميذ من القيام بهذه الواجبات إذا أراد أن يضمن النجاح . ومن لم يأخذ نفسه برعايتها حقا فهو على الأقل مضطر إلى رعايتها غشا وتزييفًا ، لأنها لا يمكن أن تخرج كل الخروج من الحساب . .

ولابد للتلمذة من نظام . .

ولكن ما القول فى الطفولة أو فى الصبا الباكر على العموم وكلاهما ملازم للتلمذة فى أدوارها الأولى ؟ . .

هل يمكن أن تخلو الطفولة من قلق وعربدة و«شقاوة» وولع بالشيطنة والمخالفة؟ . .

لا يمكن . . فلابد من فلتة ، إن لم تكن الطفولة كلها فلتة فى نفوس الشذاذ الميؤوس من فلاحهم ، وهم غير قليلين . .

نظام وشيطنة ، أو نظام ومخالفة ، وهذان هما القطبان اللذان يتنازعان كل تلميذ فى دراسته الباكرة ، إن لم يتنازعاه فى جميع أدوار الدراسة بعد سن الطفولة والصبا ، فقد قرأت للقس الإنجليزى الفيلسوف المطران «انج» أنه هو وزملاءه فى كلية اللاهوت كانوا «يعاكسون» أستاذهم الكبير «فارار» على توقيرهم لعلمه وحبهم لشخصه ، وكانوا يتعمدون أن يسوقوه إلى تكرير لوازمه ليضحكوا منها فى «أكمامهم» كما يقول الإنجليز . .

وهؤلاء رجال لاهوتيون من أهل الورع والوقار ، فما بالك بالتلاميذ الطلقاء من رهبة الدين وسمت الهيبة والسكينة ! . .

فإذا عدت طالبًا ، فماذا أصنع بين هذين المتنازعين ؟ . . هل أندم على قلة النظام أو على قلة التمرد فيما سلف من تلك الأيام ؟ . .

أحسب أنى أخذت من كليهما الكفاية ، وأننى لا أبالى أن أعود كما كنت بغير تبديل كثير . .

كنت «نظاميا» فى مواعيدى فلا أذكر أنى تخلفت عن موعد حضور أو موسم امتحان أو حصة مذاكرة حين تفرض للمذاكرة حصص فى ختام السنة الدراسية . .

وكنت إذا خالفت النظام فإنما أخالفه فى شىء يعنينى ولا يعنى المهتمين بدروسى وواجباتى .

إنما أخالفه فى قليل من «البهدلة» التى تظهر فى إهمال الملابس وإهمال الحلاقة ، وربما خالفته حبًا للسرعة ولا حبا للبهدلة والإهمال ، فإننى لم أكن أطيق أنتظر «البذلة» عند الكواء ولم أكن أعطى اللبس – ولا أنا أعطيه الآن – أكثر من بضع دقائق فى عجلة وهرولة ، وقد أترك للفرّاش تغيير «البذلة» دون أن أختار له «بذلة» أخرى ، وقد يغيرها وأنا لا أعلم بالتغيير . .

* * *

لهذا كنت فى مقدمة التلاميذ المرضى عنهم من وجهة النظام ، وكان بعض الأساتذة وبعض الزملاء يتناولوننى أحيانًا بنكتة هنا وتشنيعة هناك من أجل البهدلة الكسائية ، ولكنهم كانوا مع ذلك يتجاوزون عن هذه البهدلة اضطرارًا إذا وجب استقبال زائر كبير بخطبة أو تحية شعرية ، أو وجب حل مسألة حسابية أو مشكلة من مشكلات الأجرومية الإنجليزية يعيينى بعلاجها زملائى المتخلفون فى الحساب واللغة . .

وكنت – لحسن الحظ – محسوبًا من المفرطين فى رعاية النظام وأداء الواجبات حين كنت فى الحقيقة مفرطًا فى الخروج على النظام وإهمال الواجبات . .

* * *

كنت أجلس إلى المصباح فى حجرتى حتى منتصف الليل أطالع وأذاكر . فيماذا ! . .

كلهم في المنزل يحسبون أننى أذاكر دروسى وأطالع كتب المدرسة ، ويصفوننى من أجل ذلك بالغيرة على الواجب والأنفة من التأخر فى الترتيب ، وكلهم فى الواقع لا يعلمون الحقيقة لأنهم لا ينظرون فى الكتب والدراسات التى أدمن مطالعتها . .

إنها تارة ديوان شعر ، وتارة أخرى قصة من قصص ألف ليلة ونحوها ، وتارة غير هذه وتلك مجلة شهرية «كالمقتطف» و«الهلال» و«المحيط» و«المفتاح» وغيرها من مجلات تلك الأيام ! . .

ولهذا لا يسوءنى أن أعود طالبًا فأعود نظاميا على هذه الوتيرة . . إذا هى نظامية تجمع بين قضاء حق الواجب وقضاء حق التمرد فى رأى الذين يطالبوننى بالنظام . .

* * *

كدت أنسى أن أقول للقارئ أن هذه المغالطة لم تكن غاية شوطى من التمرد على النظام أيام التلمذة . .

فقد ذهبت فى التمرد إلى النقيضين ، وكان بعض هذا التمرد خطرًا على الحياة ، لأنه كان يغرينى بالسباحة فى النيل ، وما أدراك ما النيل عند أسوان؟ . .

إنه يبلغ من العرض قرابة ميل ، ويندفع فيه التيار من شلال وراء شلال ، وتلتف الدوامات بصخوره فلا يقدر على عبورها غير السابح الخبير ، وتكمن التماسيح فى مائة مترقبة بالسابحين ، ولا سيما قبل تمام أعمال البناء على عيون الخزان . .

وكنا نخرج من المنازل وعلى سيقاننا خواتم سليمان مرسومة بالمداد الخفيف الذى لا يحتمل الماء ، ولكننا مع هذا كنا نستجيب لغواية النيل ونعوم بين جزائره المترامية فى أخطر أيام الفيضان ، ونعتمد على فن الرسم لإخفاء معالم العصيان .

فلا يخذلنا هذا الفن إلا حين ننسى ونتعجل فنرسم خاتم سليمان على اليمنى بدلا من اليسرى أو على اليسرى بدلا من اليمنى ، فيأخذ منا النظام حقه عصيًا أو سياطًا معدودات . . ثم نعود إلى العصيان وتزييف خاتم سليمان .

* * *

هذه مجازفة فى سبيل الرياضة البدنية . .

مجازفة بالخروج على النظام ، ومجازفة بالتعرض للغرق ، ومجازفة بالتعرض للعقاب . .

فهل كنت مع هذا من محبى الرياضة البدنية ؟ . .

كلا . . بل كنت أغيب عن حصتها عمدا ، وأعلم أن جزاء الغياب حبس ساعات . .

وهذا هو الذى عنيته حين قلت فيما تقدم : إننى ذهبت فى التمرد إلى النقيضين ، وأعود فأسأل نفسى وأسأل القارئ أيضا : هل هما نقيضان حقا ؟ وهل السباحة التى نهواها «كالجمباز» الذى نساق إليه على الرغم منا ونهدد بالعقاب لنقبل عليه مكرهين ؟ . .

من جهة ، هما نقيضان . .

ومن غير هذه الجهة لا تناقض بين هوى السباحة وكراهة الجمباز المفروض بالإكراه ، فقد يكون الذنب على الطريقة لا على الجمباز . .

ولكننى بعد هذه السنين الطوال أقول : إننى أود لو عدت طالبًا لأمسح «تمردى» فى صفحة واحدة هى صفحة الألعاب الرياضية ، فقد تعبت كثيرًا من جراء كراهتها وإهمالها ، ولو أننى أعطيتها جانبًا من الوقت إلى جانب الأوقات التى أخذها المعرى وشركاؤه لاسترحت فى بدنى من بعض تلك المتاعب ولعلى أكفر - من حيث لا أشعر - عن خطيئتى فى حقها بما كتبته وكررته عن فضائلها وحقوق أبطالها ، فهى فى رأيى أحد الترياقين الموصوفين لكل أمة تشكو الخمول وتطلب السلامة والقوة ، والترياق الآخر هو الفن الجميل . .

ولو عدت طالبًا . .

ولماذا أعود طالبًا ؟ . . إن كانت العودة للتكفير عن خطيئة الألعاب الرياضية فالصلح معها على طريقتنا المختارة يغنينا عن مشوار الرجوع كل تلك السنين . .

* * *

كلا . . لا أحب أن أعود ، لأن الحاضر خير من الماضى فيما أرى وبخاصة حين نعود إليه . وإنما يحلو الماضى حين ننظر إليه بأعيننا الحاضرة . .

فلننظر بها قانعين إلى ما بين أيدينا من السنين . .

* * *

ما ليس بالحب أسهل فى التعريف مما هو الحب ، وهكذا الشأن فى كل تعريف لمعنى من المعانى أو كائن من الكائنات . فنحن نستطيع فى لمحة عين أن نعرف أن زيدًا ليس بعمرو ، ولكننا لا نستطيع فى هذه الصورة أن نذكر تعريف عمرو وزيد ونحيط بأوصاف هذا أو ذاك ، ولو كنا من أعرف العارفين بالاثنين . .

وعلى هذا القياس نعرف الحب من طريق النفى قبل تعريفه من طريق الإيجاب . .

فليس الحب بالغريزة الجنسية ، لأن الغريزة الجنسية تعم الذكور والإناث ، ولا يكون الحب بغير تخصيص وتمييز .

وليس الحب بالشهوة ، لأن الإنسان قد يشتهى ولا يحب ، وقد يحب وتقضى الشهوة على حبه .

وليس الحب بالصداقة ، لأن الصداقة أقوى ما تكون بين اثنين من جنس واحد ، والحب أقوى ما يكون بين اثنين من جنسين مختلفين .

وليس بالانتقاء بالرحمة ، وليس بالانتقاء والاختيار ، لأن الإنسان قد يحب قبل أن يشعر بأنه أحب ، وقبل أن يلتفت إلى الانتقاء والاختيار .

وليس الحب بالرحمة ، لأن المحب قد يعذب حبيبه عامدًا أو غير عامد ، وقد يقبل منه العذاب مع الاقتراب ولا يقبل منه الرحمه مع الفراق . .

والحب كذلك يعرف جزءاً جزءاً قبل أن يعرف كاملا شاملا مستجمعا لكل ما ينطوى عليه .

ففى الحب شىء من العادة ، لأن المحب يهون عليه ترك حبيبه إذا كان تركه لا يغير عاداته ومألوفاته ، وأقوى ما يكون الحب إذا طال امتزاجه بالعادات والمألوفات . .

وفى الحب شىء من الخداع ، لأن المرأة الواحدة قد تكون أفضل المخلوقات فى عين هذا الرجل ، وتكون شيئًا مهملا لا يستحق الالتفات فى عين ذاك ، ثم يعود كالشىء المهمل فى عين الرجل الذى فضلها من قبل على جميع المخلوقات . .

وفى الحب شىء من العداوة ، لأن المحب مكره على البقاء فى أسر الحب ، عاجز عن الإفلات من قيوده ، ويقترن الشعور بالإكراه والعجز دائما بشعور النقمة والعداء . .

وفى الحب شىء من الأنانية ولو أقدم صاحبه على التضحية ، لأنه لا يترك محبوبه لغيره ولو كان فى ذلك إسعاده ورضاه ، ولكنه قد يضحى بنفسه إذا اعتقد أن محبوبه لا يصير إلى سواه . .

وفى الحب شىء من الغرور ، ولولا ذلك لما اعتقد الإنسان أن إنسانًا آخر يهمل الألوف من أمثاله ليخصه وحده بتفضيله وإيثاره . .

وقد يخلو الحب من كل شىء إلا من شىء واحد ، وهو الاهتمام . . فصدِّق إن قيل لك أن حبيبًا يبغض حبيبه ويؤذيه ، وصدِّق إن قيل لك أن حبيبًا يتقبل من حبيبه البغض والإيذاء ، وصدق إن قيل لك أن الحب والازدراء يجتمعان ، وصدق إن قيل لك أن الحب يخون أو يقبل الخيانة من المحبوب ، فأما إن قيل لك أن حبا يبقى فى النفس بغير اهتمام ، فذلك هو المحال الذى لا يقبل التصديق .

وفى الحب شىء من القضاء والقدر ، كما يعبرون عنه فى لغة الحواديت والتحقيقات . .

لماذا ولد فلان ؟ . . لماذا مات علان ؟ . . لماذا أحب فلان فلانة؟ . . إن «التأشير» على المحضر بكلمتى «القضاء والقدر» هو أصدق ما يقال فى تعليل هذه الأحداث المتشابهات ، لأنها كلها من أطوار الحياة التى لا يملكها الإنسان ، ولا يحسب أنه سيطر عليها حتى يرى أنها هى مسيطرة عليه . .

وإلا فماذا تقول إذا سألك سائل : لماذا أحب فلان فلانة ؟ . . ألأنها أجمل من يرى من النساء ؟ ألأنها أقرب النساء إليه ؟ ألأنها تجزيه الحب بمثله ؟ . . ألأنها تروعه بالفطنة النافذة والخلق الحميد ؟ . . ألأنها تنفرد بمزية من المزايا لا توجد فى العشرات والمئات ؟ . .

ماذا تقول غير «القضاء والقدر» إذا كانت «لا» هى جوابك على كل سؤال من هذه الأسئلة ؟ . . ولعلها هى كذلك جواب المحب المفتون !

فقد تعمى الأبصار عن الحب كما تعمى عن الأقدار ، أو يسير الحب إلى فريسته كما قال ابن الرومى فى مسير القضاء :

أومسـير القضاء فى ظلم الغيـب إلى قـاصد له بالتـواء

وربما خطر للفريسة المخدوعة أنها تهرب وتمعن فى الهرب وهى تقترب فى كل خطوة من الشرك المنصوب فى الخفاء ، وربما أنكر المحب أنه محب كما ينكر السكران أنه سكران ، بل لعله يشتد فى الإنكار كلما اشتد به الدوار ولا يدرى أنه قد سكر حقا إلا حين يأخذ فى الإفاقة ويقوى بعض القوة على فتح عينيه وتحريك قدميه .

وأوجز ما يقال أن الحب قضاء يملك الإنسان ولا يملكه الإنسان ، ولو دخل فى مشيئته لما استولى عليه ولا غلبه على أمره . .

قال بعض الحكماء : أن الحجر الذى تقذفه بيديك يحسب أنه يطير فى الجو باختياره ، لو كان له شعور . .

وهكذا يحسب العاشق وهو يتهالك على معشوقته . . يحسب أنه هو الذى يريد ما يصيبه ولا يزال على حسبانه حتى يحاول ألا يريد ، فلا يستطيع . .

وخلاصة القول أن الحب عواطف كثيرة وليس بعاطفة واحدة ، ومن هنا كان أقوى وأعنف من العواطف التى تواجه النفس على انفراد . .

ففيه من حنان الأبوة ، ومن مودة الصديق ، ومن يقظة الساهر ، ومن ضلال الحالم ، ومن الصدق والوهم ، ومن الأثرة والإيثار ، ومن المشيئة والاضطرار ، ومن الغرور والهوان ، ومن الرجاء والقنوط ، ومن اللذة والعذاب ، ومن البراءة والإثم ، ومن الفرد الواحد ، والزوجين المتقابلين ، والمجتمع المتعدد ، والنوع الإنسانى الخالد على مدى الأجيال . .

والذى يعجب لذلك يعجب فى الحقيقة من أقرب الأشياء إلى المألوف وأبعدها من العجب والغرابة .

فكيف يكون الحب شعورا يستولى على نفسين كاملتين ثم يخلو من كل ما يخامر النفوس فى مختلف الأوقات والأحوال ! . .

وكيف يكون الحب مشتملا على جسدين ثم لا يضطرب فيه النزاع بين الجسدين والنفسين كما يضطرب الجسد الواحد فى منازعة النفس الواحدة ، ثم يزيد على هذا الاضطراب ! . .

وكيف يكون الحب ترجمانا لإرادة النوع ثم لا ينطق بكل عاطفة يتسع لها كيان الإنسان ! . .

* * *

يسألونك عن الحب قل هو اندفاع جسد إلى جسد ، واندفاع روح إلى روح ..

ويسألونك عن الروح فماذا تقول ؟ ..

قل هى من أمر ربى .. خالق الأرواح ! ..

لهذه الكثرة الزاخرة فى عناصر الحب ، تكثر العجائب فى العلاقات بين المحبين فيجمع الحب بين اثنين لا يخطر على البال أنهما يجتمعان ..

ويتكرر الحب فى حياة الإنسان الواحد حتى ليكون المحبوب اليوم على نقيض المحبوب بالأمس فى معظم المزايا ومعظم الصفات ..

ويتقارب البعيدان ، ويتباعد القريبان ، ويتجدد القلبان بين آونة وأخرى كأنها من طبيعة الجان ، والواقع أن العاطفة حرارة ونار ، ولا فرق بين طبيعة الجان وطبيعة النيران ..

إلا أن القلوب أقرب إلى التناسب والتجاوب إذا هى تناسبت فى العمر وتجاوبت فى المزاج ، وحب الفتى للفتاة كحب الفتاة للفتى لا يدوران على الجسد وحده كما قد يخطر على البال ، ولكنهما يتناسبان ويتجاوبان لأنهما ينظران إلى الدنيا بعين واحدة ويستقبلان الحياة بشوق واحد ، ويطربان ويغضبان على نحو واحد ، ويعطيهما الجسدان المتشابهان فرصة واحدة للتفاهم على الآراء وتبادل الخواطر والأهواء .

فلا تجاوب بين المحبين أقرب ولا أعم ولا أقوى من تجاوب العمر والمزاج ..

* * *

ولكن اختلاف السن قد يفتح الأبواب لداعية من دواعى التجاوب بين النفسين لا تتوافر فى السن الواحدة على الدوام . وحاجة نفس إلى عطف الأبوة وطمأنينة التجربة وسكينة الرضى قد تقابلها حاجة نفس إلى دفء العاطفة وحماسة الرغبة وإسداء العطف والرعاية ، فتقبل النفس على النفس ، ويعتصم الضمير بالضمير ، ويقع التبادل بين بضاعتين مختلفتين لا بين بضاعة واحدة من كلا الطرفين .

ولكنها الندرة التى لا يقاس عليها والمصادفة التى لا تنتظم فى حساب ، وكأنما يختلقها الحب اختلاقًا ليفتح باب الشك فيه ويبطل اليقين فى أمره ، وهو لا يتقى خطرًا من الأخطار كما يتقى خطر اليقين الجازم والضياء الحاسم . فالحب بخير ما دام فى القلب باب للشك مفتوح .. فإذا أوصد الباب مصراعيه على يقين لا شك فيه ، فالحب مارد فى قمقم مأمون ، أو رفات فى قبر مدفون ..

وخلاصة التجارب كلها فى الحب إنك لا تحب حين تختار ولا تختار حين تحب ، وأننا مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت ؛ لأن الحياة وتجديد الحياة وفقد الحياة هى أطوار العمر التى تملك الإنسان ولا يملكها الإنسان . . .

وقد تسألنى فى خاتمة المطاف : هل الحب إذن أمنية نشتهيها ؟ . . أو هى مصيبة نتقيها ! . .

ولى أن أقول : إنه مصيبة حين تحمل به نفسا ثانية مع نفسك وأنت تريدها ولا تريدك ، وأنه أمنية حين تتعاون النفسان ولا تتخاذلان . .

وليس بالمصيبة ، ولا يكفى فيه أن يوصف بالأمنية ، حين لا عبء ولا تخفيف ، بل تنطلق النفسان محمولتين معا على كاهل «النوع» كله أو على أجنحة الخلود التى تسبح فى أنوار عليين . . وما من محبين إلا اتفقت لهما هذه الرحلة السماوية فى سهوة من سهوات الأيام . .

* * *

من فلسفة الحياة ما نستمده من الطبع الموروث ..
ومنها ما نستمده من تجربة الحوادث والناس ..
ومنها ما نستمده من الدرس والاطلاع ..

وهى فى اعتقادى على هذا الترتيب فى القوة والأصالة . فلا يتفق الناس فى فلسفة الحياة إذا كان بينهم اختلاف فى الطبع الموروث ، وإن اتفقوا فى الدرس والاطلاع ، أو اتفقوا فى تجارب الحياة ..

وأهم جانب من جوانب فلسفتى فى الحياة هو ما استفدته من الطبع الموروث ، وجاءته بعض الزيادة من التجربة أو القراءة ..

وأعنى به قلة الاكتراث للمقتنيات المادية ..

فأعجب شىء عندى هو تهالك الناس على اقتناء الضياع والقصور وجمع الذخائر والأموال ....

* * *

وربما امتد العجب من هذا إلى ما هو أكبر وأعظم إلى رجالات التاريخ وأبطال الفتوح والغزوات ..

فالمتوسعون فى الفتح أعجب عندى من المتوسعين فى الثراء ، وكلامى عن هتلر ونابليون والإسكندر هو أثر من آثار هذه العقيدة أو هذا الشعور ..

وقد يخطر لبعض القراء أنها «فلسفة نظرية» أو نزعة من نزعات الرأى والتدبير ..

أما الواقع الذى أعلمه من نفسى فهو أن الطبع أغلب هنا من التطبع ..

فلم أشعر قط بتعظيم إنسان لأنه صاحب مال ، إن لم يكن أهلاً للتعظيم بغير مال ..

ولم أشعر قط بصغرى إلى جانب كبير من كبراء الثراء . بل شعرت كثيرًا بصغرهم حيث يستحقون التصغير ..

وكنت أعتقد دائمًا أن نابليون مهرج إلى جانب باستور ، وأن الإسكندر المقدونى بهلوان إلى جانب أرشميدس ، وأن البطل الذى يخوض الحرب ذودًا عن الحق والعقيدة أكرم جدًا من كل «بطل» يقتحم الحروب ليقال إنه دوخ كذا من الأمم ، وفتح كذا من البلدان ..

من هنا كنت قليل المبالاة بالمقتنيات المادية ، لأن احتواءها لا يعظم من تحويها فى نظرى ونقصها عندى لا يصغرنى بالنسبة إليه . .

أما فلسفتى فى الحياة مع الناس ، فأثر التجربة والدرس فيها أغلب من أثر الطبيعة الموروثة . .

كنت أتعب فى معاملتهم ثم عرفت ما أنتظره منهم ، فأرحت نفسى من التعب . . .

واتخذت لنفسى شعارًا معهم :

ألا تنتظر منهم كثيرًا ، ولا تطمع منهم فى كثير .

والطمع فى إنصاف الناس ، إذا كان فى الإنصاف خسارة لهم أو معارضة لهواهم ، هو الكثير الذى ما بعده كثير .

فهم منصفون إذا لم يكلفهم الإنصاف شيئًا ، ولم يصدمهم فى هوى من أهوائهم . .

ومنهم المنصف وإن جنى عليه الإنصاف ، ولكنه واحد فى الألف . . لا تجده فى كل حين . .

ولقد رضيت نفسى معهم على هذه الحقيقة ، وتعودت منهم مجافاة الإنصاف حتى كدت أشعر بشىء من «خيبة الرجاء» إذا وقعت اتفاقا على أحد المنصفين! . .

فهل هم أهل خير ؟ . .

هل هم أهل شر ؟ . .

ليبحث من أراد أن يبحث فى أمرهم على مهل . ولكنه قادر على أن يستريح معهم فى خلال ذلك إذا لم يطمع فى خيرهم وهم أخيار ، ولم يحفل بشرهم وهم أشرار . .

* * *

وفلسفتى فى العمل تتلخص فى أصول ثلاثة هى :

قيمة العمل فيه . .

وقيمة العمل فى بواعثه لا فى غاياته . .

وأساس العمل كله نظام . .

فإذا عملت شيئًا له قيمته ، فثق أنها قيمة «محفوظة» لا ينقص منها قول منكر ولا يزيد فيها قول معترف . .

وإذا لم تبلغ بك الثقة هذا المبلغ فاجعلها فرضا بين فرضين ليس لهما ثالث :

أما أن يكون للعمل قيمة مرهونة به فلا بأس عليه ، وإما أن تكون قيمته مرهونة بمشيئة هذا أو ذاك فهو أهون من أن تأسى عليه . .

وقد درج الناس على النظر إلى غايات الأعمال حتى أوشكوا أن يجهلوا بواعثها أو يغفلوا عنها .

واختلاف البواعث هو الذى ينتهى إلى اختلاف الغايات . فالناس يختلفون فى طلب المجد حين يطلبه أحدهم فى الرئاسة ، ويطلبه غيره فى العلم ، ويطلبه غيرهما فى الثروة ، ويطلبه آخرون فى الإيمان . .

وإنما اختلفت غاياتهم لاختلاف بواعثهم . فما يبعث هذا إلى العمل لا يبعث ذاك وما يزهد فيه بعضهم يتناحر عليه غير الزاهدين فيه . .

فعول على صحة الباعث لك على العمل قبل التعويل على صحة الغاية ، لأنك إذا أصدرت عن باعث صحيح هان عليك أن تفوتك الغاية المرجوة ، وعملت ما ينبغى أن تعمله وبقى عمل الزمن أو عمل الأقدار . .

وأصعب الأعمال سهل مع النظام . .

والعمل الكثير مستطاع إذا نيط كل عمل بوقته ، لأن حكم الأعمال الكثيرة فى هذه الحالة حكم العمل الواحد . . مادام له وقت لا يشترك فيه عمل آخر . .

وشعارى مع النظام كلمتان : «لا ترتبك» . .

وإنما تأتى الربكة من المفاجأة التى تطرأ على نظامك فتلجئك إلى تغييره . .

فلا تغير نظاما لغير ضرورة . .

وإذا حلت الضرورة فلا تتردد فى تغييره ، وخذ بين ذلك بالمهم فى وقته الذى لا يحتمل التأجيل . .

* * *

فصواب هذه الخطة ثابت من جانب لا شك فيه ، وهى أنها كل ما يستطاع وخير ما يستطاع ، وإنك بها تعمل شيئًا ، وبالتردد لا تنتهى إلى عمل شىء . .

فلسفة حياة فى بضعة سطور :

غناك فى نفسك ، وقيمتك فى عملك ، وبواعثك أحرى بالعناية من غاياتك ، ولا تنتظر من الناس كثيرًا . .

نعم .. ولكن أى حياة ؟ .. لقد عاب القرآن الكريم على بنى إسرائيل فى عهد النبى خوفهم من الموت ، فقال إنهم أحرص الناس على «حياة» ولم يقل على الحياة .. لأن الحرص على الحياة واجب طبيعى وواجب إلهى لا عيب فيه ، فلا يلام الحى على أن يحرص على الحياة .. وإنما يلام لأنه يحرص على كل حياة وأى حياة ، ولو قبل الهوان وهرب من الواجب وامتنعت عليه وسائل العمل النافع ووسائل الرجاء فى صلاح الأمور ..

وفى ختام مقال لى عن «فلسفة الحياة» قلت ما معناه : إن الحياة تستحق أن نصونها إذا كانت لنا شروط نمليها عليها وتقبلها ، ولكنها غير جديرة بالصون إذا كانت كلها شروطًا تمليها هى علينا فنقبلها صاغرين ولا نملك العرف والعدل فيها ..

وهذا هو الفاصل الحاسم الذى نفرق به بين الحياة الكريمة والحياة المهينة ، والحياة الأولى نعمة تصان والثانية سخرة وسخرية فى آن .. ومن الأمثلة التى يتضح بها هذا الفارق مثال الحياة فى الشباب المقبل والحياة فى الشيخوخة الفانية ، فالشاب له أن يأكل ويشرب وينعم ويطرب ، وعلى الحياة أن تديم له الصحة والنشاط والقدرة على هضم كل طعام ، واحتمال كل شراب ، والإعراض حينا بعد حين عن المنام ..

له أن يطيش ، وعلى الحياة أن تصبر على طيشه حتى يثوب إلى الحكمة ويصلح بيديه ما كانت تصلحه هى بيديها ..

له أن يعذب أبويه بالمغامرة والمخالطة ، وعلى الحياة أن تحبب إليهما العذاب ، وتلهمهما الصفح والحنان .. فهو صاحب شروط ، والحياة تتقبل منه تلك الشروط ، فهى جديرة بأن يحياها ، وهو جدير بأن يتقبلها على هواها ..

أما الشيخوخة الفانية ، فهى على نقيض ذلك من الألف إلى الياء .. حق للحياة أن تحرمها الطعام والشراب شيئا فشيئا ، وواجب عليها هى أن تقنع بما بقى لها وتجرب الاكتفاء بالموجود عن كل مفقود . من حق الحياة أن تطيش معها ، ومن واجبها هى أن تتقى ذلك الطيش بالحكمة ، وتحسب له الحساب بالتدبير بعد التدبير .. فالحياة كلها شروط تمليها عليه ، فيتقبلها ، والحياة إذن غير جديرة بأن يحياها ولكنه يحياها ، فلماذا ؟ .. إنه يحياها بحكم العادة وبحكم الضعف عن

فراقها ، لأن الإنسان لا ينبذ الحياة إلا بقوة مستمدة من الحياة . ومن أجل هذا ، كانت نسبة الانتحار بين الشبان أكبر من نسبة الانتحار بين الشيوخ . .

* * *

ويشبه هذا المثال الفارق بين الحياة المستقلة والحياة المستعبدة لأهواء الآخرين . . فالحياة المستقلة نعمة ، والحياة المسخَّرة «مدة سجن» تقضى ، لأن المستقل يملك شروطه ويمليها على الحياة فتقبلها ، ولأن الحياة تملى شروطها على «المسخَّر» فلا يملك الفكاك منها . . يعمل المستقل حين يشاء ويستريح حين يشاء . . أما المسخر فلا يعمل لنفسه ، ولا يستريح لنفسه ، ولكنه يجرى فى العمل والراحة على قانون مفروض عليه ولا رغبة له فيه . .

ولنا أن نتخذ الأمثلة من الحياة الفنية كما نتخذها من الحياة الطبيعية ، فنقول : إن الحياة الفنية تستحق العناء إذا كان عندك ما تقوله وتصنعه - وفاقا لذوقك ووحى وجدانك وعقلك - ولكنها لا تستحق عناء قلَّ أو كثر إذا كان كل ما تقوله موافقة لأذواق الناس وغوغائهم ، ومرضاة لهم فى مطالب المصلحة والجد أو مطالب اللهو والفراغ . .

والشروط بالأمل الصحيح كالشروط بالعمل الواقع فى تقويم قيم الحياة . . فليس من الضرورى أن تكون شروطك كلها منجزة بين يديك فى كل ساعة لأن الحياة ليست ساعة واحدة ، وليست يوما واحدا ، وليست سنة ولا بضع سنوات . .

* * *

فإذا كانت لك شروط مؤجلة فيها ، فهي كالشروط المعجلة على حد سواء .

ومثلك فى ذلك مثل المنفق على حساب المحصول فى المزرعة ، وهو يعلم أن المحصول آت لا ريب فيه . . فالحياة مصرف كبير ، وأموال المصارف ليست كلها حاضرة منجزة فى كل لحظة من لحظات النهار والليل ، وإنما تغنى عنها الثقة التى لا غنى عنها .

فاقنع بشروط الثقة فى بعض الأحوال ، كما تقنع بشروط الثقة فى كثير من الأحوال . . .

والحياة لعوب ماكرة . لا يحيط بمكرها جميع الأحياء ولو كانوا من أبناء آدم وحواء . وهى تعلم أنها تستهوى الخلق باللعب والدهاء . وتحول بينهم وبين الموت بالحيلة الناجحة فى كثير من الأوقات ، ولولا ذلك لشردوا منها كما يشرد الأطفال من الحبس الكريه الذى لا يلعبون فيه كما يشتهون . لهذا تعطى الشروط وتمنع بعضها فلا تكون جديدة بالحب كله ولا بالبغض كله فى وقت واحد من أوقات عمر الإنسان .

فالشاب له شروط كثيرة على الحياة فى الصحة والنشاط ولكنها قد تملى عليه شروطها الثقيلة فى مسائل العمل والمال أو مسائل الجاه والنفوذ ، والشيخ عليه شروط يطيعها فى شئون بدنه ونفسه ، ولكنه قد يملك شروطه فى تدابير المعيشة التى تريحه ويعوض بها مسافات من راحة العافية والسلامة .

والفنان المستقل قد يقول ما يشاء ، ولكن الفنان «الهواشِ» قد يربح ما يشاء .. ولولا ذاك لا نتحر نصف الناس وعاش الباقون فى حكم المنتحرين .. أو منتحرين مع وقف التنفيذ !

قبل أن أطبع ديوانى الأول – على ما أذكر – كنا ثلاثة أو أربعة من قراء الشعر والأدب فى بعض الضواحى التى يطيب فيها تناشد الأشعار ، فتمثل أحدهم بهذين البيتين :

قالوا الحياة شقاءٌ فلنا فأين النعيم ؟
إن الحياة حياة ففارقوا أو أقيموا

وكان بعضنا لا يعلم أن هذين البيتين من نظمى ، فقال هذا الكلام صعب .. هذا كلام استغناء .. كأنه يقول : من لم تعجبه الحياة فليشرب من البحر !

قلت : ليته يجد البحر ليشرب منه ، لأن الموت قفر تنضب فيه جميع البحار إلا أن تكون حياض الموت التى قال فيها الشاعر :

أنت وحياض الموت بَينى وبَينها وجَادَت بوَصْلٍ حين لا ينفع الوَصْلُ

فالحق أننا بين أمرين اثنين ، لا ثالث لهما : فإما أن تكون الحياة قديرة بأن نحياها ، وأما أن يكون الموت جديرا بأن نموته .. ولا خيار بعد هذا الخيار ..

وأحسب أن إيمانى بالحياة لم يتبدل منذ نظمت تلك الأبيات ، وقد كان إيمانا جديرًا بالتقدير والتكرير فى خاشية الضعف التى رانت على زملائنا من أبناء الجيل كله أو جله ، لأنهم كانوا يتباكون ويظنون أن البكاء علامة الظرف والذوق ، ويشكون الحياة ويظنون أن جهاد الحياة شىء لا يليق بأصحاب المزاج «الرقيق» .

وليس معنى هذا أننا لا نشكو من حالة من الحالات ، فإن الدنيا ما خلت قط ولا تخلو أبدًا من أسباب الشكاية بسبب معقول أو غير معقول .. ولكننا نعنى أن شكوى الطفل لأمه غير شكوى الرجل لنفسه ، وأن الحياة حياتنا .. فنحن مسئولون عنها ، ونحن نصلحها ونعالج نقصها ونجعلها أهلا لنا أو جديرة بأن نحياها ، وقولنا إن الحياة غير جديرة بأن نحياها مرادف لقولنا إننا نحن غير جديرين بالحياة ..

لا نقل هذا ولا ذاك ، ولنقل إن الحياة جديرة بأن نحياها فنراها كذلك ..

... طفت العالم من مكانى؟ ...

أعتقد أن كبار الرحالين الذين تستحوذ عليهم رغبة ملحة فى الطواف بين أرجاء العالم تملكهم على الرغم منهم «ملكة شخصية» يصح أن تسمى عبقرية السياحة، ويصح أن تتجاوز الحد فتسمى هوسة السياحة ..

وأعتقد أن هذه الملكة الشخصية مستمدة من ملكة قوية أصيلة فى الأمة التى يخرج منها أولئك الرحالون المنقطعون للسياحة ..

لأن معظم الرحالين الكبار خرجوا من أمم قد تعوّد أبناؤها الرحلة وشقت عليهم الإقامة الطويلة . كالعرب لأنهم من أبناء البادية ، والفينيقيين والإغريق لأنهم يقيمون على الشاطئ ويحتاجون إلى الملاحة ، وكالبنادقة والبرتغاليين والإنجليز فى العصور المتأخرة ، لأنهم جميعا بحريون وملاحون ..

وأكثر الرحالين الكبار الذين اشتهروا فى التاريخ ونسب إليهم الفضل فى الكشوف الجغرافية ، هم من أبناء هذه الأمم ، أو أبناء أمم تشبهها فى البداوة والاشتغال بالملاحة ..

ملكة شخصية مستمدة من ملكة قومية ..

هذه هى عادة الرحلة التى تغلب على بعض الناس ، أو هذه هى هوسة الرحلة إذا تجاوزت حدها المعقول .

على أننى أعتقد - إلى جانب هذا الاعتقاد - أن ملكة الرحلة غالبة على الرحالين وغير الرحالين .

ولكنها تظهر فى صور كثيرة غير صورة الرحلة الخارجية ، ومنها الرحلة فى داخل النفس أو فى عالم الخيال .

وبين كبار الرحالين من هذا الطراز أناس لم يفارقوا مكانا واحدًا خلال عشرات السنين كأبى العلاء المعرى ! ..

فإنه سمى نفسه «رهين المحبسين» لملازمته داره وحبسه فى جسده ، ولكنه شاء أن يرحل فى كتاب من كتبه - وهو رسالة الغفران - فلم يقنع بأقل من الرحلة إلى السماء ، وإلى الجحيم !

وكجول فيرن الكاتب الفرنسى الحديث ..

فإن ما رآه من جوانب الأرض بالقياس إلى المشاهدات المأثورة عن كبار الرحالين شىء لا يذكر ، ولكنه ساح بخياله فى جوف الأرض وفى أعماق البحار وفى أجواء السماء ، بل ساح فى عالم الغيب فوصف للناس مخترعات لم تخلق بعد ، ثم خلقت فى أوانها فإذا هى كما وصف .. ! حتى قال ليوتى القائد الفرنسى الكبير إن الناس اليوم «يعيشون أحلام جول فيرن» ..

* * *

لابد من السياحة إذن فى الخارج أو فى الداخل ! سياحة مع الانتقال ، أو سياحة بغير انتقال .

والظاهر – لا بل المحقق – أننى أنا أحد الرحالين بغير انتقال ، كما لاحظ بحق أحد أصدقائى ، حين علم مرة باعتذارى من تلبية الدعوة إلى كثير من السياحات ، وبعضها بغير نفقة على الإطلاق ..

ومع هذا يجوز لى أن أقول إننى طفت العالم من مكانى الذى لا أبرحه ، لأننى رأيت فى هذا المكان ما يراه الرحالون المتنقلون ..

لقد تعلقت بالسياحة فى أوائل صباى ، وشاقنى أن أسيح هنا وأسيح هناك بين مشارق الأرض ومغاربها . ولكنها كانت كلها كما تبين لى بعد ذلك عارضًا من عوارض الصبا التى تنزوى مع الزمن وراء غيرها من الميول المتمكنة فى السليقة ، فما زالت تضعف وتضعف حتى ليسعنى أن أقول اليوم إننى لولا رياضة المشى التى تعودتها لما خطر لى أن أبرح المنزل أياما بل أسابيع .

ولذلك سبب منى ، وسبب من أحوال العصر الذى نعيش فيه .

فأما السبب الذى منى فبعضه يرجع إلى حب العزلة التى نشأت عليها وورثتها من أبوى ..

وبعضها يرجع إلى شعورى بالقراءة التى تعنينى . فإننى أشعر بأننى لا أقرأ سطورًا على ورق ، ولكننى أحيا فى تلك الأوراق بين أحياء .

ومن هنا ألفت بعض شخوص التاريخ كأننى أعاشرهم كل يوم ، وألفت بعض الأدباء فى قراءة كلامهم فتمثلتهم فى ملامح وجوههم وعاداتهم ، فى حركتهم وسكونهم ، واستمليت من ديوان شاعر كابن الرومى سيرة حياته أو صورة حياته ، وثبت له فى خيالى شكل لا يتغير ولا يزال يلوح لى على هيئة واحدة كلما طاف بى طيفه فى منام .

ومثله المعرى والفارابى وابن سينا وطائفة من مشاهير الأدب والفن بين الشرقيين والغربيين .

فلو كنت مصورا لاستطعت أن أرسم لكل منهم صورة كاملة كما يرسم المصور أناسا من الأحياء يراهم كل يوم .

* * *

أما السبب الذى من العصر ، فلك أن تقول إنه فى الحقيقة جملة أسباب ..

لأن العصر الحاضر أول عصر ييسر للإنسان - وهو جالس فى مكانه - أن يدرك بالبصر والسمع بلادًا واسعة على مدى مئات الفراسخ وألوفها ، فينظر مساكنها وسكانها ، ويشرف على بطاحها ، ويتغلغل فى دروبها ، ويتراءى له فى لحظات من معالم هذه المدينة أو تلك القرية ما ليس يتراءى لساكنها فى ساعات أو أيام .

كانت السياحة هى الوسيلة الوحيدة للإحساس بالبلاد البعيدة .

أما اليوم فنحن نحسها بالعين والأذن كلما أردنا ، ونحن فى الدار أو على مقربة من الدار ..

الصحف تنقل إلينا أخبارها .

والإذاعة تسمعنا أصواتها وأصداءها .

والصور المتحركة تستدنى للآذان - كما تستدنى للعيون - كل ما هو خليق منها بمشاهدته أو الاستماع إليه .

ولعلم تخطيط البلدان قد يعرفك بما يجهله المقيمون فيها ، ومراجع التاريخ قد تملأ نفسك بما يملأ عصورها من الأحداث والذكريات ، ونقوش الفنانين وأغانى الشعراء والموسيقيين تهيئ لك أن تنفذ إلى روحها وتمتزج بعبقريتها ، وتحياها على أحسن أنماطها فى الحياة .

* * *

نعم إن الإحساس بالمكان - وأنت فيه - غير الإحساس به وأنت على مسافة منه .. ولكن هل نستطيع أن نقول إن الإحساس بالمكان القريب يغنى عن الإحساس البعيد ؟ أو هل نستطيع أن نقول إن الإحساس من الداخل يغنى عن الإحساس من الخارج ؟ أو أن الإحساس بالعين والأذن يغنى عن الإحساس بالوعى والخيال ؟

هما إحساسان ولا شك لازمان ..

والخير كل الخير أن تجمع بينهما ، وأن تكون رحلتك الخارجية مقرونة برحلتك الداخلية ..

فإذا تعذر الخير كل الخير ، فالخير بعض الخير «خير» من لا شىء !

ولست أزين لأحد أن يفضل طريقتى فى السياحة على طريقته . ولكننى أنا على الأقل لن أنقطع عن السياحة فى العالم رحالة بغير رحلة ، وطوافًا بغير طواف!

... أجمل أيامى؟ ...

قال : حدثنا عن أجمل أيامك من شبابك إلى مشيبك .

قلت : أمهلنى حتى أذكر .

ثم راجعت نفسى قبل أن أمعن فى التذكار وأستقصى ما عندى من ودائع الأسرار والأخبار ، فسألتها مصارحا فى سؤالها :

– فيم هذا الإمهال وفيم هذه المراجعة؟ إنك لا تفعل ذلك إلا أن تكون أيامك الجميلة قد بلغت من الكثرة أن تفوق الحصر والحساب وأن تحتاج منك إلى العناء فى التمييز بينها وتفضيل ما يذكر منها ، بعد طول الأخذ والرد والترجيح والتعديل!

فهل تراك تزعم لنفسك ، أو تزعم لقرائك ، أنك صاحب هذه الثروة التى لا تحصى من الأيام الجميلة ، وأنك فى حيرة بين ما تأخذ منها وما تدع وبين ما تقدم منها وما تؤخر ، وبين ما تنشره منها وما تطويه ؟

دعواك هذه – إن ادعيتها – لا يدعيها أحد من بنى آدم وحواء ، فما بلغت السعادة بهذا النوع البشرى المسكين أن يستمتع فى حياته بكل هذا المقدار من جمال الأيام أو جمال الأوقات التى تحسب بالساعات .

فإن لم يكن هذا مبلغ ثروتك من الأيام الجميلة ففيم العناء فى التذكر والاستعادة وفيم التسوف والإرجاء ؟ .

هل هذه الأيام الجميلة من الخفاء بحيث يحجبها ظلام السنين عن النظر وتطويها حوادث الأيام فى زوايا النسيان . .

كلا . . ولا كل هذا التواضع «الجميل» فى رأى الكثيرين من المزيفين للأقوال والأعمال ، فما من إنسان يعمل فى دنياه ويتصل بإخوانه من ذرية آدم وحواء تفوته الأيام المذكورة التى لا تنسى على طول العهد أو التى تغلب النسيان ولو تقلب عليها الليل والنهار .

فلا محل للبحث فى أعماق الذاكرة لاستخراج تلك الودائع الباقية ، وإنما البحث فى أعماق الذاكرة لغرض آخر غير حصر أيام الحياة التى تحسب من الحياة ونحسب من أجلها الحياة .

إنما البحث فى أعماق الذاكرة للتمييز بين الأيام التى يحق لنا أن نصفها بالجمال والأيام التى يكفى أن تحسب من أيام المتعة واللذة أو أيام السرور والارتياح . .

وبين الصنفين فارق بعيد فيما يذكر ومالا يذكر .

بينهما الفارق الذى يجعل أحد الصنفين جديرًا بالغبطة والتنويه ولو لم يكن منه فى العمر غير يوم واحد ، ويجعل الصنف الآخر على أحسن الأحوال نموذجًا يتكرر على نمط واحد ويكفى أن يذكر منه عنوانه ليغنينا بعد ذلك عن ذكر المئات والألوف من الأيام ، يدل عليها ذلك العنوان . .

* * *

فى حياة كل إنسان ذخيرة وافرة من الأيام اللذيذة الهنيئة والأوقات الرخية الراضية ، ولكنك تحسبها من أمتع أيام الحياة ولا تحسبها من أجمل أيام الحياة .

فمن هذا الذى يعرف ما يذكر وما ينسى من الأيام ثم يستوقف السامعين ليحدثهم عن الأكلة الشهية التى ساغت له أمس أو قبل عشر سنين ؟ . .

ومن هذا الذى يعرف معنى الجمال ثم يحسب منه تلك الليلة اللذيذة التى قضاها فى أحضان الحب والهوى ، ونعم فيها بنعومة ذلك الجسد وحرارة ذلك العناق .

هذه اللذائذ لا تفوت إنسانًا من بنى آدم وحواء ، وليست من جمال النفس الإنسانية شيء ، وإنما هى تمرينات محبوبة للحواس ينعم بها كل ذى حس من الحيوان كما ينعم بها كل ذى نفس من بنى الإنسان .

ليست هذه أجمل أيام الحياة ، ولكنها كما تقدم أمتع أيامها أو قد تكون فى حساب الجسد أحب الأيام إليه .

أما اليوم الجميل فهو اليوم الذى يرتفع بنا إلى مقام فوق المتعة والألم والراحة وفوق المعدات والأكباد والجلود ، وفوق مطامع النفس الى يغلبها ويسومها أن تقبل الجميل والقبيح وأن ترضى بالحميد والذميم . .

* * *

اليوم الجميل هو الذى نملك فيه دنيانا ولا تملكنا فيه ، وهو اليوم الذى نقود فيه شهواتنا ولذاتنا ولا ننقاد لها صاغرين أو طائعين .

ومن هذه الأيام ما أذكره ولا أنساه ولا أحتاج إلى العناء فى البحث عن ذكراه . . .

فكل يوم ظفرت فيه بنفسى وخرجت فيه من محنة الشك فيما أستطيع وما لا أستطيع فهو يوم جميل بالغ الجمال .

جميل ذلك اليوم الذى قضيت عشرات الأيام فى انتظاره متردداً بين إغراء اللذة وإيحاء الكرامة ، حتى وصلت إليه فحمدت لنفسى أنها عملت بما ينبغى أن تفعل ، واستطاعت أن تفعله ولا تندم عليه ..

جميل ذلك اليوم الذى ترددت فيه بين ثناء الناس وبين عمل لا يثنى عليه أحد ولا يعلمه أحد فألقيت بالثناء عن ظهر يدى وارتضيت العمل الذى أذكره ما حييت ولم يسمع به إنسان ..

جميل ذلك اليوم الذى وقفت فيه بين الخوف من عواقب الخروج على زمرة الأقوياء القابضين على أزمّة الأمر والنهى فى البلد وبين الرضا بمساوئهم وأباطيلهم وغنائم رضاى ورضاهم ، فخرجت من الزمرة غير ملتفت إلى الوراء وأسعدنى الطالع المبارك فجمعت بين جرأة المجترئ وحكمة الحكيم ، وبين تضحية المجازفة وثواب الحزم والروية .

جميل ذلك اليوم الذى كاد يحشو جيوبى بالمال ويفرغ ضميرى من الكرامة فآثرت فيه فراغ اليدين على فراغ الضمير .

جميل ذلك اليوم الذى احتجت فيه واحتاج فيه مسكين فغلبت شح النفس ، ووجدت بين جوانحى طاقة الصبر على الضيق ، ولم أجد فيها طاقة الصبر على منظر العين الذليلة والقلب الكسير ..

جميل ذلك اليوم الذى استغنيت فيه عن العمل ، وملكت فيه ما يغرى بالكسل فطاب لى التعب الذى لا حاجة إليه ، ولم يطب لى الكسل الذى يحببه إلىّ طول الجهد وقلة الجزاء على العمل الكريم ..

* * *

هذه الأيام جميلة أجمل ما فيها أن نصيبى منها جد قليل ، إلا أن يكون النصيب عرفانى باقتدار نفسى على ما عملت فهو إذن كثير بحمد الله لا أبادل عليه المكثرين من خيراتهم وطيباتهم ، كما يحسبون الخيرات والطيبات ..

أجمل ما فى الحياة يوم تملك فيه نفسك فتعلم أنك ملكت الثروة التى لا يقاس بها ملك المال ولا ملك اللذة ولا ملك الثناء .

أيام لا أقول إنها تكثر حتى تعد بالعشرات ولا أقول إنها تندر حتى لا تذكر ، ولكننى أذكرها وقد سئلت عنها لأنها تعريف بالجمال حين نتحدث عن جمال الأيام ، وعزاء لمن قنع بها من حياته ليعلم أنها تبقى فى الذاكرة وأنها محصول سنى العمر ويحمده من ملكه ، ولو لم يملك سواه ..

أكره الصيف

قال شاعر حديث :

يَطْلُبُ الإنسانُ فى الصَّيفِ الشِّتا ... فـإذا جـاءَ الشِّتـاءُ أنْكَرَه

لَيس يَرْضَى المَرْءُ حالاً واحِدًا ... قُتِلَ الإنسانُ ما أكْفَرَه !

أما أن الإنسان كنود كفور فحقيقة لا شك فيها ، إنه كثيرًا ما ينعم بالخير فلا يشكر ولا يذكر ، وكثيرًا ما يقابل الخير بالشر والإحسان بالإساءة ، فلا يخطئ الشاعر الذى ينعى عليه كنوده ونكرانه وكفره بنعماء ربه وبنى جنسه . .

* * *

وقريبًا كنت أعاود القراءة فى مقالات طبيب عالم فاضل له شهرة بالعطف على الحيوان ، فقرأت للمرة الثالثة أو الرابعة قول إن «حب النوع الإنسانى» فضيلة عليا ولكنه هو «آسف لأنه لا يستطيع أن يدعى هذه الفضيلة» . . وحسبه منها أنه قانع بحبه لأنواع الحيوان ومصاحبته لما عنده من الكلاب والقردة ، وهو الذى لا يطيق أن يزيد فى حديثه مع أحد من الناس على نصف ساعة ، ثم يحاول النجاة ويعجب لمحدثه كيف لم يسبقه إلى هذه المحاولة !

قرأت هذا الاعتراف لكاتبه الدكتور «آكسل مونته» أصدق الناس عطفًا على العجماوات فلم أعجب لقراءته فى هذه المرة ولا فى المرات السابقة ، لأنه فى الواقع رجل صادق لا يخفى حقيقة شعوره ، ولا يلقى القول على عواهنه ، فإن جنسنا البشرى - ولا فخر - يستحق هذا وأكثر منه من فضلاء أبنائه ، والدكتور (آكسل مونته) فى طليعة هؤلاء الفضلاء . .

قتل الإنسان ما أكفره[1] . . صدق الشاعر وصدق الطبيب ، ولكن الشاعر لم يصب فى اختيار «الحيثيات» كما أصاب فى الحكم على المتهم ، فقد يشتاق الإنسان فى الشتاء إلى الصيف وقد يشتاق فى الصيف إلى الشتاء ، ولا يستحق وصف الكفر والكنود من أجل هذا ! ولا يقال فيه إلا أنه يصير إلى حين ، ثم يخذله الصبر بعد ذلك الحين .

فتقسيم الفصول فى الدنيا لم يقصد فيه الدوام ولم تجمع الخيرات كلها فى موسم واحد ، بل وزعت على الفصول كلها وجعلت فى بعض الأقطار فصلا

(١) شطر البيت مستعار من القرآن الكريم ـ سورة عبس آية ١٧.

واحدًا لا تختلف مواسمه على طول السنة ، فلا يلام الإنسان إذا هو تمنى بعض الخير الذى غاب عنه أو شكا بعض الشر الذى ألح عليه ، وقد يمهد له العذر فى ذلك «أن الحال من بعضه» وأن الكرة الأرضية نفسها تتقلب فى دوائر الفلك فلا تصبر على صيف أو شتاء ، ولا تقنع بربيع أو خريف . .

وحتى لو كانت «الفصول» رضى النفس فى كل موسم لا أحسب أن الملل منها يدل على «الكفر والكنود» كما يدل على طلب التقدم وحب الاستطلاع ، فإن الإنسان يترقى ويتقدم لأنه يترقب حالا بعد حال ويطمح إلى المزيد من الخير الذى يحصل فى يديه ، ولولا ذلك لبقى على نقصه وسوء حاله ولم يرتفع إلى طبقة بعد طبقة فى تاريخه ، ولو جاز لنا أن نلوم الإنسان لأنه يتغير ويحب التغير ، لجاز لنا أن نلوم الطفل الذى ينتقل إلى الصبا ونلوم الصبى الذى ينتقل إلى الشباب ونلوم الشاب الذى يبلغ كمال الرجولة مع الزمن ، ثم لا يقنع بذلك حتى يتمنى الخلود .

كلا أيها الشاعر الحكيم الذى صدق فى حكمه ولم يصدق فى حيثياته ، فقل ما شئت فى كنود الإنسان وكفره بالنعماء ، ولكننا ندع لك «حيثياتك» تعيد النظر فيها على مهل ، ونقول لك يا صاح إننا نحن أيضًا نطلب الصيف فى الشتاء ونطلب الشتاء فى الصيف ، ونعرف لكل فضله وحسنه وسبب اختياره ، فنحسب هذا العرفان «عرفانًا بالجميل» ولا نحسبه من الكنود والكفر بالنعماء .

وإذا لم يكن بد من طلب الدوام . . فليدم لنا فصل الشتاء وليذهب عنا الصيف حيث شاء ، إلى أقصى الأرض أو أطراف السماء !

* * *

يقال إن الناس يختلفون فى تفضيل الفصول على حسب اختلافهم فى المولد وموعده من تلك الفصول ، فمن ولد فى الصيف فهو صيفى الهوى والمزاج ، ومن ولد فى الشتاء فهو محب للبرد مستريح إليه . . !

فإن صدق هذا الزعم فليصدق على من شاء من مواليد الصيف ، ولكنه – مع الأسف – لم يصدق علىّ قط ولا هو صادق علىّ الآن ، لأننى ولدت فى أشد أيام الصيف من شهر يونيه بمدينة أسوان – ولا يزعجنى شىء كما يزعجنى الصيف إذا ارتفعت حرارته فوق حرارتى على الخصوص ، وتقدم من «الثلاثينات» إلى حدود الأربعين ، وهى كما يقولون سن النضج وقد صدقوا . . ولكنه نضج الجلود لا نضج الأعمار . .

ولا تزعجنى منه مضايقة المزاج فقد تعودنا من الدنيا مضايقات كثيرة أشد على النفس من هذه المضايقات ، وإنما يزعجنى منه أنه «يتعب الكبد» حقيقة ومجازًا ، وتعب الكبد والعياذ بالله غاية الإزعاج وقلب المزاج . .

وقد سألت كثيرين ممن ولدوا مثلى فى هذا الفصل الخانق ، وإن لم يوصف بأنه بارد ، فكان لسان حالهم أنهم نسوا مولدهم فيه ، ويخيل إليهم أنهم سيموتون فيه!

* * *

ومن نقائض الصيف أن يمتد فيه وقت العمل وتقصر فيه القدرة عليه عند معظم العاملين ، فيبلغ النهار أربع عشرة ساعة وتهبط الطاقة بضع ساعات ، فلا هو بالموسم العامل ولا هو بالموسم المريح ، وإذا احتالوا عليه فى الغرب بتقديم الساعات فهذه الحيلة فى الشرق قلما تقدم أو تؤخر لأنه يطلب أبناءه بالقيلولة فى الظهر الأحمر كما يقولون ، فينامون فى النور الساطع ولا ينامون فى الظلام الحالك ، وينقلب ليلهم بنهار ، وهم يفرون من الديار ولات حين فرار .

ومن نقائضه أنه يدعى موسم الثمرات لأنه موسم الحصاد ، ولولا أنها نبتت فى الشتاء أو الخريف لما حصدت فيه . .

وإذا ارتفعت فيه الحواجز وتفتحت فيه الأبواب ، فكثيرًا ما تنفتح للناس وهو من ورائهم كرار قهار ، يطردهم طردا إلى الخلاء بغير قرار ، وقد يطردهم من ديارهم إلى خارج الديار ، وإن شط المزار .

وإذا أغناهم عن النار أحوجهم إلى الثلج ، أو أغناهم عن الكساء أحوجهم إلى نسمات الهواء :

يتأففون منه بحكم الفطرة قبل حكم المشيئة ، فهم بين زافر ونافر ، وبين نافخ فى الهواء أو متطلع إلى السماء ، فلو أراد أن يتجمل ويتلطف ، غلبته «القافية» فتململ وتأفف ، وأوجس شرا وضاق صدرًا ، وإن اتسعت حوله منادح الفضاء!

إلا أننى أحمد له ساعة لا يحمدها أحد ، لأنها الساعة التى ينام فيها كل أحد ، ولا أحس فيها لاغية فى الطريق ، ولا فى البلد ! . .

عودت الليالى فى صيفها أو شتائها ألا أقضيها كلها نائمًا وإن قصرت مسافتها بين المغرب والمشرق ، فلابد من يقظة أو يقظات ، ولابد فى كل يقظة من جلسة إلى صفحة أو أسطوانة ، أو نظرة على الأقل إلى الشرفة قد تطول فى كثير من الليالى إلى مطلع الفجر ، وقد تنسينى الفراش حتى الصباح . .

يتعمق بى الليل أو أتعمق به فى هذه الجلسات الطوال ، فتنقطع الرِّجْل من الطريق كما يقول سهارة الليل ، وتنقضى اللحظة بعد اللحظة ولا حس ولا خبر ولا موقع قدم ولا همسة هامس من قريب أو بعيد .

وحدى فى الكون كله ، أو الكون كله لى وحدى .. وحسبك من الصيف أن يعطيك لحظات معدودات تحس فيها بالكون كله بين يديك ، مخلوقا لك بغير منازع ولا شريك .

تحس بهذا نعم مجرد إحساس لا تستولى به على الحقيقة فى ظاهرها وباطنها ، ولكنه الإحساس الذى يكفى لأنه غاية الكفاية وغاية الإمكان ..

لحظة تنفرد فيها بالكون كله ولو فى عالم بين اليقظة والمنام ، وهل يتفرد أحد بشىء من الأشياء فى غير عالم الوهم أو عالم الأحلام ؟

أنانية ؟ ..

أتقول : أنانية ! .. قل ما تشاء ، ولكن لا تنس أن «الأنانية» التى تتسع للكون كله أوسع من الزحام الذى تتصادم فيه الرؤس والأقدام ..

فى تلك اللحظات لا أنس حكيمنا[1] رهين المحبسين وهو يقول :

ولو أَنى حُبِيتُ الخُلْدَ فَردًا لما أَحْبَبْتُ بالخُلْدِ انْفِرَادَا

* * *

نعم لا أنساه ولا أزال أقول معه : إننى كذلك لا أحب الخلد منفردا به على حال ، ولست أحسب أحدًا يحب هذا الذى كرهه أبو العلاء ، أو يحسبه نعيما يحرص عليه أبناء الحياة الفانية .

فكلنا فى هذا سواء .. أحكم الحكماء وأجهل الجهلاء ..

لا انفراد بالخلد ولا نعمة فيه ولا نعيم عين .. أما التفرد بالكون كله ساعة أوبعض ساعة فذلك غاية المنى ولو فى الحلم ، أو فى يقظة كأنها من حلم الصيف!

فإذا أعطانا الصيف تلك اللحظة نحسها واهمين أو متخيلين ، فتلك شفاعة له من لفحات لهيبه ، ونفحات صبيبه ، ومن أسباب الغفران أنه أوان لا يخلد به الزمان ، ومادام يزول فله من إقباله عذر مقبول .. !

(١) أبو العلاء المعرى .

الفصل الثامن

... بعد الأربعين ...

من الأقوال الشائعة أن الشباب يبدأ حياته «خياليا» ، ثم يصير إلى الواقع شيئا فشيئا حتى ينكر كل خيال ..

لكننى أذكر أن البداءة معى كانت على خلاف هذه القاعدة وأننى الآن أقل إيمانا بما يسمونه التفكير الواقعى مما كنت فى مستهل الشباب .

ففى مقدمة «خلاصة اليومية» وهى أول كتاب طبعته قبل عشرين سنة تلك ألخص الأفكار الى جمعتها فى تلك الخلاصة :

أولا : إن كل ظواهر هذا الكون علويها وسفليها ، ظاهرها وباطنها ، نتيجة تفاعل القوى المختلفة .. وكذلك الأمر فى الاجتماع البشرى ..

ثانيا : إن اللذة والألم أو - بعبارة أعم - المنفعة والضرر هما الدعامتان اللتان عليهما تقوم الأخلاق البشرية كافة ..

ثالثا : إن الإنسان حيوان راق ، ولكنه لا يزال «حيوانا» ..

فهذه نظرة «واقعية» لا أومن بها الآن بعد أن جاوزت الأربعين ، وليس يتسع المقام هنا لتفصيل الخلاف بين رأيى فى العشرين ورأيى فى الأربعين ، فهذا مجال واسع كثير الشعب كثير التفاصيل . ولكننى أردت أن أقول إن الأمر قد يختلف أحيانا ، فيبدأ الشاب بالنزعة الواقعية ، ثم ينتهى إلى التعديل فيها ، وليس من الضرورى فى كل حال أن يبدأ بالخيال وينتهى بالنزعة الواقعية ..

على أن الحقيقة التى لا ريب فيها أن «النزعة الواقعية» عند الشاب لا تخلو من الغضب العنيف على محاسن الخيال والأمثلة العليا ، فكما أن الفتى المدلل يشعر بالخيانة من حبيبته فيروح ثائرا غاضبا يقسم أنها دميمة وأنها حقيرة وأنها لا تستحق منه الشغف ولا الغضب والنقمة ، كذلك يفعل الشاب الذى يخيب أمله فى المثل الأعلى فينقلب عليه ثائرا غاضبا يقسم أن المثل الأعلى خرافة ، وأن الحياة كلها «مادة» وأن الإنسان حيوان وخير له أن يعيش كالحيوان .

فلا ينبغى أن نصدق العاشق المخدوع الثائر على الحبيبة ولا الفتى المفكر الثائر على المثل الأعلى فإن العاشق يثور وينكر جمال حبيبته لأنه يحب ويريد أن يحب ، والفتى المفكر يثور وينكر جمال المثل الأعلى لأنه يؤمن ويريد أن يؤمن . وهذا هو الفرق بين النزعة الواقعية عند الشباب والنزعة الواقعية عند الشيوخ . . ففى الشباب تكون النزعة الواقعية أشبه بالغضب من محاسن الخيال والمثل العليا ، وفى الشيخوخة تكون النزعة الواقعية إنكارًا لوجود تلك المحاسن والمثل وعجزا عن الشعور بوجودها مع الرضى عنها أو الغضب عليها . .

فأنا فى التفكير بدأت بشبابى «واقعيا» وانتهيت إلى الشك فى قدرة الإنسان على إدراك الواقع كله . . لأن إدراك الواقع كله لا يتأتى لإنسان محدود فى زمانه ومكانه وتفكيره وشعوره ، إذ الواقع كله شىء يتناول الكون فى ظاهره وخافية ، وليس للكون حدود فى الزمان والمكان ولا فى مؤثراته على الفكر والشعور . .

فالذين يحسبون أنهم قادرون على إدراك الواقع فى المسائل الكبرى والأصول الخالدة هم الواهمون ، وهم هم الذين لا يستحقون اسم «الواقعيين» .

* * *

هذا فى التفكير . .

أما فى المسائل النفسية ، فالذى أجزم به أن الزمن لا يغير عناصر النفس الأصيلة ولا يزيد عليها ولا ينقص منها . .

فكل ما كان فى نفسى من أخلاق وأطوار وشهوات أحسستها فى إبان الشباب الأول ، لا تزال قائمة هناك أراها فى العشرين ، وفى الخامسة والعشرين ، وفى الثلاثين وفى الأربعين . .

كل ما اختلف منها أنها كانت فى حالة الفوران ، ثم هى جانحة قليلا إلى الاستقرار . .

فكأنما هى مواد فى قدر تغلى وتضطرب . .

ففى إبان الشباب الأول كان الغليان شديدا ، فكانت هذه المواد تذوب وتتحلل ويختلط لون منها بلون ، وعنصر منها بعنصر ، ولا تنى صاعدة هابطة ولا تلمحها إلى اليمين حتى تراها إلى الشمال ولا تهم بأن تحصرها وتعرف مقدارها حتى تغيب عنك وتفلت من الإحصاء .

أما فيما بعد ذلك فقد جنحت إلى الاستقرار فأمكن أن تراها وأن تحصرها وأن تعرف معادنها وألوانها ، وقد رسب منها ما رسب ، وطفا منها ما طفا ، وقل اختلاطها وتميزت ألوانها فسهل من إحصائها ما كان صعبا وأسلس من بيانها ما كان عصيا ، ولكنها فى جميع الناس هى هى بلا زيادة ولا نقصان .

فالسن لا تُغيِّر الطبائعَ ولا تضيف إلى عناصر النفس أو تأخذ منها ، ولكنها تعرفنا بمقاديرها ومواقعها وتنقلها من غليان مبهم إلى استقرار واضح ، ولكل من هاتين الحالتين فضله ورجحانه ، ففى الغليان قوة وفى الوضوح معرفة ، والمعرفة مع ذلك قوة للعارفين . .

ذلك مجمل ما يقال فى التغيير الذى طرأ علىّ بين العشرين والأربعين من حيث التفكير ، ولا سيما فى المسائل الكبرى ، ثم من حيث الأخلاق والبواعث النفسية .

* * *

أما شؤون المعيشة أو ما يسمى فى بعض الأحيان بفلسفة العيش فالاختلاف فيه بين العشرين والأربعين غير قليل . .

ففى العشرين كنت كالمسافر الموعود فى رحلته بأمتع المناظر وأعجب المفاجآت ، فلا يزال يعرض عما يراه لأنه دون ما كان ينتظر ويتخيل ، ولا يزال مستهينا بالحاضر أملا فيما يليه .

أو أننى كنت فى العشرين كالجالس على المائدة وهو يظن أن أطايب الطعام لا تزال مؤخرة محجوزة ، لأنه لم يجد أمامه طعاما يستحق الإقبال . .

فهو لهذا يصيب منها القليل ويعف عن الكثير ، ويزهد فيما بين يديه ويتشوق لما بعده .

حتى إذا أشفق أن ينهض جائعا تناول مما بين يديه فى اعتدال فأمن الجوع وأمن فوات المقبل الموعود .

* * *

وكذلك كنت فى العشرين وأصبحت فى الأربعين ، فكنت أرى كل متعة حقيرة زهيدة شوقا إلى ما بعدها وارتيابا فى قيمتها ، وأن تكون هى كل ما تزلفه الحياة لأبنائها ، ثم أخذت نفسى بأن أتناول ما على المائدة تناول رجل لا يفوت الحاضر ولا يحب أن يفوته المستقبل ، والعجيب أننى كنت متنطسا عازفا عن الدنيا حين كانت عندى كلها مادة وحيوانية ، وأننى أقللت من التنطس والعزوف

حين رأيت فى الدنيا شيئًا غير المادة والحيوانية .. وإنما يبدو هذا عجيبًا فى الظاهر الذى نراه لأول نظرة دون الباطن الذى نراه بعد إنعام النظر ، فإن العزوف الأول كان عزوف عاشق ساخط يطلب من الحياة الكثير ، فإن لم يأخذه أنف من القليل .. ومن طلب صاحبته كلها لم يقنع منها بنفاية ما تعطيه ! .. فالفرق ظاهر بين هذه العلاقة وعلاقة العشرة الهينة التى تقوم على رأى بشار :

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

* * *

وبعد فما النصيحة التى ينصح بها رجل فى الإربعين للشبان الناشئين ؟

أحسب أن الشيوخ أولى منى بنصيحة نافعة فى هذا المقام ، وتلك هى أن يجتنبوا اللجاج فى النصح للشبان الناشئين لأنه أضيع شىء عندهم ولا لوم عليهم . إذ ليس فى وسع الشاب أن يعيش فى عمرين مختلفين ولا فى وسعه أن يجمع بين حياة المجرب وحياة غير المجرب ، كائنا ما كان نصيبه من اليقظة والذكاء . ولو كانت النصيحة تغنى عن التجربة كل الغنى ، لكانت الحياة عبثًا ضائعًا ، ولاستطاع الفتى فى العشرين أن يعلم ما قد علم الشيخ فى الستين أو الثمانين . فالشيخ الذى يحاول أن يلقن الشاب الناشئ حكمة الشيخوخة كالبستانى الذى يحاول أن يغرس نبات الشمال فى حرارة خط الاستواء ، فهذا وذاك على خطأ لا يليق بالمجربين .

* * *

إنما النصح أن توجه ذهن الفتى الناشئ إلى ناحية من الحياة توضحها له ما استطعت التوضيح ، فأنت تصوب النور أمام عينيه ، ولكنك لا تعطيه النظر ولا الرغبة فى المسير ولا القدرة عليه ، وهذا هو مدى النصيحة المعقول ، من تعداه من المجربين فتجربته عبث ، وهو – قبل الناشئين – فى حاجة إلى الناصحين !

من كلمات «فيكتور هيجو» - على ما أذكر - أن الخمسين شيخوخة الشباب، ولكنها شباب الشيخوخة .

وفى هذه الكلمة حقيقة أكثر من مجازها، على خلاف كلمات هيجو التى يكثر فيها المجاز وتقل الحقيقة، ذهابا مع الجرس أو إيثارا لمحاسن التشبيه . .

فذو الخمسين شاب بين الذين نيفوا على السبعين أو الثمانين، يشعر بهذا كما يشعرون به وإن لم يقصدوه ويتعمدوه . فإذا اجتمع مجلس من المجالس التى يختار لها الأعضاء ممن جاوزوا الأربعين، كبعض المجالس النيابية وبعض المجامع العلمية والأدبية، رأيتهم يتصرفون فى التقدم والتأخير والإيثار بالراحة والرعاية، تصرف الأبناء والآباء فى الأدب والمعاملة وهم دون ذلك فى السن بكثير، ورأيت أبناء الخمسين وربما بدرت منهم «شيطنة» التلاميذ فى معاملة الأساتذة الذين يوقرونهم ويحبونهم، ولا يخلونهم من فلتات «الشيطنة» مع ذاك!

* * *

ولا حاجة بنا إلى إطالة التذكير بتلك الحقيقة الخالدة التى لا ينبغى أن تنسى فى مقام، ونعنى بها أن المسألة اعتبارية إضافية فى جميع الأعمار والعلاقات، فما يصدق على الخمسين عند فريق من الناس، قد يصدق على غيرهم وعلى الستين عند آخرين، فإنما الكلام فى هذه الأمور على الإجمال، ولا يتأتى أن يساق الكلام فيها على التفصيل لكل فرد من الناس على حدة .

ومن الصور التى كانت شائعة فى أوائل القرن الحاضر - ولا تُرى الآن كثيرًا - صورة العمر الإنسانى وأدواره من السنة الأولى إلى المائة، فندر دكان حلاق دخلت إليه قبل ثلاثين سنة إلا كانت فيه هذه الصورة التى كان لكل زائر وقفة عندها يتبين فيها مكانه من الدرج الصاعد أو الدرج الهابط، وربما كان التفات الشيوخ إليها أكثر من التفات الصبية والشبان لأن الصبية والشبان واثقون من المكان فى حاضرهم وبعد زمن طويل، أو طويل على ما يحسبون، ولكن الشيوخ لا يثقون من مكانهم على هذه الدرجات إلا إلى حين - فهم دائمو التلفت إليه، مخافة أن يضيع! . .

فى تلك الصورة طفل مولود فى مهده ، ثم ولد فى العاشرة يعدو وراء طوقه ، ثم شاب فى العشرين يصاحب فتاة فى مثل عمره أو دون عمره بقليل ، ثم رجل فى الثلاثين معه امرأة تقاربه سنا وبينهما طفل أو طفلان ، ثم كهل في الأربعين تمت له مظاهر السمت والقوة والقوام ، ثم يرتقى على قمة الدرج فى أوسطه شيخ فى الخمسين قد أدار ظهره إلى الدرج الصاعد وقد أدركه بعض الانحناء ، واستقبل بوجهه الدرج الهابط وقد تزايد انحناء الهابطين عليه درجة بعد درجة ، أو دركة بعد دركة ، حتى انتهوا إلى كرسى كمهد الطفل فى سنته الأولى ، يجلس عليه شيخ فان فى المائة ، قد نكس رأسه ، لا يلتفت إلى الأمام ولا إلى وراء ..

تمثيل حسن لأدوار العمر الإنسانى على كل درجة من درجاته مع استحضار الفوارق النسبية بين إنسان وإنسان .

ويصح على هذا التصوير أن تكون الخمسون أعلى الذروة فى درجات العمر كله ، قبلها الصعود وبعدها الهبوط ، وهى بينهما فى مكان الاعتدال والاستواء .

ومن المحقق أو الراجح فى جميع الأعمار ، أن الخمسين نهاية الكسب أو التحصيل من الحياة ، ليس بعدها ما يأخذه الإنسان من الدنيا ويضيفه إلى تكوين عقله وجسمه ، ولكنه لا يزال بعدها يعطى الكثير ويفقد الكثير ، إيذانا بفقد كل شىء يأخذه التراب من التراب .

إذا قيل على هذا التعبير أن الثلاثين سن التحصيل ، وأن الأربعين سن الجمع والثروة ، فالذى يقال فى الخمسين أنها سن التصفية و«عمل الحساب» ليعرف الإنسان نصيبه من الربح ونصيبه من الخسارة .

وهى من ثم سن اغتناء وليست سن افتقار ، وإن جاز لى أن أقيس على نفسى فهى لا تقل غنى عن الأربعين ، وقد تفوقها غنى من وجوه .

تفوقها غنى لأن التدبير فيها أفضل ، لا لأن الثروة فيها أعظم ، أو تفوقها غنى لأن الحساب فيها أضبط لا لأن الثروة فيها تزداد على التوالى كلما ازدادت السنون ، إذ هى فى الواقع كما أسلفنا تكف عن الازدياد فى جملة المكاسب من خيرات الحياة .

فالرجل الذى ضبط حسابه - بعد التصفية الكاملة - قد يستفيد من مائة دينار ما ليس مستفيده غيره من مائتين قبل ضبط الحساب ، والرجل الذى عرف ماله وما عليه يعرف على التحقيق أين يضع ماله وأين يمسك عن الإنفاق ، وتلك معرفة لا يحيط بها الرجل الذي عنده المال الكثير ، ولكنه قد ينفق من ديون ويكف عن النفقة من الملك المضمون ..

هذه هى فضيلة الخمسين على أدوار العمر السابقة : فضيلة المال المحسوب والنفقة المقدورة ، والثروة التى لا تزيد يوما بعد يوم ولكنها لا تضيع فى غير طائل ، ولا تذهب فى غير المفيد .

ووحى الخمسين هى وحى هذه الفضيلة ، أو هى وحى الملك الخالص لا يعتمد على الاستعارة ولا يقوى على الإسراف فى انتظار التعويض من الوارد الجديد . .

إذ الوارد الجديد قليل . .

إذا جاء الوارد الجديد فقلما يتسع الوقت لتصريفه وإعادة تثميره ، وقلما يكون له موضع إلا أن يضاف إلى ما قبله ، كل باب إلى بابه وكل نظير إلى نظيره . .

وحى الغنى المحسوب ، وليس هو بوحى الغنى بغير حساب ، أو هو التدبير وليس هو بوحى التجميع والازدياد .

ذلك هو وحى الخمسين الذى يرتقى إلى ذروة السلم ، ثم يقف حيث لا يطول الوقوف .

ومن أمثلة كثيرة بين أصحاب الوحى - وأصحاب الوحى هنا هم المنتجون فى عالم الذوق والتفكير - نرى أن ثمرات الخمسين بين الفلاسفة والشعراء وأرباب الفنون تضارع خير الثمرات فى سائر الأعمار . .

ولا يبدو هذا عجيبًا فى الكلام على الفلسفة والمذاهب الفكرية ، لأن الفلسفة حكمة ، والحكمة مقرونة فى الأذهان بالشيخوخة وتقدم العمر ، وزيادة التجربة والروية .

ولكنه يبدو عجيبًا حين نتكلم عن الشعر والفنون ، لأن الشعر والفنون جمال ، والجمال مقرون فى الأذهان بالشباب وصحوة العمر ، وقد يكون مقرونًا إلى حد كبير بالغرارة وقلة النصيب من التجربة والروية . .

وهنا وهم يجب الالتفات إليه .

إذ يجب التفريق بين الجمال وتقدير الجمال ، ويجب التفريق بين تقدير الجمال والتعبير عن تقديره .

ومهما يختلف المختلفون فى جمال الشباب وجمال كل عمر من الأعمار فالحقيقة التى لا خلاف فيها أن تقدير الجمال لا ينتهى بانتهاء الشباب ، وأن القدرة على التعبير لا تنقص بنقصان الشباب ، بل لعلها تزيد .

ومهما يقل القائلون عن استطاعة المتعة بالحياة ، فالحقيقة التى ليس فيها قولان أن المعدة التى تهضم أعسر المأكولات ليست هى المعدة التى تتذوق أحسن المأكولات ، لأن الخبز والملح لذيذان عند من يهضم ويستخلص من الطعام القليل أكثر ما فيه من غذاء ، ولكن الاختيار الأنيق إنما يكون لمن لا مناص له من الاختيار ، فلا يستهويه إلا ما كمل أو قارب الكمال .

فإذا كانت الأعمار الأولى أوفر حظا من متعة الحياة ، فالأعمار التالية أوفر حظا من التمييز بينها والشعور بمزاياها والعرفان بما لكل منها من قيمة وحظوة ، وهذه هى الحقيقة التى تزيل الوهم العارض الذى أشرنا إليه ، وهو الوهم الذى يلقى فى روعنا أن وحى الأربعين أو وحى الخمسين لا يوحى جمالا لأن الجمال مقرون بالشباب .

إن جمال الجوهرة غير تقويم الجوهرة ، وغير تمييز الجوهرة ، وغير السرور بالجوهرة لمن يقتنيها ، وهذا هو بعينه ما يقال عن جوهرة الحياة فيما شئت من الأعمار وما شئت من الأقدار .

ولو اتسع المجال لأتينا هنا بالأمثلة من عشرات الدواوين الشعرية وعشرات التحف الفنية ، وقابلنا بين ما نتج منها فى الثلاثين وما نتج فى الأربعين أو الخمسين أو الستين ، فإننا لخليقون أن نعلم بالمقابلة والمضاهاة أن المزايا تتعادل وتتفاضل فلا تنحصر المزايا كلها ولا الفضائل كلها فى عهد من عهود الحياة ، ولا تزال لكل سن فضيلة تعوضها فضيلة مثلها فى سن أخرى ، فإذا توفرت حماسة الشعور فى بواكيره فقد تقابلها المعرفة بأنواع الشعور بعد فوات البواكير أو تقابلها القدرة على التعبير والالتفات إلى الفروق ، أو تقابلها تصفية تأخذ الخلاصة بعد أن تجمع لديها الكثير من الأزواد .

وفى الشرق تبكر الشيخوخة أحيانا كما يبكر الشباب فيسرع الذبول كما تسرع النضارة ، ويكثر النبوغ قبل الأوان كما يكثر الجمود قبل الأوان ، ويندر بين أدبائنا من أتى بالفلق بعد الخمسين كما أفلق أناس من أدباء الغرب الذين جاوزوا السبعين أو الثمانين ، ولكننا إذا رجعنا إلى أدبائنا الذين بلغوا تلك السن ألفينا لهم حسنات يعيشون بها فى عالم الخلود يقرنها الناقد بأجمل حسناتهم المأثورة فى أيامهم الأولى ، وكلها ذات سمعة واحدة لا تعدوها وهى سمعة الثروة المملوكة والكنز المحسوب . .

* * *

إحياء ذكرى الميلاد - أو عيد الميلاد - كما يسميه بعضهم عادة جميلة لسبب واحد على الأقل ، وهو أن الاحتفال بهذا اليوم فرصة سنوية لاجتماع الأهل والإخوان فى مودة وصفاء وإيمان بالإقبال على الحياة ، كأنهم يشعرون جميعًا بأن دخول الحياة «مناسبة سعيدة» تستحق التذكر والاحتفال ..

ولكننى ، فيما عدا ذلك ، لا أفهم فى الواقع معنى لهذا الاحتفال بيوم الميلاد أو بعيد الميلاد ..

هل هو احتفال بانقضاء ما مضى من العمر ؟ .. أو هو احتفال بالسنة القادمة التى لا نعلم كيف تكون ؟ .. وهل لا يكفينا الاحتفال برؤوس السنوات إذا كان المقصود هو الاحتفال بالمستقبل المجهول ؟ ..

* * *

لم أتعود لزامًا أن أحتفل بيوم ميلادى ، ولم يعلم أحد منى أنا ببلوغى الستين فى هذه السنة .. ولكن أصحابى الذين يعرفون تاريخ ميلادى علموا بذلك ، وتفضل بعضهم فكتب فى الصحف مهنئًا ومحييًا لهذه المناسبة .. فلم أفرغ بعد ذلك من الأسئلة التى ساقتها إلىّ هذه المناسبة السعيدة .. ولم أزل أتلقى هذه الأسئلة التى تدل - أو معظمها - على فكرة واحدة عند سائليها ، وهى أن الستين «نقطة تحول» فى تاريخ الإنسان يكون له من بعدها شأن غير شأنه قبل بلوغها ..

ولا أدرى كيف ؟ ..

إن الحياة ليست كالساعة أو الخريطة المرسومة بخطوط للعرض والطول ، وليس كل خط من هذه الخطوط المعروضة فيها فاصلا حاسما بين عمرين ..

والستون من ناحية أخرى رقم ثابت لا يتغير .. وأين الرقم الثابت الذى لا يتغير من أطوار الحياة التى هى حركة متغيرة على الدوام فى كل حى من الأحياء ؟ ..

وأين الرقم الثابت الذى لا يتغير من أطوار الحياة فى الأحياء المتعددين الذين يحسبون بالملايين ؟ ..

* * *

لقد سمعنا من زميلنا الأديب الظريف الشيخ عبد العزيز البشرى - رحمه اللّه - نكتة قالها لعضو جليل من أعضاء المجمع اللغوى حين أحيل على المعاش ، فقال له متبسطًا : «إنك لأصغر من بلغ الستين ! . .» .

وكانت هذه النكتة تروى على أنها مزاح تجوز فيه المفارقات ولا تستلزم فيه الدقة فى التعبير . . ولكن الواقع أنها جد دقيق وليست بالمزاح المرسل على عواهنه ، لأن الستين بالنسبة إلى إنسان قد تكون «أصغر» من الخمسين بالنسبة إلى آخر ، وأكبر من السبعين بالنسبة إلى غيره ! . . .

والمرجع فى ذلك إلى العلم والتجربة المعهودة بين الناس ، فإن علماء التاريخ الطبيعى يقررون نسبة بين سن النضج وعمر الحى من الآدميين وغير الآدميين : بعضهم يقول إن عمر الحى ثمانية أضعاف السن التى يتم فيها نموه ونضجه ، وبعضهم يقول سبعة أضعافه أو ستة أضعافه . . ولكنهم متفقون على وجود النسبة بين أسنان النمو وبين أعمار الأحياء .

فلا غرابة على هذا أن يكون النمو مبكرا فى الشيخوخة ، وأن يكون ابن الستين فى هذا الإقليم أصغر من ابن الخمسين فى ذلك الإقليم ، على حسب اختلاف الجو والمناخ ، وعلى حسب اختلاف أثرهما فى تكوين الأجسام والأعضاء .

* * *

كذلك تختلف القدرة والعجز فى الشيخوخة ، على حسب اختلاف الأعمال أو الأعباء التى ينهض بها الإنسان . . وقبل أن نقول مثلا إن الشيخوخة أعجزته عن عمله ، ينبغى أن نعرف أولا ما هو هذا العمل الذى أعجزته عنه ؟ . .

فالرجل الذى يجاهد بأعضائه وعضلاته غير الرجل الذى يجاهد بتفكيره وعزيمته . أو الرجل الذى يجاهد بحسه وشعوره . .

بل تختلف المجاهدة بالتفكير والعزيمة على حسب الاختلاف فى نوع التفكير ونوع العزيمة .

فمصطفى كامل قد استطاع أن يثابر على القتال وأضلاعه مكسورة ، وسعد زغلول قد عاش برصاصة فى صدره وهو إلى جانب ذلك مصاب بالربو وبغيره من الأدواء . .

إن الزعامة بنوعيها هذين ، تتطلب هذه القوة الخارقة فى تكوين البنية الجسدية . .

ولكن هل يحتاج إلى مثل هذه البنية رجل يقوم عمله الأكبر على الدراسة والبحث والاطلاع ! . .

على هذا النحو من الاختلاف ، يتغير الحكم على أبناء الستين أو أبناء أية سن من أسنان الحياة . .

ثم هو لا يتغير من سنة إلى سنة ، كأنما تقع السنون فى الحياة موقع الخطوط على الخرائط والساعات . .

ولكنه يتغير من فترة إلى فترة ، يحسبها كل إنسان بما يتفق له من التجربة والاختبار . .

* * *

ومن هنا أعود فأقول : إن «الستين» لم تكن فى حياتى نقطة تحول بين عهدين أو بين عمرين . . ولكننى إذا نظرت إلى الفترة التى تمت بها الستون والفترة التى تمت بها الخمسون مثلا ، فهناك بعض الاختلاف بين الفترتين . .

وهو فيما يخيل إلىّ اختلاف فى التلوين أو فى التمكين ، وليس اختلافًا فى جوهر الموضوع ومادة القدرة والشعور .

ومثال ذلك أننى قد زادت قدرتى على البحث والدراسة ونقصت قدرتى على مواصلة الكتابة والقراءة ، ولكننى عوضت هذا النقص بازدياد المرانة على الكتابة وازدياد الخبرة بالتقاط أصعب الفوائد من أيسر القراءات . .

زادت حماستى لما أعتقد من الآراء ، ونقصت حدتى فى المخاصمة عليها ، لقلة المبالاة بإقناع من لا يذعن للرأى والدليل . .

لم تنقص رغبتى فى طيبات الحياة ، ولكننى اكتسبت صبرًا على ترك ما لابد من تركه ، وعلمًا بما يفيد من السعى فى تحصيل المطالب وما لا يفيد . .

* * *

وارتفع عندى مقياس الجمال ، فما كان يعجبنى قبل عشر سنين لا يعجبنى الآن ، فلست أشتهى منه أكثر مما أطيق . .

كنت قبل عشرين سنة كما أنا الآن . . قليل الرجاء فى خير بنى الإنسان ، وكنت أقول قبل عشرين سنة :

بحَسْبِى من أبناءِ آدم إن صفا لى العَيْشُ يومًا أن تَكُفَّ أذاها

ولكن فلسفة الشعور هنا قد تحولت إلى فلسفة العمل ، ولا أطيل فى شرح هذا الفارق بين الفلسفتين ، ولكننى أبينه بمثل من الأمثلة العلمية يغنى عن الشروح والنظريات . .

كنت أقول لمن معى فى مسكنى إذا نمت أو تفرغت للكتابة : لا توقظونى ولا تقاطعونى إذا دق التليفون أو جاءكم زائر . . ما عدا هذا الاستثناء ، وذاك الاستثناء ، وذلك الاستثناء ، أما اليوم فلا استثناء على الإطلاق .

كنت أحب الحياة كعشيقة تخدعنى بزينتها الصادقة وزينتها الكاذبة ، فأصبحت أحبها كزوجة أعرف عيوبها وتعرف عيوبى ، ولا أجهل ما تبديه من زينة وما تخفيه من قبح ودمامه . .

وتلك فيما أرى نماذج كافية لبيان الفوارق بين الفترتين . . فترة الستين ، وفترة الخمسين أو ما قبلها من أرقام العقود ! . .

وفى الجملة يتبين لى من التجربة والاختبار أن المشتغلين بالأعمال الفكرية لا يَنهيض السن من قدرتهم كما تهيض من قدرة العاملين بالعضلات وما يشبه العضلات . .

إن السن مكسب للعاملين بالقلم ، أو هى إلى المكسب أقرب منها إلى الخسارة . . .

* * *

ويسأل سائل : «وأين خرف الشيخوخة ؟ . .» .

فيجيب قبلى مجيبون كثيرون : «إن الذين حسبوا أن الخرف والشيخوخة حالتان متلازمتان ، بقية من بقايا القرون الغابرة ، لأن العلم الحديث يعلم أن خرف الشيخوخة مرض من أمراض البنية وليس بعرض من أعراض الأسنان والأعمار . . فمن نجا من جراثيمه نجا من أعراضه كما ينجو من الأمراض وكما ينجو من الجراثيم» .

* * *

فى الشباب نأخذ الحياة «مقايضة» لأنها تطلبنا كما نطلبها . . أو نبذل فيها أضعاف ثمنها ، لأننا نجهل حقيقتها ونملك ثروة الشعور التى تساعدنا على الإسراف ، والبذل الجزاف .

وفى الشيخوخة نأخذ كل شىء بثمنه ، ولا نعطيه فوق حقه ، لأننا فقراء لا نملك الثروة التى ننفقها كما نريد ، وعلى الرغم منها ننفقها كما نستطيع . .

لا تسل أى الحالتين أفضل و«أعقل» فلا اتفاق على جواب لهذا السؤال . .

ولكنك إذا سألت : أيهما أحب وأجمل ، فلا خلاف على الجواب : بين الشباب والشيخوخة فروق كثيرة ، فما من حالتين من أحوال هذه الدنيا بينهما من الفروق أكثر مما بين هاتين الحالتين .

ولكن الفارق الأكبر بينهما أن الشباب حالة نتمناها على علاتها ، وأن الشيخوخة حالة نرضاها أو لا نرضاها على حسب الظروف !

* * *

نتمنى الشباب على علاته ، ونتمنى جهله كما نتمنى هداه ، إن كان له هدى أو هداية مع هواه ! . .

بل نحن نتمنى جهله قبل هداه . .

لأن جهله هو الذى يعطينا الجديد من مرارته وأسراره ، وجهله هو الذى يعطينا أول قطفة من ثماره وأزهاره ، وجهله هو الذى يشوقنا إلى غده فى كل يوم من أيامه ، ويجعل كل يوم من هذه الأيام كأنه يوم «كولمبس» فى بحر الظلمات ، أو يومه بعد ذلك فى العالم الجديد .

والمرء يتمنى ما يجهل ، ولا يتمنى ما يعرف ، ولو عرفه لما تمناه ، ولا وافق مناه ، لهذا نتمنى الشباب على العلات ! . .

ولا يضيرنا أن نكون من الجهلاء ! . .

فهل نتمنى الحياة فى السبعين ؟ . .

كلا ولا كلام . . ولا نتمناها فى السبعين بل نتمناها فى العشرين وفى الثلاثين ونتمناها كلما جهلناها أو عرفناها على الظن لا على التحقيق .

أما فى السبعين - وأنت فى السبعين - فالتمنى كلمة كبيرة عليها ، وعلى كل شىء تعرفه قبلها وبعدها .

التمنى كلمة كبيرة جدا على المقام أو على المناسبة ، ولابد لها من تواضع كثير قبل الطمأنينة والاستقرار ، فحسبها أن تهبط من هذه العلياء إلى الوادى المطمئن بين القمتين !

❋ ❋ ❋

حسبها أن تهبط إلى وادى الرضا والقبول ، فقد يكون الرضى بها غاية ما تستحقه من صاحبها ، على اضطرار وعلى اختيار !

هل ترضى الحياة فى السبعين ؟ . . نعم . . فيها ما نرتضيه ولا ريب ، وفيها البديل الصالح أحيانًا مما فقدناه فى العشرين ولم نجده فى الثلاثين ، ومما فقدناه فى الثلاثين ولم نجده فى الأربعين ومما فقدناه ونفقده فى كل سن لا نجده . .

فيها بديل بالرضى المعلوم عن الأمل الموهوم ، وقد يكون الرضى بما تعلم بديلا صالحًا من كل ما نرجو ونتوهم ، ثم تندم عليه ولات مندم !

نحمد فى السبعين أنها تعطينا الرغبة على قدر الطاقة ، وأنها تعطينا الرغبة ومعها لجامها الصغير ، تشد عليه إذا خطر لها أنها فى حاجة إليه .

ونحمد منها أنها تعودنا الاستغناء عما يلزم وما لا يلزم . . فليس فى السبعين من ضرورى لا غنى عنه ، حتى الحياة ، وحتى المجد ، حى الخلود ! . .

ونحمد منها أنها تعوضنا بالخبرة عن القوة ، بل تعوضنا بالخبرة عن الوقت الثمين وهو مادة الحياة .

فإذا احتجنا فى العشرين إلى عشرين سنة لنعرف إنسانًا نصاحبه ، فحسبنا فى السبعين عشرون ساعة لنعرف ذلك الإنسان غاية المعرفة التى تتاح للإنسان ، بل حسبنا كلمة نسمعها منه أو نسمعها عنه لنستغنى بها عن الزمن الطويل فى عشرته ، وندخله فى زمرة السواد التى تشمل كل بنى آدم وحواء ، كما قال أبو العلاء :

ومــا العُلَمَــاءُ والجُــهَّــالُ إلاّ قَــريبٌ حِــينَ تَنْظُرُ عَنْ قَــرِيبِ

وإذا كان ابن السبعين ممن يقرأون ويكتبون فحسبه عشرون سطرًا من كتاب ليعرف ما هو الكتاب فى الجوهر واللباب ، ويعود إلى ما شاء من أبوابه أو يقنع منه إذا شاء بهذا الباب بعد ذلك الباب .

وفى السبعين جديدها الذى لا تشتهيه – الأنفس – ولكنه جديد يذهب بسامة التكرار ، فابن الأربعين يتبدل نظامًا للمعيشة أو نظامًا للصحة سنوات بعد سنوات .

إذا تغير نظام المعيشة عنده فى الثلاثين لم يسأل عن نظام جديد قبل الأربعين أو الخمسين ، وإذا تغير نظام المعيشة عنده فى هذه السن فلعله لا يسأل عن غيره قبل الخامسة والخمسين أو السادسة والخمسين ، أو الستين . .

أما نظام الستين فما هو صالح للحادية والستين إلا بشق الأنفس وتعب الرأس وجهد الطب والصيدلة ، ودع عنك الخامسة والستين والسبعين وما فوق السبعين .

ولقد سئلت قبل عشر سنين عن شعورى بالحياة فى الستين ، فقلت : إنه شعور الحب لا مراء ، ولكنه حب غير حب فى ريعان الشباب ، لأن الحياة لا تخدع الشيخ فى الستين بالأبيض والأحمر والكحل والطلاء ، ولا تطمع منه فى حب كحب المعشوقة الفاتنة تخلبه بزينتها وتروعه بما تبديه وما تخفيه ، وارتبطت به وارتبط بها على الخير والشر وعلى الحسنة والسيئة وعلى الوئام والخصام ، وليست بالمعشوقة التى تتحبب إليه ويتحبب إليها ، وتلقاه ويلقاها على نمط من الإعجاب لا يخلو من التمثيل ! . .

فإن يكن لا بد من تشبيه الفارق بين مكان ابن السبعين ومكان ابن العشرين من الحياة . . فهو على ما أحسب مكان واحد عند المائدة المشتهاه . .

وإنما الفارق فى «القابلية» أو اشتهاء الصحاف والصنوف ، فلا نسيغ فى السبعين ما كنا نسيغه فى العشرين ، ولا ننتفع اليوم بما كان ينفعنا بالأمس ، ولكننى لو تخيلت الحياة طاهيًا يبسط أمامنا صحافه وصنوفه ، لتخيلته مبتهجًا متهللا كلما ممدت يدى إلى صنف من صنوفه التى يبسطها على المائدة لضيوفه . . فلا فخر للطاهى فى نهم الجائع الذى يلتهم كل شئ ولا يعزف عن شئ وله الفخر كل الفخر فى كلٍّ لقمة يتناولها الشبعان أو المتردد المصدوف .

ومن سألنى : هل تبادل ؟ . . هل تساوم على الزيادة والنقص فى البدل ؟ . . هل تعطى وتأخذ وأنت مفتوح العينين فى هذه الصفقة الرابحة ؟ . . وهل تسميها «صفقة رابحة» إذا أعطيت السبعين وأخذت العشرين والأربعين ؟ . .

فلا يحسبن السائل أنه يسأل عن تحصيل حاصل ، ولا يعجلن بالجواب لأنه يخاله من فصل الخطاب .

كلا .. لا أبداً ، ولا أقبل المساواة بغير معارضة على الشروط ولن أقبل كل مافى السبعين .

يفتح الله .. فإما الحياة «على السكين» وإما لا حياة ، ولن تجدنى يومًا أحرص على الناس على حياة . فما هى بشىء فى حسابى إذا تجردت أمامى من الألف واللام ، وحبذا هى من حياة إذا علمت أنها «الحياة» للعهد والتعريف ..

وسأنفى من العشرين والأربعين كل ما سوغ لى ما لا يسوغ ، وكل ما هون عندى ما لا يهون ، إما فى باطل لا يتحقق ولا خير فيه إذا تحقق أو مجاملة لمن تستر لهم جهالتهم ولا يسترونها ، ومن يسترون كل فضيلة ولا يكادون يرونها ..

وسأبقى معى فى السبعين كل ما يعين النفس على هجران الحياة إذا وجب أن تهجر ، وهجرانها واجب يوم تستبقينى وأنا آسف للبقاء فيها .

* * *

ولئن تمنيت شيئًا بعد السبعين ، لأتمنين أن أعيش فلا أعيش عبثًا ولا فضولا وأن أعيش كما عشت بحمد الله على الدوام ، أحقابًا وأحقابًا إلى الأمام ، فيقول الناس اليوم ما كنت أقوله قبل عشرات الأعوام ، فذلك هو العمر الذى أحتسبه سلفًا وأعيشه قبل حينه ، فلا يكلفنى انتظاره إلى الختام .

* * *

اعترافاتى

دارت عادة الاعترافات دورة تامة منذ وجدت قبل أكثر من ثلاث آلاف سنة ، إلى أن دخلت فى نطاق الطب النفسانى والجسمانى قبل نحو ثلاثين أو أربعين سنة(١) .

وقد اشتهرت الاعترافات فى الهياكل على عهد الحضارة البابلية قبل ميلاد السيد المسيح بعدة قرون ، وكانت فى حقيقتها ضربًا من العلاج الجثمانى الذى يتطلبه المريض من الطبيب ، لأن البابليين كانوا يعتقدون أن المرض والبلاء على اختلافه عقوبة الهية يقتص بها الأرباب من أصحاب الذنوب والخطايا ، وأن الذى يبوح بخطيئته ويندم عليها يشفى من دائه بوساطة الكهان والأحبار ، فكان الاعتراف بهذه المثابة ضربًا من الاستشفاء ، كعلاج الأمراض بالطب فى العصر الحديث .

وهكذا عاد كما بدأ ، فى أوائل القرن العشرين ، فشاع الكلام عن الكبت وعن العقد النفسية وعن أثر التنفيس عنها بالاعتراف والكشف فى شفاء الأبدان والنفوس ، فتمت الدائرة فى حلقة مفرغة من أيام البابليين إلى أيامنا هذه من القرن العشرين .

ولن يكون الاعتراف اعترافًا فى رأى بعضهم ، إلا إذا كان اعترافا بأمر يغلب على الناس إنكاره وكتمانه ، فلا يفهمون من الاعتراف إلا أنه إعلان لخبيئة فى النفس تشين صاحبها وتدعوه إلى إخفائها .

لكنها على التحقيق مغالطة من مغالطات «العرف» التى تواضع عليها أبناء آدم وحواء على سنة الكذب والرياء ، فهم جميعًا سواسية فى الخطايا والعيوب التى يخفونها ولا يعترفون بها . ومتى صدق عليهم قول السيد المسيح : «من لم يخطئ منكم فليرمها بحجر» فلا حاجة بهم إلى الحجارة ولا إلى الرجم ولا معنى لخجل قوم وشموخ آخرين ، وما لم يكن الإنسان مجرمًا غارقًا فى الإجرام أو نذلا معرقًا فى الخسة فعيوبه وخطاياه «قاسم مشترك أعظم» بينه وبين الآدميين جميعًا من قبل الطوفان إلى نهاية الزمان .

وحسبى اعترافًا فى هذا الصدد أن أحدًا من الناس لم يسلم من عيوبى وخطاياى فهل فى وسعهم جميعًا أن يدعوا مساواتى فى جميع فضائلى ومزاياى ؟ . .

---

(١) آثرنا تسجيل هذا الفصل هنا مع ما فى بعضه منه تكرار لبعض ما قضى . . لأن هذا التكرار إضافة معلومات جديدة عن صاحب الكتاب .

من شاء أن يدعى أن يدعى فليدع ما يشاء ، ولكننى لا أرى من الإنصاف أن أستهدف للحجارة وعندى حجارة مثلها أقابل بها كل حجر بعشرة من أمثاله حين أريد أو حين أستطيع ..

وأنا بحمد الله لا أريد ولا أستطيع ، فلتكن حجارتى محفوظة فى محجرها الأمين ، وليكن اعترافى نوعًا من التعريف الذى يفيد . أما تبادل الحجارة طردًا وعكسًا وطردًا فهو عبث لا يعيى به راجم ولا مرجوم ، وهو كذلك لا يفيد .

أعترف بالخصائص النفسية التى تدل الناس على بعض الحقائق فى الطبيعة الإنسانية وذلك ولا ريب أجدى من الاعتراف بالعيوب والخطايا التى يتشابه فيها أبناء آدم وحواء على السواء أو على مقربة ..

وأول ما أعترف به أننى مطبوع على الانطواء وأننى مع هذا خال بحمد اللّه من العقد النفسية الشائعة بين الأكثرين من أندادى فى السن ونظرائى فى العمل وشركائى فى العصر الذى نعيش فيه ..

ولقد ورثت طبيعة الانطواء عن أبى وأمى ، فلا أملّ الوحدة وإن طالت بغير قراءة ولا تسلية ، ولا أزال أقضى الأيام على حدة حيث يتعذر على الآخرين قضاء الساعات واللحظات .

كيف يتفق هذا ؟ .. كيف يتفق الانطواء على النفس والخلو من العقد النفسية أو من الأسرار المكبوتة فى اصطلاح النفسانيين المحدثين ؟ .

هنا محل للاعتراف الذى قلنا إنه خير وأجدى من تبادل الحجارة ،فإن تفسير ما أعرفه من عادات طبيعتى خليق أن يصحح الأوهام عن معنى الانطواء ومعنى العقد النفسية .

فليس كل انطواء كبتًا للنفس ، أو كتمانًا لسر من الأسرار الخفية ، وهناك فارق كبير بين السكوت خشية من الكلام والسكوت لأنك لا ترى حاجة إلى الكلام .

فإذا سكت الإنسان خاشيًا فهنالك عقدة نفسية ، وإذا سكت الإنسان لأنه لا يشعر بالحاجة إلى الإفضاء والتصريح فلا عقدة هناك ولا كتمان .

وقد تعودت أن أقول ما أريد حين أريد ، فلا أعكف على العزلة كبتًا ولا حذرًا ، ولا أحس التناقض بين الانطواء والاستراحة من آفات الكبت والعقد النفسية .

* * *

ويغلب على المنطوين أنهم لا يألفون الناس بسهولة ، وأعترف بأننى واحد من المنطوين فى هذه الخصلة ..

ولكننى أعترف كذلك بأن الألفة التى تصبح بينى وبين أحد من الإخوان لا تنقطع ولا تتعرض للقطيعة باختيارى ، وقد يتعدى الأمر ألفة الإخوان إلى ألفة غيرهم من الأحياء والأشياء . فالحلاق الذى عرفته منذ ثلاثين سنة هو الحلاق الذى أعرفه اليوم ، والطاهى الذى عمل عندى فى سنة خمس وعشرين أو نحوها هو الطاهى الذى يعمل عندى فى سنة خمسين أو إحدى وخمسين ، بل أعدّ الأحياء من الآدميين وأذكر المنزل الذى أقيم فيه ، فهو مسكنى منذ أربع وعشرين سنة ، ولا أحسبنى أسكن غيره ما دمت تسعنى سكناه .

وأعترف إلى جانب هذا بأننى لا أعرف التوسط بين الحب والكراهية ولا أريد أن أعرفه ، وشعارى فى ذلك هو شعار أبى إسحاق الصولى الذى قال :

خَلِّ النِّفَاقَ لأَهْلِهِ ... وَعَلَيْكَ فَالْتَمِسِ الطَّرِيقَا
وارْبَأْ بِنفْسِكَ أَنْ تَرَى ... إلا عَدُوًّا أَو صَدِيقَا

فأنا أفهم أن يقبل الإنسان نصف صداقة إذا كان مضطرا إليها ، وأفهم أن يقبل الإنسان نصف عداوة إذا كان خائفا منها ، ولكنه إذا وجد الصداقة كاملة فلماذا يجمع بينها وبين نصف الصداقة ؟ .. وإذا استوجب العداوة كاملة فلماذا يتقيها ويداريها !! ..

إن طائفة من الخلق يستبقون العلاقة بينهم مع انقطاع المودة طلبًا لدوام المنفعة ، فهؤلاء يمثلون ويتاجرون . ولا ضير من التمثيل فنا ولا من التجارة عملا ، ولكن الضير كل الضير من التمثيل فى الضمير والإتجار بالعاطفة ، ففى هذا من المعابة ما يعاب على المتاجرة بالأجسام والشهوات .

* * *

وعندى صفة يسميها الشانئون عنادًا وتشبثًا ويسميها المحبون عزيمة وصدق إرادة ..

أعترف بأنهم مصيبون فى جانب ، مخطئون فى جانب .. فقد يبلغ من ضعف إرادتى أحيانا أن أحتال على نفسى كأنها شخص آخر أطلعه على بعض مرادى وأخفى عنه بعضه . فإذا اعتزمت الإقلاع عن التدخين مثلا قلت لنفسى : اتركيه أسبوعًا وانظرى ما يكون بعد أسبوع . أقول لها هذا وأنا أنوى أن أتركه أبدا فلا أقطع بهذا الترك دفعة واحدة . ثم أعود بعد أسبوع فأقول لها : إن شيئا تقدرين على تركه أسبوعا لا حاجة إلى احتماله على مضض ولا حكمة فى العودة إليه .

أعترف بهذا وأعترف معه بأننى فى المواقف الحاسمة أملى على تلك النفس بعينها شروطا كشرط القائد الذى لا يرحم : العدو أمامك والبحر وراءك .. وافعلى ما تشائين ..

ومن لطف اللّه بالعباد أن هذه المواقف الحاسمة لم تتكرر فى حياتى أكثر من خمس مرات أو ست مرت ، ولم أندم قط بحمد اللّه مرة فى جميع هذه المرات .

أعترف بأننى من الزاهدين فى البذخ والحطام ، ولكننى أعترف بأنه زهد لا فضل لى فيه ، لأنه هيكلفنى مشقة المغالبة والمقاومة ، فليس فى النفس هوى أغالبه وأقاومه ، وإنما ألوذ فى هذه العصمة بسند واحد : وهو سهولة احتقارى للباذخين ومن ينظر إليهم نظرة الإكبار والإعجاب فهؤلاء وهؤلاء أهون عندى من الهباء .

وأعترف بأن عنان النفس يفلت من يدى فى حالات كثيرة ، ولكنها حالات أراجعها أحيانًا فلا آسف لإفلاته ، بل أرى أن ضرر الإطلاق أخف من ضرر الشد والكظم وثنى العنان .

أما اعترافاتى فى ميدان الأدب فمنها ما يخصنى ومنها ما يعم القراء معى ..

وأول هذه الاعترافات أننى أقرأ لنفسى وأقرأ أحيانًا فى موضوعات لم أكتب فيها للقراء حرفا واحدًا حتى الساعة ..

ولا أطالب أحدًا بجميل لأن جميلى لنفسى سابق لكل جميل ، ولكننى أعترف كذلك بأننى لا أطيق التواضع الكاذب ، الذى هو رياء فى المتكلم وغفلة فى السامع . فإذا بخسنى الباخسون حقا فدعواى إذن أمام ضميرى لا يزعزعها إجماع الخافقين ..

أعترف بأننى أحب الشهرة والخلود ، ولكننى أعترف كذلك بأننى لا أطلبهما بثمن يهيض من كرامتى ، وأننى إذا أحسست أن إنسانا يمتن علىّ بشهادة يبذلها أو شهادة يمنعها فلا نصيب له عندى غير التحدى الذى يذهب به إلى الحائط .. ولتذهب الشهرة وليذهب الخلود معها إلى الشيطان ..

ولقد تعبت كثيرًا فى تحصيل الأدب والثقافة ، ولكننى أعترف بعد هذا التعب كله بقصورى عن الغاية التى رسمتها أمامى فى مقتبل صباى . فلم أبلغ بعد غاية الطريق ولا قريبا من غايته ، وإذا قدرت ما صبوت إليه بمائة فى المائة ، فالذى بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين .

...فى مكتبتى...

قلت لك يا صاحبى إننى أحب مدينة الشمس لأننى أحب النور . .

أحبه صافيا وأحبه مزيجًا . وأحبه مجتمعًا وأحبه موزعًا . وأحبه مخزونًا كما يخزن فى الجواهر وأحبه مباحا كما يبيح على الأزاهر ، وأحبه فى العيون ، وأحبه من العيون ، وأحبه إلى العيون ! . .

ويوم سكنت فى هذا المكان ، ونظرت من هذه النافذة ، أعجبنى أننى أفتحها فلا أرى منها إلا النور والفضاء .

والحق أنه لا فضاء حيث يكون النور . .

وكيف يكون فضاء ، ما يملأ العينين ، ويملأ الروح ، ويصل الأرض بالسماء؟ . .

قلت لك يا صاحبى إننى أحببت النور فسكنت فى مدينة النور ! . .

وأود أن تفهمنى حين أقول لك إننى أحب النور . .

فإننى لا أحبه لأنه يرينى الدنيا وما فيها ، أو لأنه هو واسطة الرؤية وأداتها ، ولكننى أحبه لأراه ولو لم أر شيئًا من الأشياء . .

وقديمًا كنت أقول إن الأرواح تخفق فى النور كما تخفق الأجساد فى الماء ، كأنها هى تسبح فيه وتطفو عليه . .

وكنت أقول :

النُّورُ سِرُّ الحَيَاة النُّورُ سِرُّ النجاة

ألْمحُ بالرُّوحِ لا لَمْحَ العُيونِ الخفاة

ما تُبْصِرُ العَيْنُ مِنْ مَغْنَاةٌ إلاَّ أداة

وكنت أحسبه «روحانية» ترى بالعين و . . .

أرَى الأَرْضَ رَوْحَانِيَّةً فى جَمَالِهَا وإلاَّ فما بَالُ النُّفوسِ بِها تَسْمُو

إذا فاضَ منها النُورُ هزَّتْ قُلُوبَنَا سَعَادَةُ رُوحٍ ليسَ يَعرِفُها الجِسْمُ

ولو أَنها من لذة الحس عِفْتُهَا — كما قد يُعَافُ اللمْحُ والسّمْعُ والشّمّ
كَرِهْتُ من الدهر الكثير ولم يزل — بقلبى مِنْ شَمْسِ النهارِ هَوًى جَمّ
تَرَى كل يوم وهى عندى كأنها — غريبٌ عَرا لم يُدْرَ وَصْفٌ له واسْمُ
عَجِبْتُ لأَرْضٍ تَخْطُرُ الشمسُ — وتُشْرِقُ فيها ، كيف يَطْرُقُها الغم

فلا أتكلم بالمجاز حين أقول لك يا صاحبى : إننى أراه من عالم الروحانيات ، وأننى أشبع منه الروح والعين ولا أشبع منه العين وكفى ، وإنه شىء يرى ويرى ويرى ولا تمل رؤيته ولا يشبع من النظر إليه . وليس هو الشىء الذى غاية ما يكفيك منه أنه يريك الأشياء .

قال صاحبى : هذا من عمل النشأة الأولى .. هذا من عمل أسوان !

قلت : أو تظن ذلك ؟ .. ولم لا تظن أن النشأة الأولى تزهدنا فيما هو مبذول لدينا ، بل فيما هو مسلط علينا ؟ ..

هل رأيت شاعرًا من شعراء الصحراء يتغنى بالشمس المجيدة أو الشمس الفاخرة أو الشمس الباهرة كما يتغنى بها أبناء الغيوم أو أبناء الشمال ؟

لست معك يا صاحبى فيما قدرت ، ولعلى كنت أقدر معك هذا التقدير لو أننى نشأت فى أسوان أحب الظلال وأكره سطوة النور وأحسبه من قضاء اللّه الذى يطاق ولو فى بعض المواسم والساعات ..

ولكننى - على ما رأيت - أستطيع أن أقول لك : بل إننى لأحب النور على الرغم من النشأة فى أسوان ، وإننى أحبه حين أنظره وأحبه حين أنظر به ، وأحبه حين أهتدى به فى عالم البصر وأحبه حين أهتدى به فى عالم البصيرة ، لأننى أحسبه سر الأسرار أو أحسبه سبيل الهداية إلى سر الأسرار ، وأوشكت أن أومن بهذا الحسبان كل الإيمان ..

قال صاحبى : ما أعجب أن يكون أظهر الأشياء هو أخفى الأشياء !

قلت : يا صاحبى لا عجب أن يكون أظهر الأشياء هو المظهر للخفاء فى كل معانيه ، ولا أحسب أن حجابا من الحجب الكونية سيرتفع فى مجال العلم أو مجال الحكمة من طريق غير طريق النور ، مهما يطل الزمان .

وكنا نتحدث فى المكتبة ، فتناولت بعض الكتب التى تبحث فى الروح والمادة ، وقلت لصاحبى : أعرفت حجة السياسى الفيلسوف «آرثر بلفور» فى نفى

الصلة بين عالم المادة وعالم الروح ؟ . . إنه يقول إن الروح لن تؤثر فى الأجساد إلا بجسد مثلها . فكيف يكون هذا التأثير ؟ . . إن الروح تخالف الجسم فى تكوينه فكيف تعمل فيه عملها وما هى الأداة الجسدية التى تتلقى عنها دوافعها ! . . فإما أنهما شيئان منفصلان فلا تتأتى بينهما صلة على وجه من الوجوه ، وإما أنهما شيئان متشابهان فلا اختلاف إذن بين تكوين الأرواح وتكوين الأجساد! . .

قال صاحبى : أخاله قوى الحجة فى مقاله .

قلت : وكذلك أخاله ، ولكننا إذا شككنا فى أحد العنصرين : عنصر المادة ، وعنصر الروح – فأيهما أولى بالشك فيما تراه ؟ . .

قال : على كل حال لا أستطيع الشك فى المادة وهى تحيط بى وتصدنى وتصد منى ، إذا أنا غالطت نفسى فيها .

قلت : بل فى المادة تستطيع أن تشك وتفرط فى الشك قبل أن تواتيك دواعى الشك فى عالم الروح .

وإنما ساء فهم المادة والروح معا من تصور الأقدمين هذه وتلك ، إذ وضعوهما موضع النقيضين ، وجعلوا المادة كثافة لا حركة فيها ، وجعلوا الروح حركة لا كثافة فيها .

فهل المادة كذلك ؟ . .

هل هذه الكثافة التى تصدمها بقدمك وتضربها بيدك هى الحقيقة التى لا تستطيع إنكارها ؟ . .

أقول لك كلا . . إنك حين تضرب الأرض بقدمك فتزعم أنك صدمت الحقيقة التى لا تقبل المراء ، إنما تصدم شيئًا غير الكثافة أو الجرم الذى يحسب عند بعض الناس وجودا لا يقبل الإنكار . فإنما الوهم كل الوهم هذه الكثافة ، وإنما الوجود الحق هو ما وراءها من قوة تصدم القوى فتصدم الحواس . .

هذه الكثافة المادية لا شىء يا صاحبى لولا القوة التى تكمن فى أطوائها . . وإن شئت مصداقا لذلك فافرض أن يدك التى تقف عنده هذه الخشبة قد زادت قوتها ألف ضعف أو عشرة آلاف ، ثم عد إلى لمس الخشبة بتلك القوة المضاعفة ، فهل تقف عندها؟ . . كلا . . إنها لا تقف عندها بل تعبرها كما تعبر الهواء .

أو تعال إلى الماء والهواء وهما مثال التخلخل فى تلك الكثافة المادية ، فادفع الماء بقوة من بعض العيون . . إنك إذن لتضربه بالسيف القاطع فلا يمضى فيه

ويرتد إليك ، واندفع الهواء بقوة من بعض الفوهات . . إنك إذن لا تثبت أمامه على قدميك .

فليست الكثافة المادية هى الحقيقة التى لا مراء فيها ، بل القوة هى الحقيقة الكامنة فى تلك الكثافة وفى كل مادة ملموسة أو محسوسة .

قال صاحبى : مهلا . . مهلا . . وأين هذا من النور ؟ . . وأين هذا من سر الأسرار ؟ . .

قلت : صبرا يا صاح . إن كل جسم من الأجسام يتألف من الذرات ، وكل ذرة من هذه الذرات تتألف من النواة والكهارب ، ثم من الحركة أو من طاقة الإشعاع والنور . . تقلصت كثافة المادة كلها ووصلنا إلى الشعاع والإشعاع : وصلنا إلى النور ، واقتربنا ولا نزال نقترب كثيرًا من عالم الحركة التى لا كثافة فيها ، وابتعدنا ولا نزال نبتعد كثيرًا من عالم الكثافة التى لا حركة فيها . إننا هبطنا بالكثافة المادية إلى أدناها ، إننا نظرناها بالأحداق ثم دقت حتى عن النظر بالأحداق ، نعم إننا لم نصل إلى طرف الروح الأقصى ، ولكننا وصلنا إلى طرف المادة الأقصى ، أو لعلنا قد عرفنا طريق القنطرة بين العدوتين إن لم نكن قد أقمناها وشرعنا فى العبور عليها . ماذا بقى من المادة الغليظة الجاسية ؟ . . ماذا بقى من الجرم الجاثم الذى يناقض الروحانية ؟ . . إننا نقترب . إننا نقترب . إننا نقترب . إننا مع النور نصل إلى الملتقى الموعود ، ولعلنا لا نصل إليه إن وصلنا من طريق غير هذه الطريق .

قل إن الكون حركة لا مادة فيه . ذلك أيسر لك من أن تقول : إن الكون جرم لا روح فيه ! . .

قل إن الكون نور . قل إن اللّه نور السموات والأرض ، فإذا قصر بك الحس عن نور اللّه فثق أن هذا الضياء الذى يملأ الفضاء هو النور الإلهى الذى كتب لا بن الفناء أن يراه .

وكان النهار باسما ، مدلا بشمسه ، مزهوا بنوره ، كأنما يحس روعته فى الأنظار وبهجته فى الأرواح ، وكأنما يتوهج من نظر العيون إليه كما تتوهج الوجنة الصبوح تحت لمحات الأحداق . كان نهارًا مبتكرا عليه جدة لا تحسبها قد مضت عليها سويعة من يوم ! . . خلقا مبتكرا يخيل إليك أنه يتلألأ فى فضائه للمرة الأولى . .

وهل هنالك من فارق بين نور نهارنا هذا وبين النور فى أبعد مكان من الفضاء ،

وفى أبعد فترة من الزمان ؟ . . ها هنا شىء على الأقل تستطيع أن تقول إنه لم يفتك أن تراه قبل ألف ألف من السنين ، وإنك تذهب معه إلى أبعد من مذهب أبى العلاء حين سأل الفرقدين :

واسأل الفَرْقَدَيْنِ عَمَّنْ أحسا مكن قَبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على بياض نهار وأنارا لمدلج فى سواد

إن الفرقدين وأخواتهما فى السماء لأطفال تلعب فى حجر هذا الشيخ السرمدى ، يلوح لك من جدته اليوم كأنه لم تنقض عليه ساعة من نهار !

قال صاحبى وهو يرسل الطرف فى السماء ، ولا نهاية لمد البصر تصعيدا ولا تصويبا ولا من يمين ولا شمال : قصرت عين تحسب وهى تنظر إلى هذا النور أنها تنظر إلى شىء مكشوف لا عمق فيه ولا طويه وراءه : كاشف الخفاء هذا هو ينبوع الخفاء ! . .

وشاء أن يتكلم بلغة المكان لغة المكتبة ، لغة المجازيين والبلغاء ، فقال :

– ونحن إذن فى برزخ الأنوار : وراء الجدران نور الشمس فى مدينة الشمس الخالدة ، وبين الجدران نور القرائح ونور الحكمة ونور البيان !

قلت : مجاز حسن وإن طال به عهد أصحاب المجاز ، الكتب علم ، والعلم نور ، ولكننى لا أحسبه مجازا يجرى فى النفس كما يجرى فى لفظ اللسان . فهل من الحق أننا نواجه المكتبة كما نواجه النور ؟ . . وهل خطر لك قط أن تسأل نفسك : كيف تبده الكتب الكثيرة – مجتمعة فى مكان واحد – من يدخل عليها لأول مرة ؟ . . كيف يقع ألف كتاب أو عشرة آلاف كتاب موقعها ممن يفجأ بها ويعرف ما هى ، وإن لم يعرف معناها ؟ . . إننا في هذه الحضارة قد تعودنا منظر الكتب مجتمعات بالمئات والألوف . ولكننا خلقاء أن نتجرد من فعل العادة ولو لحظة عابرة لننظر إلى هذه الظاهرة من جانب غرابتها لا من جانب ألفتها فكيف تبد هنا رؤية الكتب لمئات من أصحاب القرائح والعقول محشورة فى بضعة رفوف؟ . .

إننى لا أسأل عن أولئك القراء والدارسين الذين ألفوا عشرات الكتب بالليل والنهار . إن هؤلاء ينظرون إلى كتبهم كما ينظر الجوهرى إلى الثروات المخزونة عنده فى صناديق البلور من نوادر الفصوص والأحجار الكريمة ، أو كما ينظر البستانى إلى أحواض الزهر وهى ترعرع أو تذبل بين يديه ، أو كما ينظر صاحب

القصر إلى أسراب الحسان المقصورات فيه . أو كما ينظر المهندس إلى الأزرار التى فى لوحته وقد ينطلق كل زر منها بما يحرك مدينة بأسرها ، وكلهم يملكون زمامهم ، أو زمام تلك المرئيات وهم يحسون بها ، وكلهم يحضرون منها ما ألفوه وتعودوه وكرروه ، وقد يغيب عنهم منها جانب المفاجأة والغرابة . ولكننى أحب من حين إلى حين أن أستغرب ما آلف وأن آلف ما أستغرب . ويثير هذا الشوق فى خاطرى أن أشهد وقع هذه الغرابة مرتجلا فى بعض النفوس ولا سيما النفوس التى تقارب الكتب من بعيد .

قال صاحبى : وماذا وقع من صورتها فى نفسك كلما استغربت ما ألفت منها ..

قلت : لا أحدثك بهذا الآن .. وإنما أحدثك بما شهدت وعاينت ، ثم أحدثك بما استدرجنى إليه الخيال كلما ألقيت بمقاداتى إليه .

لا أنسى وهلة فتاة ذكية حين دخلت هذه المكتبة عرضا فى بعض الأيام ..

كانت على شىء من التعليم ، وكانت تميل إلى القراءة كلما اتفقت لها قصة سائغة أو قصيدة شائقة ، ولكنها فوجئت بهذه الكتب المتجمعة فصاحت على غير روية منها : ياسلام ، كتب ، كتب ، كتب ، كل هذا كتب .. شىء يدوخ! .. ومالت برأسها كأنها تهرب من دوار ينذرها بإغماء ..

ألا ترى يا صاحبى أن هذه الفتاة قد عرفت الكتب فلم تعرفها جلودا وأوراقا وألوانا تشوق العيون ، ولكنها عرفتها كما هى فى الحقيقة زحمة من الأفكار والمعارف تشفق منها على رأسها الصغير ؟ ..

لقد عجبت يومئذ من هذه الوهلة ، لأننى أعلم على التحقيق أن الفتاة شاهدت المكتبات فى المدرسة وشاهدتها فى السوق . فسألتها : أهذه أول مكتبة رأيتها فى حياتك ! ..

تعجبت هى أيضًا معى من هذه الوهلة ، ولم تزد على أن تقول : رأيت غيرها كثيرًا ، ولكنى لا أدرى لماذا «تخدت» وأنا أنظر إليها هنا ..

ثم راجعت نفسى فى تفسير ذلك فلم أعجب من وهلة الفتاة كما عجبت من صدق حاستها ، أو من مبادرة هذه الحاسة إلى التفرقة بين الأشياء المتشابهة حين يتفرق بها المكان ..

فإنما تختلف الأشياء عندنا بما يقترن بها من تداعى الخواطر وما توحيه من اللوازم والملابسات . فالكتب فى السوق بضاعة للبيع . والكتب فى المدرسة

موزعة بين الأساتذة والطلاب ، ولعلهم مثنات ولعلهم ألوف فلا توحى إلى الخاطر تلك «الزحمة» التى ترهق الرؤوس . أما الكتب فى حجرة واحدة فى بيت رجل واحد فللفتاة العذر إذا أجفلت منها تلك الجفلة وخافت منها على رأسها الدوار . .

إننا نمر بالمائدة فى الفندق العامر ، فلا نستغربها وإن امتلأت بطعام جيد ، ولكننا إذا رأينا هذه المائدة بعينها أمام ضيف واحد خطرت لنا التخمة أو خطر لنا الغثيان ، ولنا المعذرة فى هذه التفرقة بين المائدتين ! . .

* * *

واحتجنا يوما إلى نقل بعض الرفوف من هذه الحجرة إلى الحجرة التى تليها ريثما نصلحها ونفرغ من طلائها . فاستعنا بقريب لبواب المنزل يومئذ على النقل مع خدم البيت ، وكان ريفيا أميا يزور قريبه أو يزور «آل البيت» على التعبير الصحيح . أو لعلها أول زياراته للقاهرة في طلب الخدمة وطلب البركة على السواء . . ولم يكن له علم بالأحرف العربية ولا بالأحرف الأفرنجية ، فإذا رأى كتابًا فى هذه الأحرف أو فى تلك فكله كتاب ، وكله مما يقرؤه المطهرون .

فلما اقترب من باب المكتبة خلع نعليه وتهيب أن يمد يده إلى الكتب لأنه كما قال لم يكن على وضوء !

أليس لهذا الريفى الأمى منطق صادق فيما فعل على البداهة ؟ . . إنه تعود أن يقرن صورة الرجل العالم بصورة رجل الدين ، فما باله لا يقرن كتاب العلم بالقداسة الدينية ؟ . . وهل يكون الكتاب لغير علم أو لغير قداسة ؟! . .

لقد أكبرت تحية الجهل للعلم فى مسلك هذا الريفى الصالح ، وأستغفر اللّه لأنى أفسدت سمعة الكتب فى رأيه على الكره منى ، فأعلمته أنها كأبناء آدم وحواء فيها الصالح والطالح وفيها الطيب والخبيث ، وأنها لا تحرم فى جميع الأحوال على اللمس بغير وضوء ، فلم أجرئه على حرمتها ولا أقنعته بلمسها حتى أريته على غلاف بعضها صور التماثيل العارية ، وفى صفحات بعضها صور السادة والسيدات . فتحلل من حرج وأقدم بعد إحجام . .

ولا أخال هذه «الهيبة» للكتاب بعيدة جدا من هيبة «المكتوب» عند القبائل الفطرية كما أنبأنا عنها رواد المجاهل الأفريقية . فإنهم لا يفهمون هناك كيف يقرأ الرجل الورقة ويفهمها ويعمل بما فيها دون أن يكون فيها روح مرصد أو طائف من الجان . وقد روى بعض الرحالين أنه أرسل خادمة الأسود إلى زوجته على مسيرة

ساعات ليطلب بعض الأمتعة والأدوات من بيته ، فكتب له ورقة وأمره أن يأتيه بجوابها . فحمل الورقة مطمئنا ولم يلق إليها كبير اكتراث ، ولكنه لما رأى السيدة تقرأها وتراجعها كلما أسلمته أداة من الأدوات المطلوبة فيها خامره الشك وأيقن أنها تستوحى بمراجعة الورقة روحا تفقه عنها ما تسأل عنه فى صمت ووقار . فلما أسلمته السيدة تلك الأدوات تقبلها وحملها ولم يوجس منها ، ولكنه تردد وأوجس حين أسلمته الورقة بالجواب ! . . وحملها كمن يحمل ثعبانًا يخاف أذاه أو شيطانا يخاف سخطه وغضبه ، وأدى الأمانة بتمامها لأنه فى حراسة رقيب ينقل عنه ما يظهره ويخفيه . .

قال صاحبى : ويح الأسود المسكين لو انطلق عليه روح من وراء كل كلمة مخزونة فى هذه الرفوف ! . . إن عفاريت الآجام جميعها لتصبحن عنده من ملائكة الرحمة بالقياس إلى هذه العفاريت ، وإن سحرة أفريقية على بكرة أبيها لا ينقذونه من وبال هذا السحر المخيف ! . .

قلت : أو لم يحصل ؟ . . بلى قد حصل وفرغنا من محصوله ! . . وقد انهزم السحرة المساكين فى وجه هذه الأرواح ، وهربت عفاريت الآجام من سطوة هذه العفاريت . وهل المعركة بين القارة السوداء وبين الواغلين عليها إلا المعركة بين الكتاب وتعويذة السحر القديم ؟ . .

والتفت صاحبى إلى الرفوف يتصفح عناوينها ويسألنى : أولا يزعجك بعض الأحيان أن تخلع عن الكتب هذه الصورة ، وأن تراها حاضرة الأرواح جياشة الحركة بحياة مؤلفيها ؟ . .

قلت : بل أنا لا أراها إلا على هذه الصورة كلما أعرضت عن صورتها الممثلة فى الجلود والأوراق : أرواح فى انتظار الطلسم ، أو مردة فى قماقم سليمان . وأين برج بابل من لهجات رف واحد ها هنا لو تحركت له الألسنة وتفتحت له أفواه ؟ . . وأين الجحيم كلها لو انبعثت المردة من أرصادها وتمردت على الطلسم الأعظم الذى يحبسها فى قماقمها ؟ . .

قال صاحبى : خير للكتب وأولى . . نعم خير للكتب ألف مرة أن تكون أرصادا للأرواح أو قماقم للمردة من أن تكون على تلك الصورة التى يصورها لنا أصحاب المائدة وصحاف الطعام ! . . ولست أدرى لِمَ يحضرنى خاطر الطعام المخزون فى العلم كلما تحدثوا عن الكتب وما فيها من طعام العقول؟ . . فما القول فى رأس فيلسوف مجفف لساعة الحاجة إليه ؟ . .

وما القول فى هذه الأغذية المحنطة على الرفوف لطول البقاء واجتناب الفساد؟ . . هى ولا ريب أفضل ما اخترع الإنسان من صناعات الخزن والتجفيف وأحسن ما ابتكر من وسائل الصيانة والتعقيم . ليت الثمرات كلها تصان وتظفر بالتعقيم والتجفيف على هذا المنوال . ولكننا لا نشتهى طعام العقول للعقول حين نعرض لها الرؤوس المجففة والثمرات المحنطة ليوم القراءة أو ليوم التغذية المشتهاه . . لا . . لا إننا لا نود أن نشتهى الكتب هكذا لنأكلها برؤوسنا وأدمغتنا ، وإنما نؤثرها مردة فى قماقم وأرواحا فى أرصاد . فعلى بركة الله فلنمض معها فى سياحتنا إلى حيث تلقى بنا فى آماد المكان والزمان ، ولنطلقها فرادى إن عز علينا أن نطلقها أسرابًا وجماعات . . على بركة الله! . .

قلت : نطلق ماذا يرحمك الله ؟ . . وإلى أين المنتهى إذا ابتدأنا معها واحدًا واحدًا أو سربًا سربًا إلى حيث تستطيع المسير ؟ . . هذا يا صاحبى مارد يحملنا إلى قطب الشمال وبجانبه مارد مثله يحملنا إلى قطب الجنوب ! . . وها هنا مارد ثالث يتعدى بنا أقطاب الأرض إلى الشعرى اليمانية وما وراء السديم . . فمع أيها نسير ومتى المعاد إن سرنا مع هذا أو ذاك ؟ . . وإنك لتعلم أنها قديرة على السفر فى رحاب الزمان قدرتها على السفر فى رحاب المكان . فهذا يحملك إلى القرن الأول للهجرة وهذا يحملك إلى القرن الأول للميلاد ، وغير هذا وذاك يحملك إلى ما قبل الهجرة والميلاد من أزمنة يضل فيها التاريخ وقلما يهتدى فيها الخيال ، وخطوة من هنا تلاقيك بهوميروس وخطوة من هناك تلاقيك بامرئ القيس ، وخطوة أخرى تجمعك بآدم وأبنائه الأولين . فأين المنتهى بعد هذا ومتى القرار ؟ . . لا يا صاحبى يرحمك الله . . لا نهاية لانطلاق هذه المردة فى مداها فرادى ولا مجتمعات . فدعها فى قماقمها وانظر إليها ومعك أرصادها . فليس هذا أوانها وليست سياحتنا هذه بالسياحة السرمدية التى لا نرقب نهايتها . . فعلينا بالأفق الذى نحن فيه نلزمه ولا نتعداه ، وحذار أن تفتح القماقم مجتمعات ولا متفرقات ، ولك عندها بعد ذلك ما تشاء . .

فالتفت صاحبى إلى القماقم يتصفح عناوينها ، ونظر هنا ونظر هناك على غير اطراد كأنه يرتجح ولا يملك الانبعاث فى طريقه دون أن يرجع إلى حيث كان . ثم هتف بى سائلا : ما هذه المفارقات ! . . بل ما هذه المقارنات ! . . شعر وتاريخ وفن ودين وسير وطبائع حشرات تصاحبها طبائع عظماء ، وخليط من المطالب لا تعرف لها وحدة ولا يطرد لها نظام . فهل هى مكتبة قارئ واحد أو هى مكتبات شتى أعددتها لمن يشاء ! . .

قلت : بل هى مكتبة واحدة أعددتها لقارئ واحد ، ولا أحسب أن مكتبة القارئ الواحد تتفق على غير هذا النظام ، لأنك تعد الكتب فى مطلب واحد لمثات القراء الذين يشتغلون به ويرجعون إلى مصادره ، ولكنك لا تحصر القارئ فى مكتبة واحدة إلا إذا نوعتها له وأغنيته بها عن غيرها . ولابد للقارئ الواحد على الأقل من مطلبين مختلفين : إحداهما للصناعة والعمل ، والآخر للمتعة والتسلية ، فإن كانت صناعته الكتابة فقد تعدد ما يقرأ للعمل والصناعة وتعدد ما يقرأ للمتعة والتسلية وكثيرًا ما يكون التعدد مع ذلك فى العناوين لا فى بواعث القراءة . . فإن القارئ قد ينظر فى خمسة موضوعات أو ستة أو سبعة لباعث واحد ونزعة واحدة ، وليس أقرب من بواعث القراءة فى بعض الأحايين ، مع تباعد الموضوعات والعناوين .

خذ لذلك مثلا هذين الموضوعين الغريبين : طبائع الحشرات وما وراء الطبيعة؟ أيبتعد عنوانان قط أبعد من هذا الابتعاد ؟ . . أيفترق شيئان فى ظاهر الأمر كما يفترق البحث فى الكون والسماء والخلود والبحث فى جحور النمال ومباءة الجراثيم ؟ . . مع ما يتقاربان جد الاقتراب حين يهديك كلاهما إلى بداية الحياة أو نهاية الحياة ، وربما فسرت لك طبائع الحشرات «تصميم» بناء الحياة تفسيرًا تعجز عنه عقول الفلاسفة والحكماء ، وربما عرفت من دوافعها وجواذبها وأنت ترقب الحشرة الضئيلة فى أطوارها المتعاقبة ما لست تعرفه من مقاييس المنطق وتقديرات البديهة ، ودراسة المذاهب والتأويلات .

وخذ مثلا آخر ، هذين الموضوعين الغريبين : الشعر والدين ! . . إنهما ليبدوان فى الغرابة كما يبدو لك منظر الناسك فى الصومعة وإلى جانبه منظر الشاعر فى مجال الأنس والسرور ، ولكنهما يلتقيان أقرب لقاء حين يعبر الشاعر عن نفسه ويريك جمال الخالق فى خلقه ، وحين يبرز لك الإنسان من وراء مسوح الزهاد فإذا هو شاعر مستتر أو شاعر موثق بسلاسل العبادة ، وإذا العبادة لا تخرج به من نطاق الشعور ، ولا تنكر له فتنة الحياة بل تمثلها له قوية مخيفة يتقيها بالمجانية فيشعر بها من يواقعها ولا يتقيها . وإذا الفراش الذى يقع فى النار والفراش الذى يهرب من النار . . كلاهما فراش ! . .

ولقد سألت نفسى عن هذه البواعث المتوافقة وراء هذه النقائض المفترقة فأجابتنى عنها جوابًا أرتضيه ولعلك ترتضيه ، ولخصته لى فى كلمات معدودة : وهى «الاستزادة من الحياة» .

ولك أن تستزيد من الحياة بتعميقها أو بتوسيعها أو بتفسيرها ، ولك أن تتوسل إلى ذلك كله بقصيدة من عيون الشعر أو بنظرة في عجائب حشرة ضئيلة تخالها من أسرار الصناعة مكتومة بل من مسودات الخلق الأولى . . أو باستقصاء آماد الحياة فيما وراء الغيب وفيما بعد الموت وقبل الميلاد ، أو بالمقابلة بين سير العظماء على ضروب شتى من العظمة بين سير الصغراء على ضروب شتى من الصغار . . فكل أولئك باعث واحد مختلف العناوين ، وكله صحاف تعطيك ألوانًا شتى من الطعم والمذاق ولكنها لا تعطيك في النهاية غير دم واحد ينبض في العروق . . ومعذرة بعد من هذه اللفتة إلى الطعام وأنت لا تحب ذكر الطعام في هذا المقام . .

قال : لا عليك من المعذرة بعد هذه الفترة . فقد أوشكت الساعة أن أستطيب التشبيه الذى كنت أعافه منذ برهة ، وأوشكت مع هذا أن أؤمن بأن الثبات على الرأى في البلاغة غير الثبات على الرأى في الأخلاق . فقديمًا قيل لنا أن الثبات فضيلة ، وأخشى أن أكون اليوم قد أخللت بهذه الفضيلة . . لولا باب من الرحمة في هذا الخلاف بين شرعة البلاغة وشرعة الأخلاق . وليست هذه مسألة فكرة تقاس بالرأى بل هي شيء أحسه الساعة ولا أبالي أن أفكر فيه . فما أرتضيه من البلاغة وأنا شبعان مكظوظ لا أرتضيه منها وأنا جائع أتلمس الطعام ، وأنت لا تشهى الكتب إلىّ . . حين تشبهها بالمائدة وأنا من الكظة أعاف المائدة وأحاديثها ولكنك تشهيها إلىّ حين تصفها بهذه الصفة وأنا متفتح المعدة والرأس لكل غذاء . .

قلت : هو ما قالوه قديمًا وأصابوا فيه أكثر مما أرادوا . فالبلاغة هي «مراعاة مقتضى الحال» . . ولقد كنت بليغًا في إشارتك هذه . . فلك عندى من المكافأة عليها مائدة غير مائدة أفلاطون وأشباه مائدة أفلاطون !

وعدنا نستطيب القماقم والأرصاد بعد هنيهة ، ولكن على أن نتركها بسلام فلا نطلقها فرادى ولا جماعات ، وحسبنا منها العناوين والرفوف .

ثم راح يجيل ببصره جولة الطائر فيما يعبره وهو يقول : ما أصغر نصيب القصص من هذه الرفوف ! . .

قلت : نعم . . وإنه لو نقص بعد هذا لما أحسست نقصه . لأننى - ولا أكتمك الحق - لا أقرأ قصة حيث يسعى أن اقرا كتابًا أو ديوان شعر ، ولست أحسبها من خيرة ثمار العقول .

قال : كيف ؟ . . أليس فى الرواة والقصاصين عبقريون نابهون كالعبقريين النابهين فى الشعر وسائر فنون الآداب ؟ . .

قلت : بلى . . ولكن الثمار العبقرية طبقات على كل حال ، وقد يكون الراوية أخصب قريحة وأنفذ بديهة من الشاعر ، أو الناثر البليغ ، ولكن الرواية تظل بعد هذا فى مرتبة دون مرتبة الشعر ودون مرتبة النقد أو البيان المنثور . . والمثل هنا أقرب إلى الإيضاح وسوق القضية بغير تمثيل : إن الحديقة التى تنبت التفاح لا يلزم أن تكون فى خصبها ووفرة ثمراتها أوفى من الحديقة التى تنبت الجميز أو الكراث . ولكن الجميز أو الكراث لا يفضلان التفاح وإن نبتا فى أرض أخصب من الأرض التى تنبته وتزكيه .

* * *

ونحن نقرأ القصص التى تجود بها قرائح العباقرة من مثال ديكنز ، وتولستوى ودستيفسكى ، وبورجيه ، وبروست ، وبيراندللو ، فنؤمن بتلك العبقريات التى لا تجارى فى هذا المضمار ، ولكن إيماننا بها لا يلزمنا أن نضع القصة فى الذروة العليا من أبواب الآداب ، ولا يمنعنا أن نقدم عليها غيرها فى التقدير والتمييز . .

قال : وما المقياس الذى نرتب به هذه الرتب يا ترى ؟ . .

قلت : لعله مقاييس شتى لا مقياس واحد ، ولعل الناس يختلفون فيها كاختلافهم فى كل شىء يرجع إلى المشرب والتعبير . غير أننى أعتمد فى ترتيب الآداب على مقياسين يغنيانى عن مقاييس أخرى ، وهما الأداة بالقياس إلى المحصول ، ثم الطبقة التى يشيع بينها كل فن من الفنون .

فكلما قلت الأداة وزاد المحصول ارتفعت طبقة الفن والأدب ، ولكما زادت الأداة وقل المحصول مال إلى النزول والإسفاف .

وما أكثر الأداة وأقل المحصول فى القصص والروايات ؟ . . إن خمسين صفحة من القصة لا تعطيك المحصول الذى يعطيه بيت كهذا البيت :

وتَلَفَّتَتْ عينى فمُذْ بَعُدَتْ ... عَنِّى الطُّلُولُ تَلَفَّتَ القَلْبُ

أو هذا البيت :

كأَنَّ فؤادى فى مَخَالِبِ طَائِرٍ ... إذا ذُكِرَتْ لَيلى يَشُدُّ به قَبْضَا

أو هذا البيت :

لَيْسَ يدرى أَصُنْعُ إنسٍ لِجِنٍّ ... سَكَنُوه أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لإِنْسِ

أو هذا البيت :

وقد تَعَوَّضْتُ عَنْ كُلٍّ بِمشْبِهِهِ فما وَجَدْتُ لأيَامِ الصِّبا عِوَضَا

لأن الأداة هنا موجزة سريعة والمحصول مسهب باق ، ولكنك لا تصل فى القصة إلى مثل هذا المحصول إلا بعد مرحلة طويلة فى التمهيد والتشعيب . وكأنها الخرنوب الذى قال التركى عنه - فيما زعم الرواة - أنه قنطار خشب ودرهم حلاوة ! . . أما مقياس الطبقة التى يشيع بينها الفن فهو أقرب من هذا المقياس إلى أحكام الترتيب والتمييز . ولا خلاف فى منزلة الطبقة التى تروج بينها القصة دون غيرها من فنون الأدب ، سواء نظرنا إلى منزلة الفكر أو منزلة الذوق أو منزلة السن أو منزلة الأخلاق . فليس أشيع من ذوق القصة ولا أندر من ذوق الشعر والطرائف البليغة ، وليس أسهل من تحصيل ذوق القصة ولا أصعب من تحصيل الذوق الشعرى الرفيع حتى بين النخبة من المثقفين .

* * *

قال صاحبى على أنهم قد أثاروا فى أوائل هذا القرن ضجة حول القصة بالغوا فيها أيما مبالغة وخيلوا إلى الناس أن فنون الأدب كلها عالة عليها ، وأنه لا كتابة لمن ليست له قصة .

قلت : لقد فعلوها حقا ، وكان ذلك على أثر ضجة أخرى هى ضجة الكلام الكثير فى الدراسات النفسية و«السيكولوجية» بأنواعها ، فبدا لبعضهم أن القصة هى المعرض الوحيد لتطبيق هذه الدراسات فى الكتابة الأدبية ، وأنها هى الوسيلة القريبة لفهم العلاقات بين النفوس البشرية وتفسير المواقف والمشكلات التى تنجم عن غرائب الطباع . ولم تخل ضجة القصة من أسباب قوية غير «السيكولوجية» وكثرة الكلام فيها ، فإن شيوع القراءة بين الدهماء قد أشاع معها القصة التى تفهمها الدهماء وتؤثرها على غيرها من الفنون الأدبية ، وجاء شيوع الصور المتحركة بعد شيوع القراءة فأملى للدهماء فى هذه النزعة أو هذه «الهواية» حتى غلبت عليهم وسرت منهم إلى النقاد الذين يتبعون الجماهير ويسمون نزواتها بروح العصر وهى نزوات بغير روح ! . .

ونظرت إلى صاحبى فإذا هو يضم ما بين الخنصر والبنصر ويقول : ها نحن أولاء نقلب صفحة جديدة أو نفتح كتابًا جديدًا . . وها نحن أولاء نتكلم بالقول الصريح

وبالقول المستعار فى وقت واحد . فما أبعد النقلة ما بين الخنصر والبنصر فى عالم الكتب ، ما أبعد النقلة بين الأرض والسماء وبين المعاش والمعاد .

قلت : كلاهما يتصدى لعمل واحد وهو تفسير الكون وترتيب المعاش فى هذه الدنيا على هذا التفسير .

* * *

وكان صاحبى قد انتقل كما قال ، فيما بين الخنصر والبنصر إلى عالم السماء : عالم البحث فى اللّه ، وسر الوجود - وأصل الحياة وما قبل الحياة وما بعد الحياة . .

وكان على ديدن الكثيرين يرى أن هذا البحث فيما وراء الطبيعة من الوقت الضائع أو فضول القول . فسألنى وهو يتحرج قليلا لأنه يعلم أننى لا أستضيع وقتًا أنفقه فى بحث هذه الأمور . ما فائدة هذا كله وهو غموض فى غموض ، وفروض من وراء فروض ! . .

ألا يمكن أن يعيش الإنسان على هذه الأرض وهو فى غنى عن هذه الفلسفة التى يسمونها سر الوجود ! . .

وأردت ألا أتخلف عنه فى جرأة الرأى فقلت : بل هى آخر شىء يستغنى عنه الإنسان . وما أنت مستطيع أن تطل من هذه النافذة أو تبدأ عملك فى الصباح ما لم تكن لك «فلسفة» وجود على نحو من الأنحاء . .

قل لى : «ماذا تستبيح وماذا تحرم وأنت تنظر من هذه النافذة» . . أتستبيح ألا تملأ عينيك من شىء غيرك كما قال الأديب الحجازى ؟ . . وإذا استبحته فلماذا تستبيحه ؟ . . وإذا حرمته فلماذا تحرمه ؟ . . وما حدود المتاع بالنظر فيما تراه؟ . . ألّه حدود أم ليست له حدود ؟ . .

وأنت تذهب إلى عملك كل يوم فى الصباح ، فلماذا تعمل أو لماذا تهمل عملك! . . أعليك واجب ؟ . . أمناط هذا الواجب مصلحتك أم مصلحة الأمة ؟ . . ومشيئة الخالق أم مشيئة المخلوق ؟ . . وإن آمنت بهذه المشيئة أو بتلك فلماذا آمنت ؟ وإن لم تؤمن بهذه أو بتلك فلماذا كفرت ؟ . . وإن لم تفكر فى شىء من ذلك فهل أنت إذن مثل حسن للآخرين ! . .

مرحلة الحياة يا صاحبى كجميع المراحل التى نقطعها من مكان إلى مكان . لا تركب القطار حتى تحصل على التذكرة ولا تحصل على التذكرة حتى تعرف الغاية

التى تسير إليها . غاية ما هنالك من فرق بين راكبين أن أحدهما يقرأ التذكرة والثانى لا يقرأها أو أن أحدهما يؤدى ثمنها من ماله والثانى يؤدى له الثمن من مال غيره . . وإن أبيت المجازات فأحد الراكبين فى مرحلة الحياة يبحث عن غايتها بنفسه والثانى توصف له غايتها بلسان غيره . . لابد يا صاحبى من هذه الفلسفة التى تريد أن تلقى بها فى اليم وأنت على الشاطئ . وثق يا صاحبى أنها آخر شئ يلقيه راكب السفينة حين تلعب به الأعاصير فى البحار اللجية . بل هو الشئ الذى لا يتركه ولو ترك السفينة أو تركته إلى الأعماق . ألم تسمع قولهم فى الأمثال : «أنهم كالنواتية لا يذكرون اللّه إلا ساعة الغرق؟» فاعلم يا صاحبى أن هذا الذكر هو فلسفة الحياة التى تبقى مع راكب السفينة بعد كل بضاعة يستغنى عنها ، وبعد السفينة نفسها إذا حان حينها . . !

قال صاحبى : وهل وصلت قط من فلسفة حياتك إلى شئ ؟ . .

قلت : نعم . . إن اللّه موجود .

قال : باسم الفلسفة تتكلم أو باسم الدين . . !

قلت : باسم الفلسفة أتكلم الآن . والفلسفة تعلمنا أن العدم معدوم فالوجود موجود . . . موجود بلا أول ولا آخر لأنك لا تستطيع أن تقول : كان العدم قبله أو يكون العدم بعده . . ! وموجود بلا نقص يعترى الوجود من جانب عدم ولا عدم هناك . . موجود بلا بداية ولا نهاية ولا نقص لأن الكامل الأمثل هو اللّه . .

قال : وكيف توفق بين الوجود الأمثل وبين الشرور والآلام فى هذه الحياة . . !

قلت : هذا سؤال غير يسير ، لأننا نحن الفانين لن نرى إلا جانبًا واحدًا من الصورة الخالدة فى فترة واحدة من الزمان . ومن يدرينا أن هذا السواد الذى يصادفنا هنا وهناك هو جزء لازم للصورة كلزوم النقوش الزاهية والخطوط البيضاء؟ . . وماذا تستطيع أن تصنع لو ملكت الأمر وتأتى لك أن تقذف بالشرور من الحياة ؟ . . بغير الألم والخسارة ما الفرق بين الشجاع والجبان وبين الصبور والجزوع ! . . وبغير الشر والسوء ما الفرق بين الهدى والضلالة وبين النبل والنذالة ؟ . . وبغير الموت كيف تتفاضل النفوس وكيف تتعاقب الأجيال؟ . . وبغير المخالفة بينك وبين عناصر الطبيعة من حولك كيف يكون لك وجود مستقل عنها منفصل عن موافقاتها ومخالفاتها ! . . وبغير الثمن كيف تغلو النفائس والأعلاق . .

قال صاحبى : أليس عجزا أن نشقى وفى الوسع ألا نشقى ! . . أليس عيبًا أن نقصر عن الكمال وفى الوسع أن يكمل الكمال ! . .

قلت : وكيف يكون فى الوسع أن يكمل المتعددون ! . . إنما يكون الكمال للواحد الدائم الذى لا يزول .

قال صاحبى : قل ما شئت ، فليس الألم مما يطاق ، وليس الألم من دلائل الرحمة وآيات الخلود الرحيم .

قلت : على معنى واحد إن هذا لصحيح ! . .

إنه لصحيح إذا كانت حياة الفرد هى نهاية النهايات وهى المقياس لما كان وما يكون . لكن إذا كانت حياة الفرد عرضًا من الأعراض فى طويل الأزمان والآباد - فما قولك فى بكاء الأطفال ؟ . . إن الأطفال أول من يضحك لبكائهم حين يعبرون الطفولة وإنهم أول من يمزح فى أمر ذلك الشقاء ، وليس أسعد الرجال أقلهم بكاء فى بواكير الأيام . .

يا صاحبى : هذا كون عظيم . هذا كل ما نعرف من العظم ، وبالبصر أو البصيرة لو نظرنا حولنا لا نعرف العظم إلا من هذا الكون . ماذا وراء الكون العظيم مما نقيسه به أو نقيسه عليه ؟ . . فإن لم نسعد به فالعيب فى السعادة التى ننشدها ، ولك أن تجزم بهذا قبل أن تجزم بأن العيب عيب الكون وعيب تدبيره وتصريفه وما يبديه وما يخفيه . ولك أن تنكر منه ما لا نعرف ، ولكن ليس لك أن تزعم أنه منكر لأنه مجهول لديك .

* * *

وبسط صاحبى ذراعيه وهو ينظر حوله بالبصر والبصيرة معًا فى أجواز الفضاء السرمد ، ويخيل إلىَّ من يراه فى تلك الساعة أنه يفتح بصيرته وسعها كما يفتح المشدوه عينيه وسع الأجفان ، حين يحب أن يملأ العينين مما تريان . وكأنه أغمض بعد إعياء من التأمل والاستقصاء فقال : هذه آفاق شاسعة ! . . هذه أغوار لا يسبر لها قرار . وتساءل : أليس إلى معرفة الحقيقة من طريق غير هذه الطريق ؟ أليس للرياضة الروحانية مسلك إلى هذه الآفاق والأغوار ! . . إن نساك الهند على ما يبدو لى لأخبر بهذه المسالك وأهدى فى هذه الدروب . . إنهم لا يصدعون رؤوسهم بالبحوث والفروض ولكنهم يعرفون ! . . .

قلت : بل أحسب أن الطريقين مختلفان . إن نساك الهند لا يطلبون المعرفة ولا يجعلونها غاية الغايات ، فإن المعرفة قد تنال من إقرار الجسد كما تنال من

إنكاره، وقد تنجم من الإقبال على الدنيا كما تنجم من الإعراض عنها، ولكنهم طلبوا الطمأنينة والراحة أو طلبوا الرضوان، وشتان بين من يطلب الرضوان ومن يطلب المعرفة حيثما وصل إليها أو وصلت إليه..

* * *

قال: أى رضوان وأى راحة؟.. إنهم ليعذبون أبدانهم ويقدعون نفوسهم ويشلون أعضاءهم بمشيئتهم، فكيف ينشدون الرضوان والراحة بهذا العذاب..!!

قلت: هل يعذبون أبدانهم إلا لأنهم راضون بهذا العذاب ومطمئنون إلى عقباه؟.

وهل يشاء الإنسان أمرًا لا يشاءه أو يختار أمرًا لا يختاره أو يرضى بأمر لا يرضاه؟..

* * *

لعمرى لئن لم يفتح النساك فتحًا عظيمًا فى جانب المعرفة لقد فتحوا أعظم الفتوح فى جانب الأخلاق.. بل أقاموا الأخلاق على أوسع أساس حين علموا الإنسان أن رضوان النفس مطلب يهون فى سبيله كل عذاب، وأنه لا جزاء أوفى من رضوانها ولا عذاب أنكأ من سلب ذلك الرضوان، وأى فهم لمعنى الثواب والعقاب أكمل وأفضل من هذا الفهم الذى لم يأت من جانب البحوث والفروض؟..

لا عذاب للنفس أنكأ من شعورها بالنقص ولا نعيم لها أنعم من شعورها بالرضوان. فكفى بهذا الفتح انتصارًا فى معترك الأخلاق، وإن لم ننسك كما ينسكون ولم نتعذب كما يتعذبون..

قال صاحبى: الحق أننى لم أشق فى حياتى بشقاء أمرّ وأوجع من اتهامى لنفسى وسوء الظن بطويتى. ولو لم يكن هذا الشقاء أمر الشقاء على الطبيعة البشرية لما تحصنت منه بحصن الغرور، وهو أعم الخلائق فى البشر أجمعين.

قلت: والغرور هو الجوهر الزائف الذى نتحلى به كلما أعوزنا الجوهر الصحيح، وإنه على هذا لحصن مطروق لا يستعصم كل الاستعصام من ذلك الرقيب الحسيب..

فربما اغتر الإنسان فكبرت قيمته عنده ولم يقنع بما دونها فالمه النقص وفاتته نعمة الرضوان.

* * *

ولقد قال اليونان قديمًا أعرف نفسك ، فإذا قلنا معهم : نعم وارض عن نفسك أيضًا بلغنا كمال العلم وكمال الأخلاق . ترى هل يطلب الناس أجرًا لأنهم يلبسون حلل الحرير ولا يلبسون الكرابيس ! . . ترى هل يأكل الناس الطعام المرىء اللذيذ ويصدفون عن الطعام المسقم الخسيس لأنهم يخشون العذاب ؟ . . فإذا عرفوا الكمال وعرفوا النقص فهل تراهم يطلبون أجرًا لأنهم تجنبوا النقص وتعلقوا بالكمال ! . . وإذا عرفوا صحة النفس فهل تراهم يلتمسون الأجر على الصحة كما يلتمس الأطفال أجرهم على تناول الدواء ؟ . . إنما الخوف من النقص هو أمَرّ العذاب ، والرضوان عن الكمال هو أحسن الجزاء .

وقد يتعذب الإنسان فى طلب الكمال وهو راض ، وقد يرفض النعمة فرارًا من النقص وهو لا يخشى العقاب . فارض عن نفسك وأنت فى غنى بعد هذا عن الوعد والوعيد فى نشدان الكمال ، لأنك لا تحتاج إلى الوعد والوعيد لتستطيب ما أنت شاعر بطيبه وتنفر مما تعاف .

قال صاحبى : أكبر الظن أن «الذوق» هنا قد يغنى ما ليست تغنيه المعرفة أو تغنيه التقاليد والموروثات ، وهنا يستوى الفن الجميل فى مكانه إلى جانب المعرفة وإلى جانب الدين .

وكان صاحبى يداعب على القرب رفا أمامه يقرأ عليه عناوين الكتب فى تماثيل اليونان ومدارس الفن القديم والحديث ، فما هو إلا أن أطر اسم الفن الجميل على لسانه حتى تناول واحدًا منها ثم تناول ثانيًا وثالثًا ورابعًا وهو يقلب صفحاتها ويقابل بين صورها ويقرأ سطورًا هنا وسطورًا هناك فى التعقيب على تلك الصورة أو ذلك التمثال ، ولم يفته أن يدرك ما أدركته الأجيال بداهة وارتجالا من ذلك الفضل السبق على جميع الأفضال فى باب التماثيل : وهو فضل الإغريق الأقدمين . فراح يقول : صدق الذين أطنبوا فى شأن هؤلاء الإغريق ووصفوهم بأنهم تراجمة الطبيعة الصادقون فى كل باب ، ولا سيما باب التماثيل وباب التمثيل ، فما يبصر الإنسان تمثالا إغريقيا إلا اتصل بصره بالطبيعة على بساطتها بغير حائل وبغير حجاب ، وما يقرأ قصة من قصصهم المسرحية إلا اتصل بصره بالطبيعة كما يعيش فيها وتسيطر عليها العناصر والأقدار .

واختطف كلمة فى هذا الكتاب وكلمة فى ذاك عن فن مريون وفيدياس وليسبس ومن تلاهم من المتخلفين . فإن الفن أيضًا مظهر لبروز الفرد الإنسانى من الغمار الشامل إلى مكان التخصيص والتمييز ، فالتمثال القديم نموذج للشكل والقالب والقوام يتساوى فيه كل ذى خلق سوى من الناس ، ولكنه شامل عام لا تتميز فيه الملامح والتعبيرات ولا يتمثل فيه التخصص والانفراد ، ثم تتعاقب صور الإفراد بروزا وتباينًا حتى ينسى الناظر إليها النماذج الشاملة ويتناولها بالتقسيم والتفصيل ، ويظهر هذا فى تماثيل العصور الإغريقية لأنهم صدقوا وصف الطبيعة وصدقوا الشعور بها على السواء . . . وكأنهم حين يمثلون الأبطال الأقدمين يمثلون عناوين شتى لكل نموذج البطولة ويصنع على غراره قالب باق وتتعدد منه أنماط متكررات .

ولم ينته صاحبى من تقليب تلك الصور إلا وهو يقول : فن جميل . نعم فن جميل . ولكن ما غناء الفنون الجميلة فى عصرنا هذا عصر العلوم والصناعات . . .! وأية أمة فى عصرنا هذا تفرغ للفن كما فرغ له الإغريق وعليها ذلك الإلحاح الدائم من حاجتها إلى العلم وحاجتها إلى الصناعة ؟

وتذكرت فى تلك اللحظة سؤال سمعه الناس ولا يزالون يسمعون منذ ظهرت بينهم الصناعة الحديثة والعلم الحديث . وقد سئلته مرات ، وأحببت فى هذا المقام أن أكون أنا السائل قبل أن أكون المسئول ، فقلت لصاحبى : وأيهما أحق بالعناية والتقديم ؟ . . وأيهما أجدر بالأمم أن تفخر به وترعاه ؟ . .

قال : وهل فى ذلك جدال ؟ . . أحقها بالعناية والتقديم هو الذى تحتاج إليه ولا تستغنى عنه ! . .

قلت : ولكن هذا المقياس يا صاحبى أخطأ مقياس للتفضيل بين شيئين يتعلقان بالإنسان ، لأن الذى لا نستغنى عنه دائما هو الضرورات الحيوانية التى تقارب بيننا وبين من دوننا من الأحياء . . والذى نحسبه من الكماليات هو الكمال الذى تتفاضل به منازل الناس . فدع الحاجة ومقاييسها يا صاحبى فليست هو بمقياس صحيح ، وكيف يكون مقياسًا للاختيار ما يسلبك الاختيار وينزلك على حكم الضرورة والإكراه ! . .

قال : فماذا ترى أنت ؟ . .

قلت : إذا لم يكن فى الأمر اضطرارا فنحن إذن قادرون على أن نختار بين أمة جاهلة ناقصة الأداة ، وأمة مريضة توشك أن تموت . .

فالأمة بغير علم أمة جاهلة ولكنها قد تكون على جهلها وافية الخلق والشعور ، والأمة بغير صناعة أمة تعوزها أداة العمل ، ولكنها على هذا قد تكون صحيحة الحس صحيحة التفكير ، والأمة بغير تعبير أمة مهزولة أو مشرفة على الموت ، وكذلك تكون الأمم التى خلت من الفنون ، لأن الفنون هى تعبير الأمم عن الحياة .

ولا أكتمك يا صاح أن الاختيار بين هذه المقاصد الثلاثة خليق أن يعنت المختار ، لأن الفن والعلم والصناعة ليست بديلا من بديل وليست قرينًا يقاس إلى قرين . وما أعطى الإنسان التعبير ليبادل بينه وبين العلوم أو بينه وبين الصناعات . فإنما التعبير جزء من حياة الإنسان . . والعلم حالة من حالاته ، والصناعة أداة من أدواته . . ولا محل للمفاضلة بين جزء لا ينفصل من النفس الإنسانية وحالة من حالتها التى قد تنفصل عنها ، ولا محل للمفاضلة بين هاتين وبين عصا يحملها المرء فى يده أو فأس يضرب بها الأرض أو مطية يركبها ، أو شىء من هذه الأشياء المصنوعة على الإجمال . .

وما ظنك برجل يقول لك : تعال يا فلان ! . . إنك حى تعبر عن سروورك والمك وتقول إنى أحب وإنى أبغض ، وإنى أرجو وإنى أخاف ، وإنى أبتهج لتلك الروضة وأنقبض لتلك المتاهة ، وأعجب بهذا البطل الجسور وأهيم بذلك الوجه الصبوح . . تعال يا فلان ! . . إنك تستطيع أن تقول هذا فلا تقله وخذ فى مكانه العلم أو خذ فى مكانه عشر سيارات وبضع طيارات ومصنعًا للحديد ومنسجًا للحرير . . ما قولك فى هذا الرجل يا صاح ! . . هل تراه قد عرض عليك الخيار فى أمر يصلح للخيار ؟ . . وهل تراك قادرًا على أن تجيبه ولو طاب لك أن تأخذ البدل المعروض وتعطيه التعبير المزهود فيه ؟ . .

ذلك هو شأن الذين يفاضلون بين الفنون والعلوم والصناعات يخيرون الناس فى غير موضع للخيار ، ويسألونهم عن الأسعار فى غير موضع للبيع والشراء . أما إن كان المقصد من هذه التسعيرة تقويم القيم والعلم بأقدارها فليعلموا إذن ما شاءوا أن يعلموه : ليعلموا أن للأصبع قيمة ، وأن للمصباح قيمة ، وأن للسيف قيمة ، وأن للرغيف قيمة ، ولكن المبادلة بينها لا تقبل فى سوق الاختيار . . . وليس فى سوق البيوع الجبرية مجال للإيجاب والقبول !! . .

ووقعت يد صاحبى على مجلدات الصور التى تسمى بصور المدارس الحديثة وهى أشكال وألوان من المستقبليين إلى فرق الواقعيين إلى الإحساسيين الغلاة ، إلى أشباه ذلك من البقع والخطوط والأصباغ التى تحمل عنوان التصوير وليست هى من التصوير فى شىء ، لأنها فى استطاعة كل من يتناول الريشة ويغمسها فى الألوان ، وليست بالفن الذى تعرف له أصول وتدرس له مبادئ ويمتاز به الفنان بين سائر الناس .

نظر صاحبى إلى تلك الصور فاشتدت عليه النقلة من فنون الأقدمين ونظرائهم المحدثين إلى هذا الهراء الذى يشبه هذيان المجانين . فقال : إن كان الفن تصويرًا فليس هذا بتصوير ، وإن كان هذا الفن الذى يسمونه بالحديث تصويرًا فلنبحث عن اسم آخر لذلك الفن القديم . . . لن يجمع الفنين اسم واحد بأية حال .

قلت : لا حاجة للبحث عن اسم آخر للفن القديم فهو التصوير الذى يصنعه المصورون . أما هذا فهو ألغاز وأحاجى كتلك الألغاز والأحاجى التى تنشر فى صحف التسلية عن الحروف المتقطعة والأرقام المثلثة أو المربعة أو عن العيون التى ليس لها آناف ، والآناف التى ليس لها عيون ، وكلها من عمل الملغزين والمفسرين فلا اختصاص بها للمصورين والنحاتين دون غيرهم من العاملين .

قال صاحبى : ونستغفر الألغاز والأحاجى قبل هذا التشبيه بين الفنين . فإن الألغاز والأحاجى ترجع إلى تفسير يتفق عليه كل من يفهمها بلا استثناء . أما هذه البقع والخطوط والأصباغ فهى شىء لا يفهمه غير صاحبه ، ولا يستطيع أن يعمم فهمها بين طائفة من الناس ، فكل صورة هنا كلمة من لغة لا يعلمها إلا إنسان واحد ، إن صح أنها شىء معلوم ، وقد كانت الفنون لغة عامة يفهمها على البداهة من لا يتفاهمون باللغات ، فأصبحت على أيدى هؤلاء المجان خرافة سرية فى ذهن رجل واحد لا يمثلها مرتين على نمط معروف .

ثم أومأ صاحبى إلى صحائف الإحساسيين فقال : هؤلاء هم الذين فتحوا الباب جزاهم اللّه ! . .

قلت : أصبت ، إنهم هم فتحوا باب التصرف فى الأصول الموروثة ولكنهم أصابوا فى فتحه ، وهؤلاء دخلوا فيه ولكنهم دخلوا واغلين . .

لقد كان الأساتذة الأقدمون يصورون ما يعملون ويحسون ، فجاء من بعدهم أساتذة المدرسة «الإحساسية» ليصوروا ما يحسون وما يشاهدون . .

كان الأستاذ القديم يعلم وهو يصور الشجرة أن لها غصونًا وأوراقا فيصورها ذات غصون وأوراق مفروزة كما يعلمها ، وإن كان يراها من حيث يجلس لتصويرها لونًا أخضر لا تنفصل ورقة فيه عن سائر الأوراق .

وكان الأستاذ القديم يحسب الظل سوادًا لأنه نقيض البياض وإن كان ليضرب أحيانًا إلى لون البنفسج أو الرماد .

فجاء الإحساسيون فأصلحوا هذا وذاك وكان لهم الفضل والتوفيق فى هذا الابتداء .

وكأنما حسب الذين خلفوهم أن التصرف مقصود لغير غرض مقصود ، فوصلوا إلى ما هم فيه من هذيان المجانين .

كان الأقدمون يصورون ما يعلمون ويحسون ، وكان الإحساسيون الصادقون يصورون ما يحسون ويشهدون ، فجاء من بعدهم من يصورون ما يتوهمون ، وجاء من بعد هؤلاء من يصورون ما يزعمون أنهم توهموه ، وهم كاذبون .

توهم مزعوم . . فماذا يكون وراء الوهم الملفق والزعم المكذوب ؟ . .

لن يكون إلا هذه البقع والخطوط والأصباغ ، ولن تكون فنا يتولاه فنان لأنها فى مقدور كل يد تصبغ الألوان .

انظر إلى هذا الكلب الذى صوره رجل من المستقبليين ! . . أرأيت كلبًا قط له اثنتا عشرة قدمًا وذيلان أو ثلاثة ذيول ؟ . . إن هذا «المستقبلى» يصوره كذلك لأنه يزعم أن الكلب وهو يجرى قد يرى لهذه العدد من الأقدام والذيول ! . . فمن الذى أنبأه أن فن التصوير قد يخلق لتصوير الكلاب وهى واقفة لا تنقل قدمًا فى قصارى شوطها فلم يجهل أحد رآها أنها تعدو غاية العدو وأن الحركة شىء داخل فى صناعة المصورين . ولو جرى المضورون على هذا المذهب لما جاز أن يرسم إنسان بعينين اثنتين . . لأنه يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشمال ويرفعهما إلى أعلى ويصوبهما إلى أسفل فلا تستقران فى لمحتين ! . .

وانظر إلى هذا المنكود من غلاة الواقعيين كيف يصور الفتاة ؟ . . أفهذه فتاة أم جثة غريقة وارمة ؟ . . أم جلد آدمى محشو كما تحشى جلود الحيوان ؟ . .

ولكنه يقول لك إنه يصور ما يراه الوعى الباطن ولا يصور ما تراه العينان . فمن قال له أن الوعى الباطن مخلوق فى هذه السنوات التى سميناه فيها باسمه . .! ومن قال له إن الأساتذة الأقدمين كانوا يعيشون فى هذه الدنيا على صورة لم تكن لها فى الزمن القديم . . ثم جاء المتجرجون بالغرائب فسخروه وشجعوه ، ووقع فى الفخ من يدعون غير ما يعلمون ، ومن يخافون أن يقال عنهم إنهم قوم متخلفون ، ولا يفقهون الجديد ولا يجرون مع العصر الذى يعيشون فيه .

قال صاحبى : ترى لو تمثل صاحبنا فى وعيه الباطن صورة السيارة كأنها الفتاة الحسناء اللعوب – أيؤمن بوعيه الباطن هذا فيلقى بنفسه تحت قدميها ، أو يقف فى طريقها ليغازلها ويسعد بقربها . . ؟!

قلت : ليتهم يصدقون الوعى الباطن هذا التصديق ، فيلحقوا بالوعى الباطن فى عالم الخفاء وتسلم القرائح والأذواق . . لكنهم عند الجد قوم عقلاء . ينظرون بالعين التى ينظر بها الناس ولا يرون السيارة إلا سيارة ، ولا الرجل إلا رجلا ولا الفتاة إلا فتاة !

وألقى من يده تلك المجاميع ليتناول مجموعة من صور التماثيل التى صنعها الأقدمون والمحدثون وحفظت أصولها فى دور الفنون والآثار ، بعضها فى متحفنا المصرى وبعضها فى العواصم الأوربية . . فبدرت منه هتفة إعجاب بنخبة من تماثيل الملوك والملكات والكهان فى عصور الفراعنة ، وأدهشه ما يمثله الحجر – ثم تمثله الصورة المأخوذة عن الحجر – من قوة الخلق ودقة الملامح وبروز السمات على خلاف ما توسم فى تماثيل الإغريق .

قال : ما كنت أحسب أن المصريين برعوا الإغريق فى هذه الفنون ، ولا سيما فى النحت والتصوير .

قلت : كما ينبغى أن تحسب ذلك بداهة قبل أن تلمحه بالعيان ، فالمصرى القديم كان يعنيه التخليد قبل أن يعى بالنقل عن نماذج الطبيعة ، ومن عنى بنقل النماذج العامة أغناه الوصف العام المشترك بينها عن السمات الخاصة والملامح الشخصية ولكن المصرى الذى كان يصنع التمثال كما يحنط المومياء لتخليد صاحبها ودوام جسده ومقومات شخصه لم يكن له معدى عن تمييز معارفه والتدقيق فى تمثيل صفاته . فمن ثم كان المصريون الأقدمون أبرع من الإغريق الأقدمين فى نقل الملامح والقسمات ، ولولا أن الإغريق أطلقوا الدنيا وأن المصريين قيدوا دنياهم بآخرتهم لجاء فن الإغريق بعد فن الفراعنة الأقدمين بأشواط فساح .

قال : ولعلهم من أجل هذا قربوا الصلة بين قيود الفن وقيود الأخلاق . فندر فى صورهم العرى وعرض المفاتن المثيرة ، وتعمدوا أن يستروا من الأجسام ما تقضى الأخلاق بستره ، خلافًا للسنة الشائعة فى رسم الصور ووضع التماثيل .

قلت : إنهم في الواقع أقرب إلى ستر الأعضاء من غيرهم ، فلم يكشفوا من عورات الأجسام إلا ما صنعوه لآلهة التناسل فى المحاريب المزوية ، ولكنى لا أخال المسألة هنا حياء اتصف به قدماء المصريين وتجرد عنه الآخرون ، وإنما كانت تماثيل المصريين الأقدمين تماثيل أشخاص معروفين لا تماثيل أجسام يتخذونها نموذجًا للجسم القوى والجسم الجميل ، ولا حاجة إلى عرض خفايا الجسم فى تماثيل الأعلام المعروفة : أما نماذج القوة ونماذج الجمال فيختلف الحكم عليها بعض الاختلاف - فإن إظهار العضلات والألواح وإظهار الزوايا والمدارات ، قد يتمم النموذج ويلزم المثال فى أداء عمله أشد من لزوم الوجوه والرؤوس . .

ثم قلت : وعلى هذا ربما أدهشك كما أدهشنى حين قرأت لأول مرة أن الأصل فى ستر الأعضاء إنما يرجع إلى الأنفة من وظائفها لا إلى الحياء من شهواتها ، وأنهم كانوا يعافونها فيستروها ولم يستروها لأنهم يخشون فتنتها ، فما أعجب أصول الأخلاق ، وما أعجب منبت الحياء .

قال صاحبى : وكان من الذين يتحرجون ولا يمنعهم تحرجهم أن يسمعوا وجهات الأنظار : من أى منبت نبت فهو اليوم فضيلة من كبريات الفضائل ، أو

لعله اليوم أصل الفضائل جميعًا . . فلماذا يكشفون ما ينبغى أن يستر ؛ ولماذا يلزمون تماثيل الناس قلة الحياء وهم يطلبون الأصل الأصيل ! . .

قلت : أولى لهم أن يستروا ما يعاب كشفه ولا حاجة إلى إبدائه . على أن المثالين قد خدموا الأخلاق من حيث لا يريدون حين عودوا الناس أن ينظروا إلى الجسد الواحد نظرات متعددات ، لأن النظر للشهوة وحدها معيب كعيب الخلاعة والابتذال ، ومازال العزل بين أنواع الشعور ثروة لنفس الإنسان تخرجها من فاقة الطبع إلى غناه . فالطبيب ينظر إلى جسد المرأة الحسناء فينسى الجمال والشهوة ويذكر الطب والرحمة ، والرجل ينظر إلى أخته أو ابنته فينسى أنها امرأة من جنس النساء ويذكر الحنان والمودة ، والممثل يقبل الممثلة وينسى لذة التقبيل ليذكر براعة التجويد والإتقان . والعينان اللتان تبصران ألف جسد على شاطئ البحر فى كساء الحمام لا تفتنان كما تفتنان بجسد واحد فى مثل هذا الكساء بين الجدران ، فإذا تعود الناس أن ينظروا إلى التمثال فيذكروا جماله واتساق أعضائه وتناسق أوصاله وينسيهم ذلك أنهم من ذوى الشهوات بضع لحظات ، فهم كاسبون فى الأخلاق فضلا عن الأذواق ، وليسوا بخاسرين . .

* * *

وعاد صاحبى إلى ترتيب المكتبة الذى بدا لأول وهلة أنه لا يعجبه ولا يريحه ولا يتيح له أن يجد طريقه فيه ، لأنه أعرض عن كتب الصور والتماثيل ومد يده إلى بعض الكتب التى تجاورها على رفها فإذا هى فى المنطق وما إليه . قال : ما هذا ! . . أمن بيكاسو وأروزكو وبراك وتماثيل الفراعنة والجرمان إلى أرسطو وكانت وهيوم ؟ . . لم أر موضوعا أبعد عن المنطق من موضعه فى هذا المكان .

وكانت هذه الملاحظة وأشباهها ما تفتأ تعاد من كل زائر طرق هذه الحجرة ونظر فى كتبها ورفوفها ، ولم تكن بى حاجة إلى بيان عنها لأن البيان الوحيد أننى أجددها كل حين ولا أملك أن أرتبها كل حين ، وإننى مع هذا لا أضل فيها عن طريق كتاب أريده منها فما حاجتى إلى ترتيب لها غير هذا الترتيب؟ . .

ولكننى رجعت بصاحبى إلى المنطق الذى أحتكم إليه فقلت : وهل يقضى المنطق بغير ما تراه ؟ . . ما الحاجة إلى عناء الترتيب والتبويب إن كنت بغير ترتيب ولا تبويب تدرك ما تريد؟ . . وأى ترتيب ينتظم فى هذه الحجرة من ناحية أخرى؟ . . أترتيب الحجم أم الموضوع أم تاريخ الاقتناء أم المؤلفين! . . ولِمَ العناء؟ . . إن المنطق الذى تحتكم إليه أسباب وعلل . . فهل من سبب وهل من علة ؟ . .

قال : لست على المنطق بغيُّور فاصنع به ما تشاء وضعه حيث تشاء . وما جدوى المنطق فى المكتبة وما فى الحياة من منطق يعقله العقلاء .

قلت : أما هذا يا صاحبى فلا ، وإننا لعلى شرطنا الأول أن ندع المردة فى قماقمها ولا نطلقها ، ولكننا قادرون – وهى حبيسة – أن نقول فى أمان : إن المنطق والحياة لا يفترقان ! .. وإن الآفة فيمن لا يفهمون المنطق أنهم لا يحسنونه ، وفيمن لا يحسنون الحياة أنهم لا يفهمونها ، فما من شىء فى هذه الحياة يناقض المنطق بحال ، فإن فهمناه فهو مفسر بأسبابه ومقدماته ، وإن لم نفهمه فليس لنا أن نناقض بينه وبين المنطق أو القياس .

قال : عجبا ! .. أو كذلك ؟ .. إننا لنرى كل يوم أمورا لا نفهمها ولا يراها الناقدون تجرى إلا على خلاف وجهها ونقيض استقامتها ، هذا الغنى بخيل وذلك الفقير كريم . هذا الفتى المقبل على الحياة يقدم على الموت فى شجاعة وخيلاء ، وذلك الشيخ الذى شبع من الحياة يجبن ويخاف . هذا الذكى محروم وهذا الغبى مجدود .. فأى منطق فى هذا وأى قياس ؟ ..

قلت : كل المنطق وكل القياس .. أن الذكى لا يصنع مقاديره فيصيب فيها بذكائه وأن الغبى لا يصنع مقاديره فيخطئ فيها بغبائه ، وإننا لنضع المنطق فى غير موضعه حين نجعله حسبة أرقام وأعوام ، فإن الفتى الذى يقدم على الموت لا يفعل ذلك لأنه يحسب الأعوام التى عاشها والأعوام التى ينبغى أن يعيشها ، ولا يقدم على الموت لأنه يريد أن يقدم عليه ، ولكن الوضع الصحيح أن نضع دوافع الحياة التى تحفزه إلى المجد والغلبة والثناء وتخجله من العار والمهانة والعقاب ثم نضع أمامها دواعى الحرص والحذر والإشفاق ، فإذا كانت تلك الدوافع أقوى من هذه الدواعى فالمنطق الصحيح إذن أن يقدم على الموت ولا يستسلم للحذر والمخافة ، وإذا كان الشيخ على نقيض ذلك قد تغلبت فيه المخاوف على دوافع الشباب فالمنطق الصحيح أن يتشبث بالحياة التى يرفضها ذلك الشاب وهو فى مقتبل صباه .. وما من غرابة إلا وهى مفهومة معقولة منطقية قياسية حين نضعها فى وضعها الصحيح ، وإنما نخطئ المنطق لأننا نخطئ الإحساس ، فلا تصدق خصيان العقول والنفوس حين يزعمون أنهم من ذوى الإحساس لأنهم لا يفكرون ولا يقيسون . فإنما الإحساس القويم هو الفارق الوحيد بين النمط القوى والمنطق الضعيف ، وإنما الخطأ فى المنطق خطأ فى الإحساس بالأمور على حقائقها النفسية .. أتعرف أولئك النظّامين الذين يحفظون التفاعيل ليحسنوا وزن الشعر ،

فلا تستقيم لهم التفاعيل ولا تستقيم لهم الأوزان ! . . لو أحسوا بآذانهم لصححوا الأوزان معها ، وكذلك الذين صغرت نفوسهم فلا يشعرون بالحياة على حقائقها يتهمون المنطق وهو براء ، وهم الذين لا ينطقون ولا يحسون .

ترى هل يخطئ المخطئون فيحسبون الغنى أولى بالسخاء والفقير أولى بالضنانة لأنهم يحسبون ولا يفكرون ، أو لأنهم لا يحسون ولا يضعون شعورًا أمام شعور بل أرقامًا أمام أرقام ! . . ترى لو أحسوا ماذا يختلج فى نفس الغنى فيبخل وماذا يختلج فى نفس الفقير فيجود ؟ . . أكانوا يخطئون فى المنطق ويضلون عن سواء السبيل؟ . .

إننا نتكلم فى الغنى والفقير ، فلنمض فى القافية ولا ندع الكلمتين قبل أن نقول : إن فقر العقول لم يكن قط شهادة بغنى النفوس ، وإن ثروة النفس لا تحرم صاحبها ثروة العقل بل تعينه عليها وتزيده منها . وهذا فيما أحسب فصل الخطاب فى قضية الفقراء المنطقيين الذين يثبتون غناهم فى الحس والشعور بشهادة فقر فى باب المنطق والتفكير .

* * *

وقبل أن يتقدم صاحبى إلى ركن الشعر والشعراء وهو ربع المكتبة بادرته بالشرط المعهود : لا نفتح القماقم ولا نتجاوز العناوين ! . .

قال : نعم الشرط فيما أرى . فما نحن بخارجين من هذه الحجرة لو أطلقنا ماردًا واحدًا هنا وانطلق وراء إخوانه المتخفزون . ولا أخفى عليك أننى لست على مذهبك فى الحفاوة بالشعر لأنه فضول شبعنا منه نحن الشرقيين وطال اشتياقنا إلى تعويد أبنائنا ملكة العمل بعد ملكة الكلام ! . .

قلت : لك رأيك فى الحفاوة بالشعر والشعراء . أما الحقيقة فهى أننا كنا عاملين عندما كنا قائلين ، وأنه لم توجد قط أمة عرفت كيف تعمل إلا عرفت كذلك كيف تقول . فلا تناقض بين القدرة على العمل والقدرة على القول . وما يستطيع إنسان أن يعمل حسنًا أو يقول حسنًا إلا بوعى صحيح . والوعى الصحيح قسط مشترك بين ملكة العمل وملكة الشعر . ولولا أن الشعراء يحتاجون إلى صناعة التعبير ويفرغون لإتقانها لما منعهم الشعر أن يكونوا أقدر العاملين .

أتحسب العرب كانوا متخلفين فى ميادين الأعمال أنهم كانوا سباقين فى ميادين القصيد زمنًا من الأزمان ؟ . . أرأيت اليونان قد نبغ فيهم القادة والساسة

والمدبرون إلا حين نبغ فيهم الشعراء والمنشدون ؟ . . أتعلم أمة من أمم الأرض في العصور الحديثة كانت أطبع على مراس الواقع والعناية بالفكر العملي والخلائق العملية من أمة الإنجليز ؟ . . فهل رأيت أمة من جيرانهم ومنافسيهم سبقتهم في مضمار الشعر وأنجبت نصف من أنجبوه من عباقرة الشعراء ؟ . .

زعموا - أو زعمنا لأنفسنا نحن الشرقيين - أننا خياليون ، وأننا لو أصبحنا واقعيين لنفضنا عنا غبار الخمول . والحق الذى لا مرية فيه عندى أننا واقعيون فاشلون فى الواقعيات ، فليست قصور ألف ليلة ولا حسانها وجواهرها وموائد طعامها وشرابها خيالا يحتاج إلى ملكة من ملكات التصور والإدراك ، ولكنها كلها واقع ناقص أو واقع موقوف التنفيذ . فإذا حصل التنفيذ حصل الواقع الذى يلمس ويرى ويشم ويذاق . . واليوم الذى نتخيل فيه ، فنحسن التخيل هو اليوم الذى ننفض فيه غبار الخمول . . لأننا نحسن الوعى بهذا التخيل ، ونطبع الصورة الصادقة فى بدائهنا من صورة الوجود ، ولن تنطبع فى النفس صورة صادقة لما حولها وهى راكدة قاعدة أو عازفة عن الحركة والسعى والاستجابة لتحول الأحوال .

فكن على رأيى أو رأى غيرى فى الحفاوة بالشعر والشعراء ولكن لا تجعل الشعراء مقياسك الذى تقيس به قدرة العمل ، لأنهم يتفرغون للتعبير فيفوتهم التفرغ لما عداه من الشئون ، واتخذ مقياسك من الأمم العاملة القائلة تجد أن الشعر الأصيل والعمل الأصيل يرجعان معا إلى فرد مقياس ، وهو الوعى الأصيل .

وهممنا أن نترك الحجرة التى قضينا فيها معظم هذه السياحة فأنصفناها أعدل الإنصاف لأننا فى الواقع نقضى فيها معظم الحياة .

وعدل صاحبى عن الرفوف إلى الجدران فقال : إننا دخلنا هذه الحجرة ونحن نقول : إن النور أخفى الأشياء ، لأنه أظهر الأشياء بل مظهر الأشياء ، وها نحن أولاء نغضى عن الجدران الظاهرة ونبحث عن الرفوف والصفوف . فمن هذا وما ذاك وما هنالك على هذه الجدران التى رأيناها أول ما رأينا ؟ . . ألم تكن أحق منا بالسؤال عنها أول ما سألنا ؟ . .

وكانت على الجدران صورة فنية واحدة لا ثانية لها من نوعها وهى صورة الفتاة الحزينة على قبر حبيبها الدفين ، وقد كتبت عنها فى ساعة من الساعات بين الكتب فلم يكن السؤال بحاجة إلى جواب ، أما سائر الصور فقد كان أوضح من أن

تحتاج إلى توضيح ، جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول وكاريليل وبيتهوفن ، وصورتان من صنع الفنان النابغ صلاح الدين طاهر إحداهما صورتى بعد الأربعين والأخرى بعد الخمسين ...!

ولقد تجمعت هذه الصور فى أماكنها بمحض الاتفاق ، فى نيف وعشرين سنة ، فلم أعرف لها وحدة تجمعها إلا بعد أن تجمعت وحدها وساءلت نفسى عن تلك «الوحدة» كما كان يسألنى الناظرون إليها .

قال صاحبى وهو يومئ إلى الصور واحدة بعد واحدة : هذا موسيقى ألمانى ، وهذا حكيم إنجليزى ، وهذا مصلح أفغانى ، وهذا وزير ، وهذا مفت ، وهما مصريان .. ! فما الذى جمعهم فى صعيد واحد وهم بهذا التفرق فى المواطن والشواغل والأهداف .. ؟

قلت : الجد والكفاح ونبل السليقة وقلة الاستخفاف .

فهؤلاء الثلاثة شرقيون من رجال العمل والحركة ، وأعمالهم فيها النهضة الاجتماعية والثقافة الدينية والثروة الوطنية ، ولكنهم كلهم مجدون مكافحون نبلاء ، لا يستخفون بما يعملون ولا يدينون بشريعة الاستخفاف التى يتراءى بها بعض الساخرين من الحكماء .

قال : لكأنى بك لا تحب الساخرين .

قلت : كلا .. بل أحبهم ساخرين وجادين مكافحين . ومن أعجبه كارليل وبيتهوفن لا يكره السخر بل لا يكره السخط أحيانًا على الحياة . ولكن شتان سخط وسخط وشتان رضوان ورضوان .

أتعلم يا صاحبى ماذا أحب وماذا أبغض من مذاهب السخرية بل من مذاهب السخط والتشاؤم .. ؟

إن النظرة إلى المرأة هنا هى مقياس النظرة إلى الحياة . فإنك لا تسخط عليها إلا لأنك تكبرها ، ولا تترك السخط عليها والسخرية منها إلا لأنها هينة عليك حقيرة فى عينيك .

الزوجة تغضبك وتقيمك وتقعدك ولكن البغى المستباحة لا تثير منك غضبة ولا تكلفك حسابًا ولا عناية . فإن اقترن السخط بالجد والاهتمام ، فالحياة شريفة مرعية تلقاك منها المغضبات بغير ما تتوقعه وما تتمناه ، وإذا بطل السخط والجد والاهتمام فالحياة شريفة مرعية تلقاك منها المغضبات بغير ما تتوقعه وما تتمناه ،

وإذا بطل السخط وبطل معه السخر اللاذع فالحياة جثة مستباحة بلا عرض ولا كرامة ، وهذا الذى أوثر عليه سخط الساخطين وسخط الساخرين . .

وإنى لأسمع من هذه النافذة بين حين وحين صوت امرأة لا تنى تنذر وليدها بالخيبة وسوء المآل : أأنت تفلح فى شىء قط ؟ . والله ما أنت بمفلح ولا بمقلع عما أنت فيه ! . . خيبنى الله إن لم أرك خائبًا هكذا بين أبناء الأمهات . .

وهذا سخط كسخط فريق من الفلاسفة المتشائمين على الدنيا ومن فيها ، ولكنه سخط من يريد الخبر ومن يسوءه صدق ما يقول ، ومن هو أول الفرحين المستبشرين لو جرى الأمر على غير النبوءة التى يقسم عليها جاهدًا ، ويخيل إليك أنه قد جزم بها كل الجزم وفرغ منها غاية الفراغ .

هذا سخط من يعنيه أن يسخط ويعنيه أن يرضى ، هذا سخط من يسخط على نفسه وهو ساخط ، أو من يسخط لأنه يحاول أن يرضى فما استطاع . .

أما أولئك الفلاسفة الراضون بالدنيا لأنهم يلتذون عيوب الإنسان ويبحثون عنها بحث المحبور بالنقص المحزون بالكمال – فبينهم وبين أولئك الساخطين بون بعيد ، بين هؤلاء وهؤلاء ما بين الأم التى تنعى خيبة وليدها والعدو الذى ينعى خيبة عدوه ، فتلك تنعى وهى كارهة آسفة ، وهذا ينعى وهو راض قرير ، وتلك تحفز إلى العمل والصلاح ، وهذا يصد عن العمل والصلاح .

أولئك المتشائمون أصدقاء الحياة والإنسان ، وهؤلاء المتشائمون أعداء الحياة والإنسان .

وليست العبرة فى مذاهب الحكمة بالأسماء والعناوين ، ولكنما العبرة حق العبرة بالبواعث والنيات ، وربما نظرت إلى البواعث والنيات فرأيت بعض المتشائمين أقرب إلى حب الحياة والإشادة بفضائل الأحياء من بعض المازحين والضاحكين .

قال صاحبى : إن كثيرًا من الناس ليفهمون قولنا حين نقول لهم : إن كارليل فيلسوف متشائم ، ولكن كم منهم يفهموننا حين نقول : إن بيتهوفن موسيقار متشائم أو مناضل ؟ . . وكم من الناس فى الشرق خاصة يرى فى صناعة الألحان متسعًا لآراء المتفائلين وآراء المتشائمين وآراء المناضلين ! . . إنما يحسبون ذلك وقفا على التعبير بالكلام دون التعبير بالألحان ، فإن وصفوا لحنًا بالتشاؤم فأول ما يسبق إلى أخلادهم أنه لحن جنازة أو لحن شجن وأنين . . . وإنما يسوغ التعبير

الموسيقى فى معانى المذاهب الفلسفية عند طبائع الغربيين ولا يسوغ عند طبائعنا نحن الشرقيين ، أو ليس هذا هو الفارق بين موسيقى الغرب وموسيقى الشرق التى ورثناها عن الآباء منذ عهد بعيد ! . .

قلت : لا أحب أن أظلم الطبائع الشرقية ولا أود أن أفرد الطبائع الغربية دون سواها بتلك الفضيلة ، فإن الموسيقى الغربية لم تكن من قديم الزمان على هذا الطراز الذى نسمعه من بيتهوفن وأمثاله ، وإنما اتخذت منهجها الحديث حين نشأت فى ظل القداسة الدينية ثم عبرت عن مسائل الروح وأسرار الوجود التى تشتمل عليها الأديان ، ثم استولت عليها المذاهب الكونية حين استولت فى الغرب فى تراث الدين كله وعلى مسائل الروح بما رحبت ، فلم ينعزل الموسيقيون عن الفلاسفة والشعراء وباعثى النخوة فى صدور الأمم يوم تعاقبت بينهم نهضات الإصلاح والحرية ، وقديمًا كان فى اليونان وفى بلاد الجرمان منشدون وملحنون فلم ينهجوا على هذا المنهج الحديث ولم يرتفعوا بالموسيقى كثيرًا عن منزلة الطرب وتمليق الحواس وتمثيل الشعور المحدود .

لعلنا نقترب إلى الإنصاف وندنو من التحقيق حين نقسم الموسيقى إلى نهجين يختلفان باختلاف الذوق والبديهة ولا نقسمها إلى إقليمين «جغرافيين» بين أناس فى الشرق وأناس فى الغرب ، أو أناس فى الشمال وأناس فى الجنوب . .

فهناك موسيقى حس محدود وهى التى تؤدى لنا وظيفة الجارية والنديم ، وتسلينا بأنغام نفرح حين نفرح وأنغام الشجن حين ننوح .

وهناك موسيقى الروح وهى التى تخاطبنا من منبر الإلهام وشرفات الغيب وتجلس لنا مجلس المفسرين والهداة ، وتقول لنا ما يعجز عنه الكلام ، لأن الألحان لا تقصر عن وصف الأسرار حين تقصر عنها المعانى والحروف . .

ولدينا من جهة أخرى موسيقى الحس الحى التى تطربنا وتشجونا كما يختلج الطرب والشجو بالجسم القوى الصحيح .

ولدينا من جهة أخرى موسيقى الحس المريض التى تطرب من تطرب وتشجو من تشجو كأنها السم المخدر أو الشهوة السقيمة التى تترهل بها الأجسام من مخادع اللذات .

وقد تقترن الموسيقى بالسعة والصيف وبالسمو والهبوط ، على حسب السامع المصغى إليها والمتعقب لأنغامها . .

فمن الآذان الشعرية مثلا ما ليس يتسع لغير القافية الواحدة فى القصيد الطويل.

ومنها ما يسمع القصيدة الواحدة وفيها عشرة قواف تتكرر فى أماكنها فتحسن انتظارها حين تعود وتجرى مع كل قافية منها فى مدار.

وكذلك الأوزان الموسيقية فى آذان السامعين، وربما أتبعت أناسًا بتكرارها وأراحت أناسًا بهذا التكرار، وإنما المعوّل فى الحالتين على الأذن التى تتعقب وتحسن التعقب والتعقيب.

أترى اليدين اللتين تلعبان بخمس كرات وسكينتين وبضع بيضات مع الكرات والسكينتين لا تزال تقذفها اليمين وتتلقاها الشمال أو تقذفها الشمال وتتلقاها اليمين ؟ .. إنهما يدان من لحم ودم كتيتك اليدين اللتين تكسران البيضة الواحدة إذا تناولتها على غشم وجفاء، فإذا مرنت البديهة الصاغية فقد تداول بين عشرين وزنًا تتلقاها فى مواقيتها ولا تحار بين واحدة منها وواحدة كلما رجعت إليها، وإذا أخطأتها هذه المرانة - أو هذه القدرة - فقد يعنتها الوزن الواحد فى غير ميقاته المحدود ولا خطأ فى الموسيقى هنا وهناك، وإنما هو الخطأ فى التناول والاتباع ..

* * *

قال صاحبى مبتسمًا : وأخالها لعبة عسرة على آذان المستمعين عندنا .. خمس كرات وبضع بيضات وسكينتان فى يدين اثنتين ... هذا كثير على سامعى العود والقانون فى هذا الشرق «الطليطف» ... إنى ليائس من اليوم الذى يتجمع فيه لسماع الموسيقى العالية جمهور يعد بالمئات والألوف، كذلك الجمهور الذى يتجمع لها فى أندية الأوروبيين.

قلت : إن أجلنا اليأس فلا ضير فى تأجيله، فإن الأغانى الشعبية عندنا لا تزال سليمة من مرض الترهل والغواية، وهى لا تحتاج إلى مرانة كبيرة فى المنشدين ولا فى المستمعين .. فأما الموسيقى التى لا غنى فيها عن مرانة الآذان والأذواق فهى تلك الموسيقى العالية التى نتمنى لنا نصيبًا منها كنصيب الأوروبيين أو أوفى من ذلك النصيب. وليس لنا أن نيأس من عقباها بيننا حتى نؤدى واجب المرانة المطلوبة فى الجيل الناشىء تمهيدًا لما بعده من الأجيال، فإذا حسنت هذه المرانة جيلا واحدًا لم تثمر فى الشرق ثمراتها المنشودة فهناك مجال لليأس أو للشروع فيه.

ويخيل إلينا أننا لم نبدأ هذه المرانة بعد على وجهه المفيد لأننا خلقاء ألا نترقب فنا موسيقيًا عاليًا قبل أن نفصل بين الذوق الفنى وبين المتعة الجنسية أو المتعة الجسدية ، ونحن لا نزال نقبل على مجلس السماع جنسيين جسديين ، يتعصب الذكور منا للمغنيات الإناث ويتعصب الإناث منا للمغنين الذكور .

قال : وما آية هذا الفصل بين ذوق الفن وبين الغريزة الجنسية ؟ . .

قلت : آيته أن ترى السامعين يحيون السماع بغير ما ألفناه من التصدية والتصفيق ، وبغير ذلك الأسلوب الناشز من الخبط والصريخ ، فإن الصفة الأولى التى لا تنفصل من الموسيقى والغناء هى صفة الإنسجام والتناسب بين الأصوات ولن تسيغ الأذن الموسيقية زعيقًا ولا اقتضابا وهى تصغى إلى تناسب وانسجام . إنما السامع المصغى إلى الغناء الذى يصيح تلك الصيحات المزعجة حيوان لذعته الغريزة فجمح فى غير أناة ، وليس هو بإنسان يملكه جمال النسق وتستهويه متابعة النغم فى مسالك الألفة والنظام ، وليس فى وسع الأذن أن تكون أذنًا موسيقية ثم تنتقل من الفوضى إلى النسق ، ومن النسق إلى الفوضى فى لمحة عين ، وليس فى وسعها أن تسيغ الفن ، وتسيغ نقيضه فى آوانه واحدة ، وهل الفن إلا أوزان؟ . . وهل نقيضه إلا الأصداء والأخلاط التى تنطلق بغير عنان ! . .

فالصاخب الذى تلذعه الغريزة فيصيح ويقتضب الغناء معقول ومفهوم . .

أما الذى لا يفهم ولا يعقل فهو ذو نظام وذو فوضى ينطلقان فى لحظة واحدة ، ولا يزلان كذلك متقبلين مترددين فى شخص واحد ساعة أو بضع ساعات . .

قال : كأنما الذنب ذنب المستمعين .

قلت : ليس فى فنون الجماهير ذنب واحد ، بل ذنوب تشمل المسمعين ومن يستمعون إليهم ، ومن لا يسمعون ولا يستمعون .

وكانت صورة بتهوفن تنحنى إلينا كأنها تصغى إلى حديثنا ، فقال صاحبى : ما كان أعظم فجيعة المسكين بسمعه وهو السفير بينه وبين عالم الأصداء والأصوات . لو كان هو الذى أمامنا ولم تكن صورته لما سمع من حديثنا أكثر مما سمعت هذه الصورة الصماء . فماذا كان على الدنيا لو أسمعت هذا الذى أسمعها من أقصاها إلى أقصاها ولا يزال يسمعها إلى اليوم ! . .

قلت : هى محنة تمثلت فيها نزاهة الفن وخلوصه من ظاهرة الحس القريب . فقد سمعنا من نقاد الغرب من يقول : إن رفائيل لو ولد مقطوع اليدين لكان هو

فى ملكة التصوير روفائيل الذى علمناه ، فإن كان هؤلاء النقاد قد بالغوا بعض المبالغة فقد شاء القدر أن نرى أعظم الموسيقيين مقفل الأذنين لا يسمع ما يوحيه لأنه يتلقاه من عالم النسب المحض التى لم تترجمها الأصوات . . وما يتفق هذا لأصحابنا وأصحاب العود والقانون وربع المقام . لأنهم كالمرآة التى تنظر إلى مرآتها ولا تفارقها . فإن فاتهم أن يسمعوا أنفسهم فقرة بعد فقرة لم يحسنوا إسماع الآخرين . .

* * *

وتهيأ صاحبى لسؤال يتردد فقال وهو ينقل بصره بين الصور المتجاورات : إنك لم تجمعها عمدًا على هذا التفاوت البعيد فيما بينها . فأما وقد اجتمعت على غير قصد منك فهل خطر لك قط أن توازن بين أصحابها وأن تسأل نفسك أيهم أعظم وأيهم أحق بالإكبار والإعجاب ؟

قلت : لا يخطر لك على أية حال أننى أنزل بقدر الموسيقى العظيم عن قدر المصلح العظيم أو الزعيم العظيم . إن الأئمة الموسيقيين أندر فى العالم من أئمة الاجتماع وأئمة السياسة ، فلا تحسبه حتمًا لزامًا أن يكون زعماء الاجتماع أو السياسة أعظم من زعماء الفنون ، لأن المعول على الكفاءة اللازمة للعبقرية لا على أثرها فى مواطن الجاه والسلطان ، وليست حاجة الناس إلى شىء هى مقياس العظمة فيه ، لأن الناس يحتاجون إلى سنابل القمح ويستغنون عن اللؤلؤ ، وليس القمح بأجمل ولا أبدع فى التكوين ولا أغلى فى الثمن من الجوهر الذى لا نحتاج تلك الحاجة إليه . .

* * *

قال : وهؤلاء الثلاثة العاملون . . من أعظمهم فى موازين الرجال ؟

وأشار إلى جمال الدين ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول . .

قلت أعظمهم أثرًا فى قطر واحد هو سعد زغلول ، وأعظمهم أثرًا فى جميع الأقطار هو جمال الدين ، وأعظمهم نفسًا فيما أرى هو محمد عبده ، أوسط الاثنين .

قال : وبم كان أعظمهم فى موازين النفوس ؟ . .

قلت : إن عظماء البطولة الإنسانية لا يوزنون بغير الصفة العليا التى تتجلى فى البطولة ، وهى الإيثار .

فإذا تعادلت كفاءات العقل واللسان وكفاءات العزم والعمل ، فليس فى الميزان الإنسانى صدق من وزنه الإيثار للمفاضلة بين المتقاربين فى الأعمال والأقدار . .

قال صاحبى متعجبًا : ومحمد عبده الذى تسنم المناصب ولم يحرم نفسه متعة الأبوة والزواج أعظم إيثارًا من جمال الدين ؟ . .

قلت : قد تكون العزوبة مزيدًا من الاعتداد «بالشخصية» وقد تكون الأبوة مزيدًا من الإيثار .

قال : عليهم سلام اللّه أجمعين ، سابقين ولاحقين ، وراجحين ومرجوحين فليس بالمرجوح من له الرجحان على الألوف وألوف الألوف ، وإن سبقه بالرجحان أستاذ أو مريد وتحول صاحبى إلى صورتى فقال وهو يردد النظر بينى وبينها : لقد سألتك عن صور غيرك فما لى لا أسألك عن صورتك ؟ . . كيف ترى صديقك الفنان قد مثلك فى هذه الأصباغ والألوان ! . .

قلت : على شرطى فى كل تمثيل . .

وشرطى فى الممثل القدير - على المسرح - أنه هو الممثل الذى يمثل لك مالا يقال ، أو هو الممثل الذى يشغل فراغ القول بين عبارة وعبارة من كلمات المؤلفين ، لأن مصاحبة الكلمة الضاحكة بالمنظر الضاحك أو مصاحبة الكلمة الباكية بالمنظر المحزن فن لا يعسر على الكثيرين ، وإنما يعسر عليهم أن يمثلوا لك مالا يقال بين الكلمتين أو بين المنظرين : يصعب عليهم أن يمثلوا لك ما تدركه أنت ولا يقوله المؤلف بلسانه ولا تسمعه أنت بأذنيك .

وكذلك أرى صورتى كما صورها صديقنا الأستاذ صلاح ، لأنه يمثل القابليات ، قبل تمثيل الملامح والمحسوسات فليس فى الصورة حالة محسوسة عنى بها دون غيرها . ولكن ما من حاله قد تطرأ على النفس إلا نظرت إلى الصورة فرأيتها قابلة لها موافقة للتعبير عنها ، وهذه هى ملكة الإيحاء التى تشترط فى جميع الفنون ، فما تحبسه الكلمات والأصباغ من المعانى أو الملامح أقل فى العمل الفنى مما ينطق به الخيال أو يسترسل فيه تداعى الخواطر والأفكار .

وكان آخر ما ودعه صاحبى من المكتبة نخبة من الكتب فى فن الغذاء وأقوال المحدثين عن وحدات الحرارة والفيتامينات . وأول ما استقبله وهو منصرف عنها باب المطبخ على اليمين . فنظر فيه ضاحكًا ، وبادرته سائلا :

- إنك الآن تضحك لأنك فى حل من المقارنة بين طعام العقول وطعام الجسوم! . .

قال : غير هذا قد خطر ببالى حين ضحكت ، وإنما ذكرت قولة لصديق لى كان يستعيدها فى مناسباتها كما تستعاد الحكم المحفوظة . ولست أدرى كيف أطبقها فى هذا البيت ، فإنها غير قابلة فيه للتطبيق .

قلت : طبقها ولا حرج عليك . .

قال : لا . . . إنها لا تنطبق هنا بحال من الأحوال ، لأن صاحبى كان يقول ويزهى بالعلم الذى أوحى إليه حين يقول : إن خطبت فتاة فلا تسأل عن أبيها ولا أمها ولا تسأل عن مالها ولا أدبها ، وإنما تحتال حتى تلقى نظرة فاحصة على مطبخ بيتها ثم تخطبها إذا أعجبك نظام المطبخ وأنت مغمض العينين . .

قلت : لم يعد صاحبك الصواب ، ولو شاء لعمم هذا الحكم المصيب على الأمم فقال : إن أردت أن تخبر أمة من الأمم فلا تسأل عن نسبها ولا حسبها ولا تسأل عن مالها ولا أدبها ، وإنما تسأل عن «مطبخها» فيغنيك العلم به عن كل سؤال .

قال : وكأنى بهذا الرأى - لو صح - يتيح لنا أن نقول إننا نحن الشرقيين سادة العالم وقادة الشعوب ، لأننا أساتذة الشعوب فى المطبخ والمخدع باتفاق الآراء ، وما ينازعنا القوم فى الأستاذية إلا حين يذكرون المعمل والمدرسة ، أو حين يذكرون العلوم والصناعات .

قلت : وهنا أراك قد أخطأت التطبيق يا صاحبى فى حكمة صاحبك الأديب . فإن المطبخ «المثالى» هو المطبخ الذى يستخدم للغذاء وليس بالمطبخ الذى يستخدم للذة الطعام أو لذة النوم . وقد يكون الطعام اللذيذ سما فى باب الغذاء ويكون الطعام وافر التغذية وهو قليل اللذة ، أو لا لذة فيه .

ولا ينكر علينا أحد أننا برعنا فى مطبخ اللذة ، وورثنا فى هذا الفن تركات روما وبيزنطة ومنف وبغداد وفارس والهند والصين . . وعرفنا كيف نطبخ الطبخة التى تمتع ، والطبخة التى تكظ البطون ، والطبخة التى تهيج الأكباد ، والطبخة التى تعين على الشراب ، وجرب ذلك الغربيون فشهدوا لنا بالسبق فى المجال من نساء ورجال .

كتبت «إيزادورا دنكان» أجمل الراقصات فى العصر الحديث تاريخًا لرحلاتها فى الغرب والشرق فذكرت أكلة لها فى قطر من أقطار أوربا الشرقية فلم تنس أن تقول : إنها أكلتها ونامت فاستيقظت وهى تعلم يومئذ كيف يستيقظ الرجال من النوم ويخرجون من البيوت ! . .

وهذه البراعة فى المطبخ الشرقى الفاخر لا نزاع عليها ولا تخلو من الدلالة مع هذا على نصيب الأمة من شواغل العيش ومطالب الحياة . ولكنها تقف بنا دون البغية المرموقة إذا طمحنا بها إلى مقام الأستاذية بين الشعوب ، وإنما كتب «سوء التغذية» على أغنيائنا وفقرائنا على السواء بهذا المطبخ اللذيذ ، وربما كان داء الغنى المستمتع بهذا المطبخ أوبل من داء الفقير المحروم .

وأعرف من فتياننا الموسرين فتى تزوج فأراد أن يستعين على المخدع بالمطبخ فأصيب بداء السكر فى أقل من شهرين ، وكان مصابه بالمطبخ المعين قبل مصابه بالمخدع المستعان عليه ، لأنه أقبل على الدسم والتوابل والمشهيات فأرهق الكبد وأجحف بالبدن كله من حيث أراد له الصحة والمتاع . فبئس المطبخ مطبخ اللذة ، ونعم المطبخ مطبخ الغذاء ، وأعنى مطبخ الفرد والأمة على السواء .

قال صاحبى وهو يصطنع المزاح ولعله أقرب إلى الجد منه إلى المزاح : إنك تخيفنى الساعة بهذا التمهيد ، أترانا مقبلين على مائدة لا تلذ الآكلين ؟ أتحسبنى أطيق أن نقلب صفحة من صفحات هذه الكتب الملعونة كلما أقبلنا على صفحة من الصحاف ؟ . .

قلت : هونًا هونًا أيها الصديق ، فمهما يكن من حكم هذه الكتب الملعونة فكن على يقين أننا فى هذه الحجرات المعدودات لا نعرف كتابًا يطاع كل الطاعة ولا إمامًا يتبع كل الاتباع ، ولك أن تطمئن فيها بعض الاطمئنان إلى غاندى ، وإن عز عليك أن تطمئن كل الاطمئنان إلى أبيقور .

زَاهدَ الهِنْد نَعَى الدُّنْيا وَصَام   أنا أَنعَاها ولكِنْ لا أصوم
طَامعَ الغَرْبِ رَعَى الدنيا وهام   أَنا أَرعاها . . ولكن لا أَهيم
بين هذين لنا حَدٌّ قَوَام   وَلْيَلُمْ مِنْ كلّ حِزْبٍ من يَلُوم

إن هذه الكتب الملعونه – كتب الغذاء والفيتامين – حقيقة أن تراجع وتستشار ، وليست بحقيقة أن تسيطر على العقول والأجساد ، لأنها تعطى الجسد ما يحتاج إليه بمقدار ما يحتاج إليه .. فتسلبه بذلك ألزم خصائص الجسم الحى وهى طبيعة التعويض والتمثيل والتصحيح . وخير من هذا أن نعطى أجسامنا شيئًا ناقصًا فى هذه الوجبة وشيئًا زائدًا فى تلك فتبقى للجسم قدرته على تعويض النقص وتوجيه الزيادة إلى وجهتها ، ونعامله معاملة الراشد الذى يعمل لنفسه ولا يكلفنا أن نعمل له فى كل لقمة وكل جرعة وكل طبخة ، ولست ممن يرتضى القصور للعقول ولا للأجسام ، فكلاهما فى القصور معيب ، وكلاهما فى الرشد جميل ..

قال صاحبى : وإن جسمى لمن أرشد الأجسام فى ساعة الطعام .

قلت : إنك الساعة تخيفنى أشد مما أخفتك يا صاح بذلك التمهيد .

واستقبلنا فى ركن من أركان ردهة المائدة الصغيرة صندوقًا مربعًا يوحى إلى الناظر باسمه المتفق عليه ، وهو التابوت ! ..

سماه باسم التابوت المقدس كل من رآه لأنه يشبه فى منظره وموقعه توابيت القديسين فى أركان المزارات . ولم أنكر التسمية لأن التابوت فيه تقديس وفيه تخليد ، وماذا على الموسيقى التى اشتمل عليها التابوت أن تتصف بالتقديس والتخليد ؟ ..

كان هذا التابوت مشتملا على حاكٍ قديم وبضع مئات من القوالب الموسيقية أو الغنائية المختارة من مسموعات الشَّرق والغرب ، ومنها توقيعات على بعض الآلات السماعية العجيبة التى تختلف بسلمها الموسيقى عن السلم الشائع فى معظم البلدان ، كتوقيعات أهل الصين .

ومزح صاحبى مزحة ليست بالأولى من نوعها لأنها كذلك من وحى المقام . فقال : إن هؤلاء العازفين فى موضعهم هنا لأنهم يعزفون لك على الطعام ، فلا يفوتك حظ الخواقين والشاهات فى قصور البذخ والسلطان !

وأجبته كما كنت أجيب هذه المزحة فى كل حين : إن الإنسان يا أخانا لا يأكل أكلتين فى لحظة واحدة : أكلة روح وأكلة معدة ، وما من كرامة الموسيقى الرفيعة أن تشتغل بشىء آخر وأنت تستمع إليها ، فإنها شاغل كاف لمن يستوعبها ويتقصاها ويتأمل فى معانيها وشاراتها ، وليست تلك الموسيقى التى تتحدث

وتأكل وتتشاغل عنها وأنت تسمعها إلا بمنزلة الجارية المستعبدة من السيدة المطاعة ، لأنها تسليك وتلهيك ولا تخاطب روحك وخيالك ووجدانك فتستدعيك إلى الإصغاء والمبالاة .

لا يا أخانا وكرامة ! . . إننى أختار لهذا التابوت أحيانًا ساعات كساعات التهجد فى جنح الظلام ، فإن كان الوقت شتاء فأكثر ما أرجع إلى هذا التابوت فى ساعات اليقظة الباكرة بعد هدأة النوم الأولى . ويطول الليل وتشقل المطالعة فى الهزيع الثانى أو الهزيع الثالث من ليل الشتاء المديد . إن قبلت هذا التقسيم والترتيب للهزع الليلية . فإذا بى أعرض عن رفوف الكتب وأتوجه إلى هذا التابوت ، لا علالة من الأرق ولا بديلا من الورق ، ولكن تلبية لنجوى العبقريات فى وقت لا يسمع فيه غيرها ولا يوحى فيه السكون السابغ على الكون بغير وصية الإصغاء ، وكأى من مدلج فى الطريق تتسرب إليه تلك الأصداء غير مفسرة ولا متصلة فيخالها من همسات الأرواح والأشباح فى غفلة الإنس وناشئة الصباح . .

وتعمدت العبث والدعابة فقلت لصاحبى : إننا لا نسمعها فى أيام إذاسمعنا أناشيدها أنشودة أنشودة ، فليتنا نسمعها دفعة واحدة فى وقت واحد ! . . ترى كيف تتلقاها المسامع التى تطرب لها متفرقة ؟ . . أليس من حقها أن تسر بالكثير أضعاف سرورها بالقليل ! . .

قال صاحبى : ما أحسب أن أحسن الأنغام إذا قيلت معًا تفضل أسوأ الأصوات وأنكرها فى الآذان . .

قلت : ألا نستخلص من ذلك عبرة من عبر الحياة العظمى ! . . أليس الذين يتعجلون النعم فيخيل إليهم أن ازدحامها خير من تفرقها وأجمع لمحاسنها - يخطئون كما يخطئ الذين يتعجلون النغم فيحسبون أن مائة لحن فى وقت واحد خير من اللحن الفرد وأوفى ! .

شىء واحد فى وقت واحد ، وجميع الأشياء فى جميع الأوقات . . وهذا هو نظام العيش وقوام الجمال فى كل نفع وكل سرور .

قال صاحبى : وهل تسمعها فى الصيف كما تسمعها فى الشتاء ؟ . .

قلت : الحق أقول لك يا صاحبى إننى أود أن أسمعها صيفًا وشتاء كلما انتبهت فى هذا الموعد ، وقلما تمضى ليلة لا أنتبه فيها . ولكن الشتاء مقفل مستور والصيف مفتح مكشوف . ومنظر رجل يستمع إلى الحاكى فى الساعة الثالثة بعد

منتصف الليل منظر يشحذنى لسمعة لجنون المطبق ليلتين أو ثلاث ، ولمن تؤمّنى من هذه السمعة اللازبة ألف شركة من شركات التأمين ، لو عنيت الشركات بالتأمين على العقول .

كلا .. إننى لا أسمعها فى ذلك الموعد من الصيف ، ولكننى أستعيض منها بجلسة فى الشرفة ونظرة إلى الطريق ، وقد يبلغنى الإصغاء إلى السكون أحيانًا ما يبلغنيه الإصغاء إلى أنباء النشيد ..

إننا نكبر بالليل جدا يا صاح ..

إن الليل هو عالم النفس ، وأما النهار فهو عالم العيون والأسماع والأبدان ..

إننا بالنهار جزء صغير من العالم الواسع الكبير ، ولكن العالم الواسع الكبير كله جزء من مدركاتنا حين ننظر إليه بالليل ، وهو فى غمرة السبات أو في غمرة الظلام .

وذلك النجم البعيد الذى تلمحه بالليل هو منظور من منظوراتك ووجود منفرد بك أمام وجودك .

ذلك الصمت السابغ على الكون هو شىء لك أنت وحدك رهين بما تملؤه به من خيالك وفكرك ، ومن ضميرك وشعورك .

تلك المدينة الصاخبة التى تضيع فيها إذا أضاءتها الشمس هى شبح مسحور يلقيه رصد الليل تحت عينيك ، وهى ضائعة كلها إذا لم تأخذها فى حوزة نفسك ومجال بصرك ، وكأنما هى من تلك المدن التى تسحرها لنا الأساطير ... فكلها مفقود فى غيبوبة الأرصاد ، إلا السائح الذى ساقه إليها القدر وهو ساهر الظلام !

أنت عالم النفس بالليل ، كأنما توازن وحدك عالم الأنظار والأبدان .

وأنت تشمل الدنيا بالليل وهى تشملك بالنهار .

وأنت فى حضرة أعظم من حضرة الحس حين لا حس يشغلك عن عالم السريرة ..

أنت فى حضرة الخالق حين لا تكون فى حضرة المخلوقات .

ومن سعد بهذه النشوة فى ساعة من ساعات الهزيع الأخير ، فلا ضير عليه أن تفوته نشوة السماع .

وكنا قد فرغنا من الطعام وقضينا سويعة فى أشباه هذا الكلام ، فإذا بصاحبى ينهض من المائدة وهو يقول :

– هذه المائدة ، وهذا التابوت ! . .

قلت : وهذه المزامير ! . .

وسمعنا بعض أدوار المطربين وشيئًا من أغانى الصعيد ولبنان . . ثم نقلت صاحبى نقلة بعيدة فأسمعته بعض الألحان التى لا تعذب فى جميع الآذان . .

وسألته : أفهمت شيئًا مما سمعت ؟ . .

قال : لا واللّه . .

قلت : وأنا مثلك . . هذا موسيقار الغرب الأشهر ولهلم فاجنر ، وأنا لا أفهم منه إلا أقل من القليل ، ولكنه عند نقاده موسيقار جليل وعبقرى نادر المثيل . .

قال : وهل يفهمه الغربيون كلهم وهو مغلق على أناس منا كل هذا الإغلاق ؟ . .

قلت : بل يسخر بعض الغربيين بهذه الموسيقى وأمثالها كما نسخر نحن منها ، ولهم فى التندر عليها قفشات تذكرنا بقفشات أولاد البلد ، لأنها تجرى على أسلوبها . هذا يزعم أن القرن النحاسى اعتدل من النفخ فيه بأمثال هذه الأنغام ، وذاك يزعم أن طبيبًا أخذ مريضه الأصم إلى فرقة من هذه الفرق ليشفيه بضجيجها فسمع المريض وصم الطبيب ! . .

فليست كل موسيقى مفهومة عند كل سامع ولو كان الموسيقيون والسامعون من بلد واحد ، وليس من اللازم أن يستطيب محب الغناء كل غناء ، ولا أن يستطيب محب الشعر كل قصيدة ، ولو كان من أجود الشعراء . .

قال : ولماذا لا نلغيه من عداد الموسيقيين كما ألغينا أولئك المبتدعين المحدثين من عداد المصورين ؟ . .

قلت : أولئك فهمنا أنهم سخفاء . أما هذا فنحن لا نفهمه ولا ندينه بما لا نفهمه . ولو كنا نحيط بكل سر من أسرار الموسيقى ونتلبس بكل مزاج من أمزجتها لصح أن نقضى عليه وعلى المعجبين به وبفنه ، فقصارانا إذن نقضى فيه بأنه عندنا نحن «غير مفهوم !» .

وامتدت السياحة خطوة فإذا نحن فى حجرة النوم . .

وحجرة المائدة وحجرة المكتب . . ليس عليهما حجاب . .

غير أننى قلت لصاحبى : إن هذه الحجرة تعنينى ولا تعنى أحدًا غيرى من الناس ، اللهم إلا بعض الصور الفنية التى فيها . وكلها منسوخة من أصولها

المحفوظة فى متاحفها ، فليس فيها من صورة أصيلة أو تحفة غالية ، ما عدا واحدة بمفردها هى بينها آية الاستثناء فى كل قاعدة من قواعد التعميم .

هذه شالومه أو سلامه ، صاحبة هيرود ، من تصوير الفرنسى بروسيير : كان ثمن رقصتها فى زمانها رأس نبى من أنبياء بنى إسرائيل . ولا تزال رقصات الفاتنات من خليفاتها تكلف الناس كثيرًا من الرءوس ، وإن لم تكن رءوس أنبياء :

فإن هذا الصنف قد انقطع عن الدنيا منذ زمن بعيد !

وهذه صورة الزهرة من تصوير الإسبانى فيلاسكيه . جسد بديع وقوام ساحر ومعاطف منسوقة . . لولا أمانة فيلاسكيه المشهورة لحسبناها من تنسيق الخيال . . شغل بها المصور فمثلها على تمامها ولم يمثل لنا الوجه إلا فى مرآة رفعها رب الحب أمام ربة الجمال .

* * *

وهذه صورة تاييس وهى تهدم إيمان الناسك المسكين ، ووقف أمامها وقد تبادلا الفتنة فأخذها بوعظه وأخذته بغواية جسدها ، ولبس هو طيلسان الأثرياء وخلعت هى كل طيلسان ، وكأنها شاء المصور أن يعقد المقارنة بين الفاكهة الشهية وبين ثمرات البساتين . فجود ما شاء فى العنب والموز والبرتقال ، ولكنه تركها إلى جانب هذا البستان الحافل كأنها الماء الذى لا طعم له ولا لون ، ولا يروى الظمآن إلا شراب ذلك البستان . .

قوتان متناجزتان لم تشغل الميدان قوتان أكبر منهما منذ تصارعت فى هذه الأرض قوتان :

عقيدة وشهوة ، نسك وفتنة ، جسد تمرد من طرف الحرمان ورووح تمردت من طرف المتاع بالشهوات .

ولقد رزقت المرأة فتنة قوية ولم ترزق عظمة قوية ، فلم يزل عزيزًا عليها أن تتخذل بالفتنة أمام العظمة ، ولم يزل من دأبها أن تجرب هذا السلاح أمام كل سلاح ، فجربته فى كفاح الوفاء وكفاح البطولة وكفاح النسك والزهادة ، وشاءت فى هذه الجولة أن تضرب أقوى ضرباتها لأنها آخر ضرباتها. فلما ضربتها سقطت من الإعياء ساجدة . . فكانت سجدة العمر إلى الممات ، وخرجت الراقصة عابدة من ميدان صراع .

وانتصر الخصمان وهما منهزمان أكبر انهزام : راقصة تفتن ناسكًا وناسك يصلح راقصة وذلك أقصى مدى الهزيمة والانتصار .

فلما انجلى الغبار كانت الراقصة راهبة فى الدير وكان الارهب مفتونًا يهيم فى وادى الغواية ، كلاهما صارع مصروع ، ومفلح مخفق ، وصامد هارب من الميدان .

وهذه صورة لسوق الرقيق فى عاصمة من عواصمنا الشرقية : تعجبنى منها عصبية الفنان لوطنه وإن لم تعجبنى منها حيدته عن الحقيقة فى هذه العصبية . .

فهذه السمراء الشرقية تراها مزهوة بعرض محاسنها كأنها ترحب بنظرات سيدها الذى أوشك أن يشتريها ، ولا يعنيها الخجل كما يعنيها أن تظفر فى هذا الموقف المخجل بنظرة استحسان . .

وهذه البيضاء الغربية تدارى وجهها بيديها وتطرق برأسها وتدع الأنظار ترتع فى محاسنها كأنها تتلقاها على الرغم منها .

وفى الشرق خفر كثير لأنه وطن الحجاب ، وفى الغرب جرأة كثيرة لأنه وطن السفور . . فإذا وجدت شرقية واحدة وغربية واحدة فى سوق واحدة فهل من المحتم أن تكون لشرقية مثلا للتهتك الوقاح ، والغربية مثلا للخفر الخجول ؟

قال صاحبى : أو لا يجوز للفنان أن يتعصب لوطنه ؟ . .

قلت : بلى يجوز بل يجب فى كثير من الأحيان ، ولكن على أن يصدق البيان ولا يتكفل بتشويه الحقيقة ، لأن الفن جمال ، والجمال عدو لكل تشويه . .

وتلى صورة الجوارى فى سوق الرقيق صورة الينبوع العذب الصافى البرود . وبرودته تتراءى من صفائه فى مجراه ، وقد جعله «انجرز» صبية كاعبًا تنضح بالصباحة والطهارة وبراءة المحيا ونقاوة القسمات ، وأعطاه عمرًا وحياة كأنه لم يبلغ بعد سن الينابيع الكبار ، وكأنه بين موارد الماء الفياضة تلك الصبية الكاعب بين أمهاتها وجداتها من النساء .

وأصبحنا أمام الصورة الأصلية التى انفردت بين هذه النسخ المنقولة . .

قال صاحبى : إننى أفهمها وإن لم أعلم بخبرها .

قلت : إنها لا تحتمل غير معنى واحد : فطيرة حلوى يشتهيها الجائع والشبعان ، بل يشتهيها المتخوم والمكظوظ . . . وعليها صرصور وذباب يحوم ، وفى القدح الذى يفرغ عليها الحلاوة عسل يضطرب فيه بعض الذباب ويموت . . فلا يأكل

من الفطيرة الحلوة على هذه الصورة شبعان ولا جوعان . بل تعزف النفس حين تراها عن كل طعام .

وقيمة الصورة أن تاريخ الفن كله - بل تاريخ العبادة من أوائله - مرتبط بالباعث على تمثيلها فى هذه الرموز .

فقد وجد الفن فى الدنيا لأن النفوس تمتلئ بالشعور وتشتغل به كل الاشتغال ، فلا تقنع به شعورًا بل تطلبه حسا منظورًا . ولا تشاء أن تظل فيها حاسة من حواسها فارغة منه غير مملوءة بمثاله . ومن هنا نشأ التصوير ونشأ التجسيم . ومن هنا نشأت هذه الصورة اليوم كأنها أول اختراع لفن التصوير .

* * *

وكانت جولة الوداع فى حجرة الاستقبال .

قال صاحبى وهو يستقر فيها : لقد سمعت عن حديقة الحيوان وقرأت فى وحى الأربعين عنها أنها «لا تجمع إلا الفنان أو المحب للفنون ، سمى كل زميل من زملائها باسم حيوان يلاحظ فى اختياره اتفاق الشبه فى الملامح والعادات ، وقد جمعها الفن كما كان أورفيوس المعروف فى أساطير اليونان يجمع الأحياء حين يغنى ويعزف فتقبل عليه كل فصيلة وهى لا تشعر بخوف أو تهم بعدوان» . . فهل لى مكان فى جوار أورفيوس ؟ .

قلت : إن طال استقرارك ظفرت بمكان ، بعد الموافقة والامتحان . . ولا تحسبن الطموح إلى هذه المنزلة من يسير الأمور التى تبلغ بغير عناء . فأولى لك أن تحسبه من الادعاء الذى يتطلب التزكية والشهادة ولا تحسبه من التواضع الذى يقبل بغير تزكية ولا شهادة . . . فهل تدرى من هم أكثر الناس حرصًا على مظاهر الوجاهة وشارات الثروة وعناوين الفخار ؟ . . إنهم أحدث الناس نعمة وأقربهم إلى الضياع فى غمار الوضعاء والأذلاء إن لم يتميزوا أبدًا بتلك المظاهر وتلك الشارات وتلك العناوين . وكذلك مقياس الإنسانية عندنا فى هذه الحديقة : أصحاب الإنسانية المحدثة هم أحرص على مظاهرها وشاراتها وعناوينها ، وأشبه الناس بالأحياء الدنيا من ينخلع عنه شعار الإنسانية باسم وعنوان ، وإنما يقاس نصيب المرء من الإنسانية بمقدار عطفه على الحيوان واقترابه من فهمه وفهم شعوره ، فمن قام بينه وبين معاطفة الحيوان حجاز حاجب فذلك حجاز بينه وبين الفهم والعطف والشعور ، وهى أكرم مزايا الإنسان . .

قال صاحبى : أنا لا أنكر شيئًا فى الحديقة وترشيحاتها ولكننى أود أن أعرف كيف جمعتموها وكيف جاءت هذه التسمية أو كيف اخترتموها ؟ . .

قلت : أحسبها تسمية ترجع إلى مرجعين لا إلى مرجع واحد ، أحدهما قريب ظاهر والآخر بعيد باطن . فأقرب هذين المرجعين هو فن المحاماة عند صديق من أصدقائنا الأعزاء . فما تقع عينه على أحد يلفت النظر إلا أسرع إلى تشبيهه محاكاته ، فإذا هو شبه محكم ومحاكاة تطابق الشبع من جميع وجوه المطابقة ، ولا يعفى من هذه العادة ألصق الناس به وأقربهم إليه ، بل هؤلاء هم فى الغالب هدفه الأول وإصابته المسددة . . وخلقته هو على هذا القياس هى أول ما يستهدف وأول ما يصيب .

فإذا تألب عليه الصحاب تندرًا وسخرية ومزاحًا شهر عليهم هذا السلاح وأسكتهم عنه بالبدء بنفسه والعدل فى توزيع نقمته . ومن دلائل عدله أنه لا يطلق على أحد شبهًا من الأشباه إلا وافقه الحاضرون جميعًا ما عدا صاحب الشبه . . . فإنه قد يمانع هنيهة ثم يلقى يد السلم ويعترف «بالخلعة السنية» التى خلعت عليه . .

أما المرجع الآخر فأحسبنى أنا المسئول عنه من حيث أريد أو لا أريد . فإن عادة عندى - بل أقوى من عادة - أن أشعر بوحدة الخلق كله وأن أنظر إلى جميع الأحياء كأنها تجربة واحدة تنجلى عن مقصد واحد ، وإننا ربما فهمنا مقصد التجربة من مسوداتها الأولى قبل أن نفهمه من النسخة المنقحة المصقولة . . . وإن كانت النسخة المنقحة المصقولة أجود فى التعبير وأفصح فى الأداء .

* * *

وما قرأت قط خرافات الأقدمين عن شائع الأحياء إلا خيِّل إلىَّ أنها تنطوى على أكثر من خرافة أو لعبة خيال ، وتساءلت قبل نيف وثلاثين سنة عن مغزى تلك الأساطير التى تحكى عن أناس لهم أجسام آدميين ووجوه كلاب ، أو مغزى تلك التماثيل التى تجمع بين أجسام الوحوش ورؤوس الآدميين ، فقلت من كتاب الفصول : «ما مغزى هذا الإجماع والتواتر؟ . . . وماذا فى طى هذا الاعتقاد بأن الإنسان يتحول أحيانًا من هيئته إلى هيئة حيوان أدنأ منه ، أو أن فى عالم الحياة مخلوقًا بعضه إنسان وبعضه حيوان ؟ . . هذا شعور لم يرد إلينا من ناحية الحواس ولكننا لا نجد له ، وصحيح أن الخيال مفطور على مزج أشكال الحس والباس الموجودات لباس الإنسانية ، ولكن لماذا فطر الخيال على ذلك ؟ أكان يستحيل

أن يفطر على غير هذه الفطرة ! . . وهل لو خلق الإنسان من غير عنصره المعروف كان يتخيل هذا الخيال بعينه ؟ . . ألا يجوز أن يكون مغزى هذا الإجماع والتواتر أن فى جلبة الإنسان شعورًا راسخًا بوحدة الخلق وتلاحم سلسلة المخلوقات . . . شعورًا أعمق من الفكر لا بل أعمق من الخيال نفسه ، يتكلم باللسان فيكنى ويلفق ويتكلم بالبديهة فيصرح ويصدق ؟ . . ولماذا ننفى وجود شعور كهذا يصل الإنسان على وجه ما بشىء من أسرار الحياة مع علمنا أن الإنسان قد اتصل بالحياة قبل أن يصله بها عقله وحواسه؟ . . أليس ترجيح وجود هذا الشعور أولى وأحرى بقدم العلاقة بين الأحياء والطبيعة ؟ . . فلا يبلغن من قصور العقل ألا يصدق إلا العقل وحده ، ولا يبلغن من ضيق النظر أن نقسر حواس النفس كلها على أن تنمو نمو الحواس الخمس . . كأن الإنسان لا يتصل بالدنيا إلا بها ، وكأنها الخيال ليس جزءًا من الإنسان كما هى جزء منه . . » .

وهذا الشعور الكمين لا أحبه غائبًا عنى يوم نشرت خلاصة اليومية وكتبت فى تصديرها «إن الإنسان حيوان راق ولكنه لا يزال حيوانًا» . . ويوم كتبت مجمع الأحياء وعقدت فيه مؤتمر الحياة بين الحمامة والأسد والنمر والقرد والثعلب والإنسان والمرأة وسائر الأحياء ، ثم يوم رثيت كلبى بيجو وجعلته شاهدى على بعض المذاهب فى التربية . . والدراسات النفسية . . فإذا كانت «حديقة الحيوان» فكاهة من فكاهات المجالس فليست هى من الفكاهات العابرة ولا من الفكاهات الرخيصة لأن لها أصلا أصيلا من الجد بعيد القرار .

* * *

ونظر صاحبى إلى يمينه وأوشك أن يجفل جفة الخوف ، لأنه رأى هنالك تمثال بومتين دقيقتين ، يحفان بالساعة الصغيرة عن اليمين وعن الشمال . وقال : رب هذا من ذاك ! . . ثم قال ترى لو دخل صاحبك ابن الرومى هذه الحجرة ونظر إلى هذين التمثالين المخيفين – ماذا كان يصنع يا ترى ؟ . .

قلت : لا شك أنه كان ناكصًا على عقبيه على الأثر ، وإن كنت قد وضعت هذين التمثالين فى موضعهما وتحديث الشؤم كله لأجله هو جزاه اللّٰه . .

لاحقه الشؤم فى حياته وقلّ منصفوه بعد مماته ، وضل معظم النقاد فى أمره لأنه من طراز غير الطراز الذى يقيسون عليه ، فهو عندى – بغير خلجة من الشك – وحيد شعراء العالم من مشرقه إلى مغربه ومن قديمه إلى حديثه فى ملكة «الوعى» والتصوير . . وهى أنفس الملكات الى يرزقها رجال الفنون ، فلا يضارعه

فى هذه الملكة شاعر عربى ولا شاعر أعجمى ، ولا يناظره فيها فحل من فحول التشبيه والتصوير فى أدب اليونان والرومان ولا فى أدب الغربيين المحدثين ، ولم أعرف بين أدباء الأمم الأخرى التى اشتهرت بدقة التشبيه - كأدباء الصين واليابان - من يجرى فى غباره أو ينسج على غراره . ومثل واحد يغنى عن مئات الأمثال ، وهو وصفه لحقل الكتان حيث يقول فى بيتين اثنين :

وجلس من الكتان أخضر ناعم تــوسنه دانى الربَاب مَطير
إذا اطّردت فيه الشمال تتابعت ذوَائبه حتى يُقَال غدير

فالواعية الفنية وحدها هى التى تغريه بوصف حقل من حقول الكتان التى مرت بألف شاعر منذ الخليقة ولم يلتفتوا إليها ، لأن حقل الكتان لا يحسب من موضوعات الوصف التقليدية بين شعراء التقليد ، فليس هو بروضة من رياض الورد والياسمين وليس هو بستانًا من بساتين الفاكهة والثمرات ، ولا هو بمنزه من منازه الحسان أو موعد من مواعيد الغرام . . فانظر كيف علق هذا المنظر بوعيه اللاقط المستوعب وكيف أحصى عليه كل ما يحصيه التصوير فى شرط النقد الحديث ، بعد طول المشاهدة والمراجعة لآيات الأساتذة من نوابغ التصوير . . واذكر كيف صنع ذلك بداهة وابتداعًا غير عامد ولا متنبه ، وهم يتعمدون ما يسجلون من ملاحظات النقد ويتنبهون إليه .

فالنقد الحديث يشترط على المصور النافذ البصر والبصيرة أن يستوعب المنظر فلا يفوته اللون ولا الملمس ولا الزمان ولا جو المكان ولا الحركة التى تشيع فيه إن كانت فيه حركة ، أو السكون الذى يشمله إن كان به سكون . .

وكل أولئك تجده فى البيتين الاثنين مطبوعًا منقولًا إليك نقل البداهة عن تلك الواعية المستوعبة التى لا تفوتها مدركة من مدركات الحس والخيال : لمح اخضرار اللون ، ونعومة الملمس ، وأحاط بوقت الصورة كما مثلت أمامه فهو وقت الوسن ، وأحاط بجو المكان فهو المكان الذى يظل عليه رباب مسف فويق الأرض يؤذن بالمطر القريب ، وأحاط بالحركة وبمصدرها من ريح الشمال فإذا رؤوس الشجر تموج بالحركة الذاهبة الآيبة فكأنها صفحة غدير . لا موضع لنقص فى الصورة ولا محل فيها لزيادة ، وليس أصدق من الوعى الذى حسن اللقط وأحسن التمثيل فى لمحة عين وفى بيتين اثنين .

* * *

مثل هذا المقياس الذى تقاس به الواعية الفنية لم يكن مقياس أولئك النقاد الذين جعلوا فضل ابن الرومى وأشادوا بفضل سواه ، ولو أنهم تتبعوا مئات الأبيات من شعره - بل ألوفها - على هذا المنوال لعلموا أنه مغبون - جد مغبون - حين يقرن بشاعر من شعراء العالم كائنًا ما كان فى هذه الملكة الفريدة . . فكيف بالغبن الذى يصيبه إذا قدموهم وأخروه وأشادوا بفضلهم وأنكروه !

أثارنى هذا الظلم فآليت لأدفعنه عنه ، فإذا بصحبى يثنوننى عن إنصافه وهم وجلون ، ولئن كانوا غير جادين لقد كانوا كذلك غير مازحين . فما لقينى أحدهم مشتغلا به إلا صاح بى : حذار حذار ، إنه مركب غير مأمون العثار ! . . والرجل موصوف ببأسه فى شؤمه فلا شأن لك بإنصافه وظلمه ، ودعه لقضائه ، واقنع بأنك من قرائه ، فقد يتحداك شقاؤه إذا تهجمت على حرمة شقائه ! . .

وكانت ثورة فأصبحت ثورتين : لقد ذل من يخاف ذلك الشؤم المعتز بجبروته ، ولقد طغى ذلك الشؤم الذى يسطو على فريسته فى حياتها وبعد مماتها ثم ينذر بالنقمة من يتصدى لغوثها ، فإذا أنصفنا الشاعر المغبون وغضب الشؤم والواقف له بالمرصاد فليصنع الشؤم إذن ما يشاء .

وسكنت هذا البيت ورقمه ثلاثة عشر ، ووضعت فيه التليفون ورقمه يومئذ مبدوء بثلاثة عشر ، وجعلت أسأل الشؤم فى كل دعوى من دعاويه وأولها دعواه الكبرى على البومة المسكينة ما لهذه الطريدة المظلومة وهى قد تركت الدنيا والنهار للإنسان ولاذت منه بالليل والخلاء ؟ . . وما عيبه عليها وهى أوفى الطيور فى عشرة الأليف منها للأليف ؟ أليست هى إحدى الأحياء النادرة التى يسكن الزوج منها إلى زوجه مدى الحياة ؟ . . أليست هى التى تغنى لنور القمر ولعزلة الليل ولا تقحم صوتها على من يأباه ! . . ألم تكن عند الأثينيين - وهم عباد الجمال - رمزًا للمدينة ينقشونه على الدراهم مع أغصان الزيتون ؟ . . فإذا جنى الظلم على سمعتها ولاحقها الظلم فى خلوتها فليصنع ما بدا له فإننا نتلقاه منها باثنتين لا بواحدة ، لأنها لا تحب الفراق ، وإن زعموها نذير الفراق . .

* * *

قال صاحبى : وكيف رأيت العاقبة ؟ . .

قلت : خير بعد شر ، وفلاح بعد كفاح ، فلا أخفى عليك يا صاحبى أن أمر ابن الرومى فى سمعته تلك أمر عجيب مفرط فى العجب ، وأننى لو صدقت

خرافة من الخرافات لصدقت خرافة الشؤم والتشاؤم ، وصدقتها فى ابن الرومى هذا قبل غيره . فما حدث منه قد شهدته بنفسى وخبرته فى صحبى ، ولم أعتمد فيه على رواية الأقدمين ولا على مبالغات المتندرين ، لأننى تعاقدت على طبع كتابى عنه مع مدير المطبعة فمات هو وسجنت أنا قبل الفراغ من ملازم الكتاب الأولى ، وكان وزير المعارف «أحمد حشمت» قد أوصى بطبع ديوانه وأقام على تصحيحه مفتش اللغة العربية فى الوزارة ، فعزل الوزير والمفتش وماتا قبل الفراغ من جزئه الثانى ، وكتب المازنى فصولا عنه فكسرت رجله ونشر صاحب الثمرات قصائد من ديوانه فكسرت رجله ، وهمَّ صاحب البيان بنشر مطوَّلاته والعناية بأخباره فتعطلت مجلة البيان ، فلو كانت هذه المصادفات أسبابًا يؤخذ بها وترتبط بنتائجها لكان الشؤم المزعوم حقيقة من الحقائق العلمية التى لا شك فيها ، ولكنها مصادفات سيئة تقترن بها مصادفات حسنة ، ولا يجوز لنا أن نركن إلى هذه ولا إلى تلك على انفراد ، فقد أنجزت كتابى عن ابن الرومى فكانت السنة التى ظهر فيها من أسعد السنوات فى حياتى الخاصة وأبرزها فى حياتى العامة ، وسلك الكتاب سبيله بين مراجع الأدب المعدودة فى هذا الجيل ، فإن كان الشؤم على صولته التى يتخيلوها فقد تحديناه ، ونجحنا فى تحديه بحمد اللّه .

ولم يكن فى الحجرة شىء سبقته إلى سكن هذا البيت منذ سكنته قبل زهاء عشرين سنة ، فكل ما فيها قد دخل البيت يوم دخلته وبقى هناك كما بقيت .. إلا بعض الصور ، والمذياع .. !

ففيها صورة للقصر المعروف باسم «أنس الوجود» من صنع الفنان التركى القدير الأستاذ هذايتى . تلمح من نظرة واحدة إليها غرابة الجو المصرى والألوان المصرية الوضاءة على آثارنا الخالدة كما تبدو فى عينى الفنان الغريب عن الديار .

* * *

وفيها صورة لى من صنع الأستاذ «أحمد صبرى» وهو من أساطين فن التصوير فى هذا البلد ، وله ريشة ثابتة وألوان صحيحة وطريقة مأثورة عن عباقرة المدرسين الأقدمين ، لا تستهويه البدع المستحدثة ولا يروقه من ملامح الوجوه إلا ما ينم على جد واهتمام .

وفيها صورة لشاطئ الزمالك من صنع المصور الموهوب الأستاذ شعبان زكى ، وهو فنان ينظر ويحلم ويسبغ من أحلامه كثيرًا على المناظر الطبيعية أوالحوادث

التاريخية التى يسجلها . ومن آثاره التى تتجلى فيها أحلام التصوير والأدب صورة امرئ القيس والعذارى وهو مرابط لهن على حافة الغدير .

وهناك تمثال نصفى أهداه إلىّ بعض الهواة ممن يشتغلون بغير النحت ولا يظهرون آثارهم الفنية .

أما المذياع فلم يكن قد ذاع يوم سكنت هذه الدار ، ولم أكن أرى منه فى مصر الجديدة إلا أدوات عاجلة يركبها بعض الكهربائيين على أيديهم ، وتسمع أو لا تسمَع كالمركب الشراعى الذى يسير أو لا يسير «على حسب التسهيل» .

قال صاحبى : إن نقل الصوت من المكان البعيد معجزة كافية . فكيف إذا أضيفت إلى هذه المعجزة معجزة النقل من زمان بعيد ؟ .. إنهم يزعمون ذلك فى الإمكان ، ويقولون إن استخلاص أصوات الأقدمين كما نطقوا بها فى حياتهم ليس بالمستحيل . لأنها محفوظة فى بعض طبقات الجو البعيد ، لا يؤثر عليها الاختلاط إلا كما يؤثر الاختلاط على أصوات المحدثين ..

قلت : لو كان لى لسانان لقال أحدهما : مرحى ! .. وقال الآخر فى الوقت نفسه : أعوذ باللّه ! ..

* * *

إننا نحب أن نسمع الأنبياء وهم يخطبون ، والأبطال وهم يناضلون ، والشعراء وهم ينشدون وأصحاب الأغانى وهم يترنمون .. ولكن مَنْ مِنْ هؤلاء الأبطال يرضى أن تسمعه وهو فى خاصة وقته بين أهله أو ندمائه ! .. ومن من الناس فى عصرنا يحب أن تنقل عنه كل كلمة قالها وكل سر همس به وكل آهة من آهات الضعف فارقت شفتيه ؟ .. إن الاستعاذة باللّه هنا تحتاج إلى مائة لسان إذا كان الترحيب يكفيه لسان واحد . فليكن «وعيد» العلماء إذن من المستحيل ، وإلا أصابهم منه ما يصيبون به الآمنين فى القبور ..

* * *

من مؤلفات عملاق الأدب العربى الكاتب الكبير
عباس محمود العقاد

١ - الله
٢ - إبراهيم أبو الأنبياء
٣ - مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية
٤ - عبقرية محمد ﷺ
٥ - عبقرية عمر
٦ - عبقرية الإمام على بن أبى طالب
٧ - عبقرية خالد
٨ - حياة المسيح
٩ - ذو النورين عثمان بن عفان
١٠ - عمرو بن العاص
١١ - معاوية بن أبى سفيان
١٢ - داعى السماء بلال بن رباح
١٣ - أبو الشهداء الحسين بن على
١٤ - فاطمة الزهراء والفاطميون
١٥ - هذه الشجرة
١٦ - إبليس
١٧ - جحا الضاحك المضحك
١٨ - أبو نواس
١٩ - الإنسان فى القرآن
٢٠ - المرأة فى القرآن
٢١ - عبقرى الإصلاح والتعليم الإمام محمدعبده
٢٢ - سعد زغلول زعيم الثورة
٢٣ - روح عظيم المهاتما غاندى
٢٤ - عبدالرحمن الكواكبى
٢٥ - رجعة أبى العلاء
٢٦ - رجال عرفتهم
٢٧ - سارة
٢٨ - الإسلام دعوة عالمية
٢٩ - الإسلام فى القرن العشرين
٣٠ - مايقال عن الإسلام
٣١ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه
٣٢ - التفكير فريضة إسلامية
٣٣ - الفلسفة القرآنية
٣٤ - الديمقراطية فى الإسلام
٣٥ - أثر العرب فى الحضارة الأوروبية
٣٦ - الثقافة العربية
٣٧ - اللغة الشاعرة
٣٨ - شعراء مصر وبيئاتهم
٣٩ - أشتات مجتمعات
٤٠ - حياة قلم
٤١ - خلاصة اليومية والشذور
٤٢ - مذهب ذوى العاهات
٤٣ - لا شيوعية ولا استعمار
٤٤ - الشيوعية والإنسانية
٤٥ - الصهيونية العالمية
٤٦ - أسوان
٤٧ - أنا
٤٨ - عبقرية الصديق
٤٩ - الصديقة بنت الصديق
٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية
٥١ - مجمع الأحياء
٥٢ - الحكم المطلق
٥٣ - يوميات جزء أول
٥٤ - يوميات جزء ثانى
٥٥ - عالم السدود والقيود
٥٦ - مع عاهل الجزيرة العربية
٥٧ - اشتات مجتمعات فى اللغة والأدب
٥٨ - مواقف وقضايا فى الأدب والسياسة
٥٩ - دراسات فى المذاهب الأدبية والاجتماعية
٦٠ - أراء فى الأدب والفنون
٦١ - بحوث فى اللغة والأدب
٦٢ - خواطر فى الفن والقصة
٦٣ - دين وفن وفلسفة
٦٤ - فنون وشجون
٦٥ - قيم ومعايير
٦٦ - ديوان فى الأدب والناقد
٦٧ - عبد القلم
٦٨ - ردود وحدود

الفهـــرس

صفحة

الكتاب والكاتب ٣
الفصل الأول : ١٥
أنا ١٥
أبى ٢٥
أمى ٣٠
بلدتى ٣٤
طفولتى ٣٦
ذكريات العيد ٤٢
الفصل الثانى : ٤٧
أساتذتى ٤٧
٣ أشياء جعلتنى كاتباً ٥٧
هجرت وظائف الحكومة ٦١
الفصل الثالث : ٦٥
قلمى ٦٥
لماذا هويت القراءة ٦٨
الكتب المفضلة عندى ٧١
منهجى فى كتابة المقالات ٧٣
منهجى فى تأليف الكتب ٧٧
مالم أكتب وما أريد أن أكتب ٨٢
الفصل الرابع : ٨٥
عرفت نفسى ٨٥
عرفت طريقى للنجاح ٨٨
تعلمت من أوقات الفراغ ٩١
أحرج ساعة فى حياتى ٩٥
كنت شيخاً فى شبابى ٩٧

صفحة

الفصل الخامس : ١٠١

أصدقائى وأعدائى ١٠١

أصدقائى الأطفال ١٠٦

أنا فى السجن ١١٠

خواطر فى الصحة والمرض ١١٧

الفصل السادس : ١٢٢

إيمانى ١٢٢

لو عدت طالباً ١٢٦

فلسفتى فى الحب ١٣٠

فلسفتى فى الحياة ١٣٥

الحياة . . هل هى جديرة بأن نحياها؟ ١٣٨

الفصل السابع : ١٤١

طفت العالم من مكانى؟ ١٤١

أجمل أيامى ١٤٤

أكره الصيف ١٤٧

الفصل الثامن : ١٥١

بعد الأربعين ١٥١

وحى الخمسين ١٥٥

وحى الستين ١٥٩

وحى السبعين ١٦٣

اعترافاتى ١٦٧

الفصل التاسع : ١٧١

فى مكتبتى ١٧١

بين كتبى ١٨٩

فى بيتى ٢٠٧

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع



من شعر عملاق الأدب العربى
عباس محمود العقاد

١. ديوان يقظة الصباح
٢. ديوان وهج الظهيرة
٣. ديوان أشباح الأصيل
٤. ديوان وحى الأربعين
٥. ديوان هدية الكروان
٦. ديوان عابر سبيل
٧. ديوان أعاصير مغرب
٨. ديوان بعد الأعاصير
٩. ديوان عرائس وشياطين
١٠. ديوان أشجان الليل
١١. ديوان من دواوين

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع